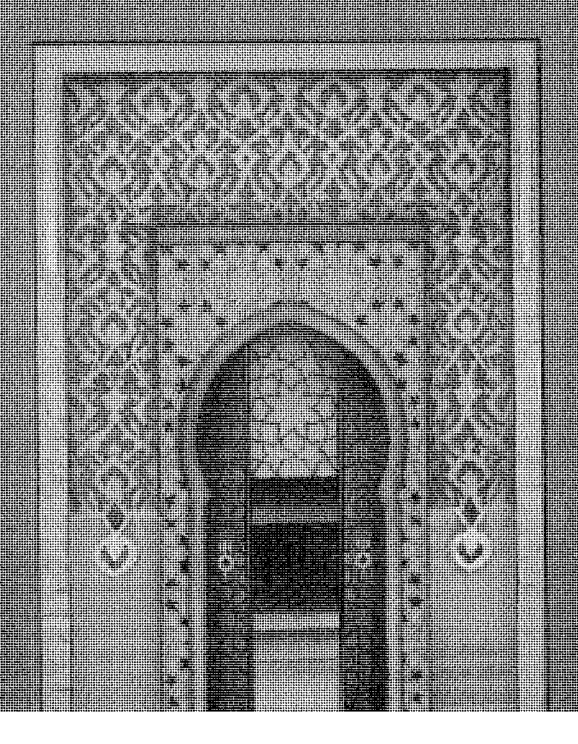
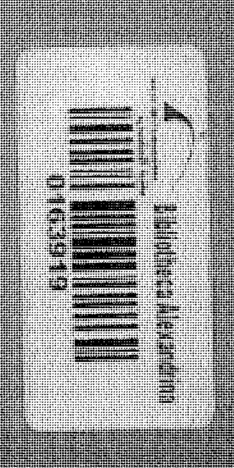
الأستاذ نجيب زبيب

الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس

تقديم سعادة السفير

احمد ابن سودة





دار الأمير

دار الأمير للثقافة والعلوم ش. م. م

مؤسسة تعنى بالنتاج الفكري وشؤونه

وتواكب نشاطه وتطوره.

العنوان: بيروت ص. ب ٥٥٥١/ ١١٣

هاتف: ٦٠١٠٢٠/ ٨٢٣٥١٢ مقسم ٥١٩

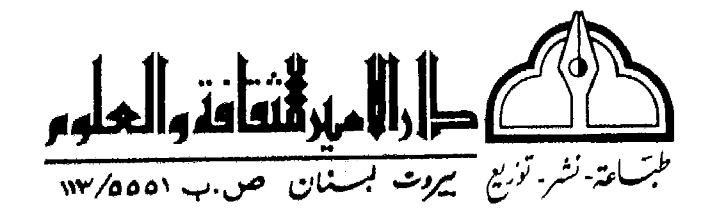
فاكس: ٦٠١٠٠٥ بيروت

٤٦٢٢٥٨٤٨/ ٣٥٧ قبرص

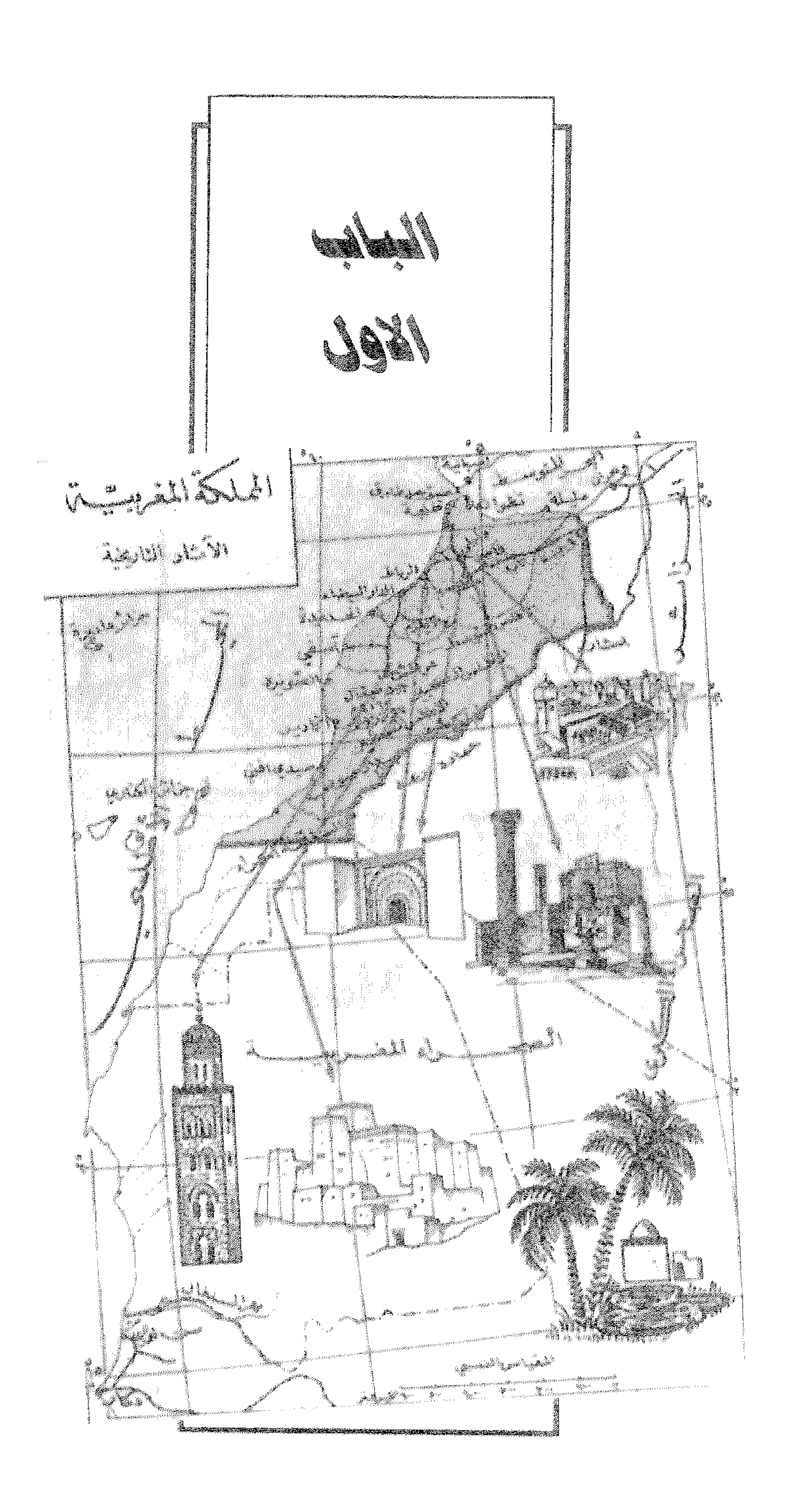
الموسوعة العامة
لتـاريخ

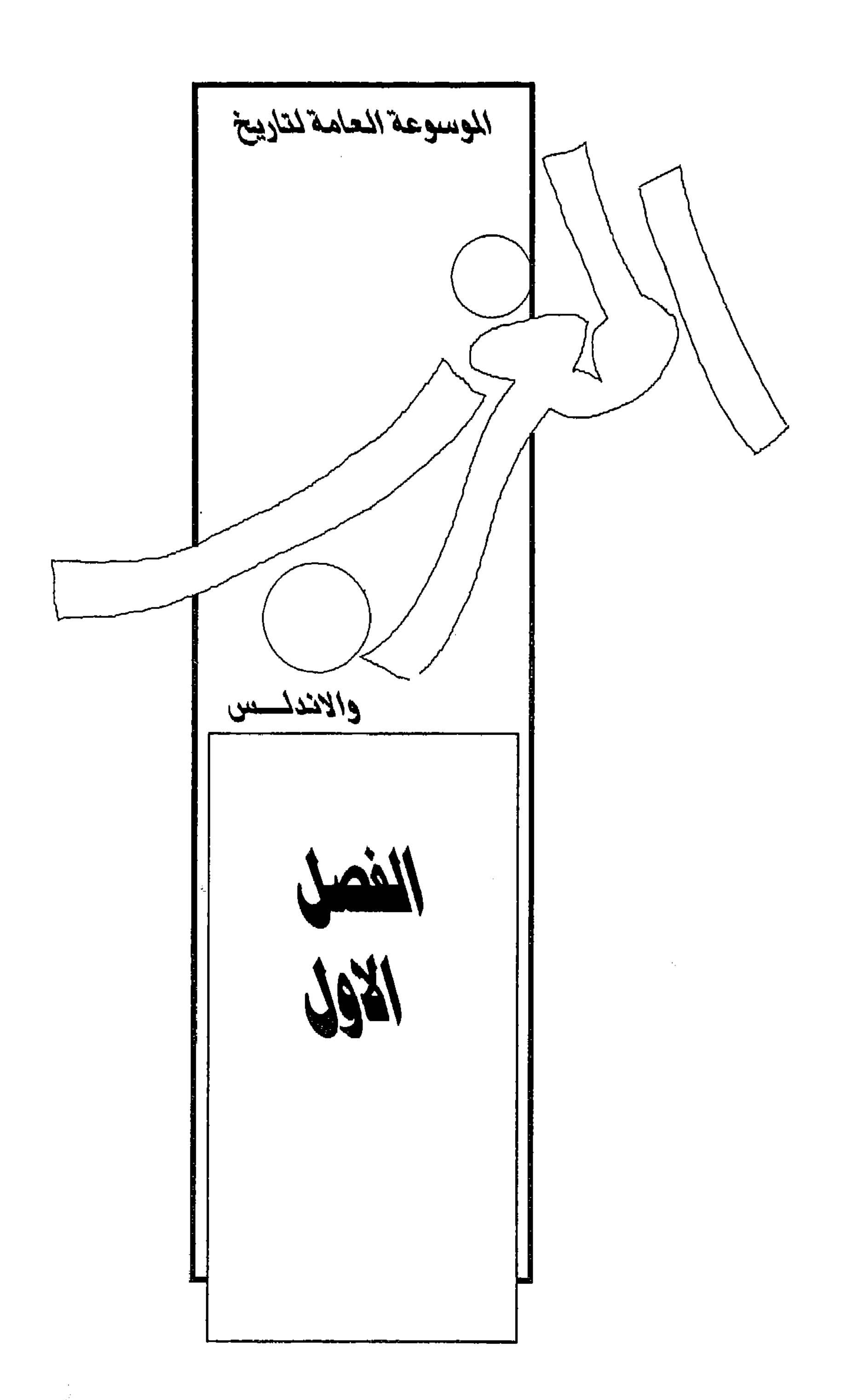
المغرب و الأندلس

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر
الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م



الباب الاول




الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الاول

المقدمة الأولى
المغرب والحضارة

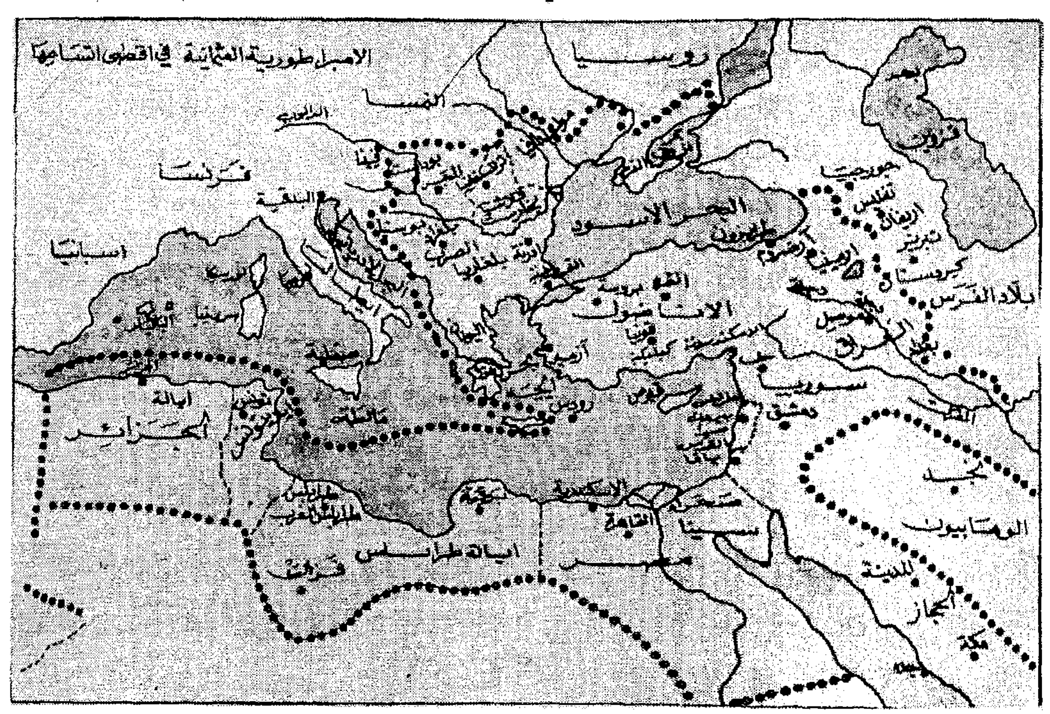
حمل المغرب مشاعل الحضارة بيديه الاثنتين طيلة القرون الوسطىٰ، بعد ان امتزجت الحضارة العربية بالحضارة المغربية الكنعانية ـ في القرن السابع الميلادي، وعندما فتح العرب المسلمون المغرب الكبير، أو شمال أفريقية بقيادة البطل العربي عقبة بن نافع، انتشرت الدعوة الإسلامية في ربوعه الفساح وقد لقيت معارضة من بعض القبائل الكنعانية «البربر» في أول الأمر في حين كانت قد استقبلت من بعض السكان والقبائل الأُخرىٰ بالترحيب والاقبال على اعتناق الديانة الإسلامية، ولم يمضِ قرن واحد من الزمن حتى كان الإسلام قد انتشر انتشاراً واسعاً في بلدان المغرب الكبير من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي فصهر السكان ووحدهم في بوتقة الايمان وأصبحوا جميعهم بنعمة الله اخواناً بعد ان طهرهم الإسلام من الشرك وانتشلهم من براثن الوثنية.

وكان إدريس الأول المنحدر من سبط الرسول محمد العربي (ص)،

أول من وضع الأسس والمداميك لاستقلال المغرب. بانفصاله عن الخلافة العباسية، ومنذ ذلك التاريخ حافظ المغرب على استقلاله. ولم تتمكن أية دولة أجنبية من احتلال أراضيه حتى عام ١٩١٢ من هذا القرن ـ أي القرن العشرين.

العثمانيون يحاولون ضم المغرب إلى امبراطوريتهم

لقد حاول العثمانيون ضم المغرب إلى أجزاء العالم العربي الأُخري في الشرق الأوسط التي كانوا يحتلونها، لتوسيع امبراطوريتهم ولكنهم أخفقوا وظل المغرب بلداً مستقلاً، في حين خضعت الجزائر وتونس للدولة العثمانية، وكذلك الدول العربية في الشرق الأوسط زهاء ٤٠٠ عام.



وبعد سقوط الدولة الأموية الثانية في الأندلس. استجاب الخليفة المغربي يوسف بن تاشفين. أعظم ملوك أسرة المرابطين الصنهاجيَّة، إلى

الاستغاثة التي وجهها إليه علماء الأندلس وأعيان البلاد لانقاذهم من حكم أمراء الطوائف في بلادهم فلبىٰ الدعوة في الحال وقضىٰ على أولئك الأمراء وضم الأندلس إلى دولته المغربية، وأصبحت مدينة مراكش العاصمة الكبرىٰ التي تتطلع إليها العيون وتهفو إليها الأفئدة. كما اتخذ أشبيلية عاصمة ثانية له في الأندلس.

وكان عهد المرابطين الذي جاء بأعقاب حكم الأدارسة، من العهود الزاهرة في تاريخ المغرب، ولكنه. كان قصير الأمد «١٠٦١ ـ ١١٤٧» عندما دخل زعيم الموحدين يومذاك عبد المؤمن بن علي مدينة مراكش وأنهىٰ حكمهم فيها.

دان المغرب للموحدين الذين استمر حكمهم حتى أواسط القرن الثالث عشر وكان لملوكهم الفضل الأعظم في توحيد دولة المغرب الكبرىٰ بعد ان ضموا إليها الجزائر وتونس وطرابلس بما في ذلك الأندلس وهكذا فقد توحد لأول مرة في تاريخ الإسلام الساحل الأفريقي قاطبة من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر مع الأندلس تحت صولجان واحد أما دولة المرابطين فما كانت تشمل خارج مراكش إلا أسبانيا وجزءاً من الجزائر[١].

ازدهار الحضارة المغربية الأندلسية في عهد الموحدين والمرينيين

في عهد الموحدين تألقت الحضارة المغربية ـ الأندلسية حتى بلغت أعلىٰ ذرواتها، ثم استمر ازدهارها في عهد خلفائهم بني مرين الذين شكلوا الأسرة الثالثة التي حكمت المغرب الكبير والأندلس وفي هذا العصر ازدهرت الفنون التي نشاهد آثارها في مدارس مدينة فاس وهي حاضرة المغرب المزدهرة التي بناها الأدارسة، كما تألق فن العمارة بشكل ملحوظ

---

(١) راجع في ذلك تاريخ العرب المطوّل لفليب حتي ص٦٥٠.

وتوطد الأمن بالبر والبحر، بجيش المغرب الكبير وأسطوله الذي بلغ عدد سفنه الحربية زهاء ٥٠٠ قطعة ولكن هذا الأسطول ما لبث ان حطمته عاصفة هوجاء قضت عليه. وكان ذلك إيذاناً بزوال عهد القوة والمنعة. فعاد الإسبان واحتلوا الأندلس ما عدا مقاطعة غرناطة، وحل بنو وطاس محل ملوك بني مرين ولكنهم عجزوا عن وقف المد البرتغالي فراحت السفن البرتغالية تجتاح شواطىء المغرب المطلة على البحر الأبيض المتوسط، والشواطىء المطلة على المحيط الأطلسي، فتمكنوا مع الزمن من الاستقرار في عدد من المدن الساحليَّة.

وحاولت الأسرة السعدية التي جاءت بأعقاب بني وطاس الحفاظ بقدر الإمكان على عظمة الدولة ونجحت لحدٍ ما في إعادة المغرب إلى مكانته السابقة، إبتداء من القرن السادس عشر حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي.

وبعد عام ١٦٦٠ تأسس حكم الأسرة العلوية وهي التي ما زال يرتقي ملوكها العرش المغربي حتى اليوم.

وليس من شك في ان الحضارة المغربية كانت لها آثارها البيِّنة على الحياة المغربية والأندلسية، وانعكاسات تألقها وازدهارها على القارة الأوروبية كلها. التي كانت معظم أقطارها غارقة في ظلمات الجهل والاقطاعية والاستبداد الذي عمَّ أرجاءها طيلة القرون الوسطىٰ - في حين كان كل من المغرب والأندلس ينعمان بحضارتهما الثقافية الوارفة الظلال وفي هذا الوقت كان النابهون من الأوروبيِّين يقصدون جامعة القروييِّن في فاس ومدارس العلم والثقافة في قرطبة واشبيلية في الأندلس، وكانت أول جامعة كبرىٰ قد انشئت في فاس هي جامعة القُرويين، واعتبرت أول جامعة تأسست لتلقي العلم في العالم حوالي سنة ٢٤٥ هجرية الموافق لسنة ٨٥٩

ميلادية. في حين اعتبرت جامعة بولونيا Bologne في إيطاليا التي تأسست عام ١١١٩ الثانية وجامعة آكسفورد التي تأسست عام ١٢٢٩ الثالثة. وجامعة السوربون التي تأسست عام ١٢٥٧ الرابعة.

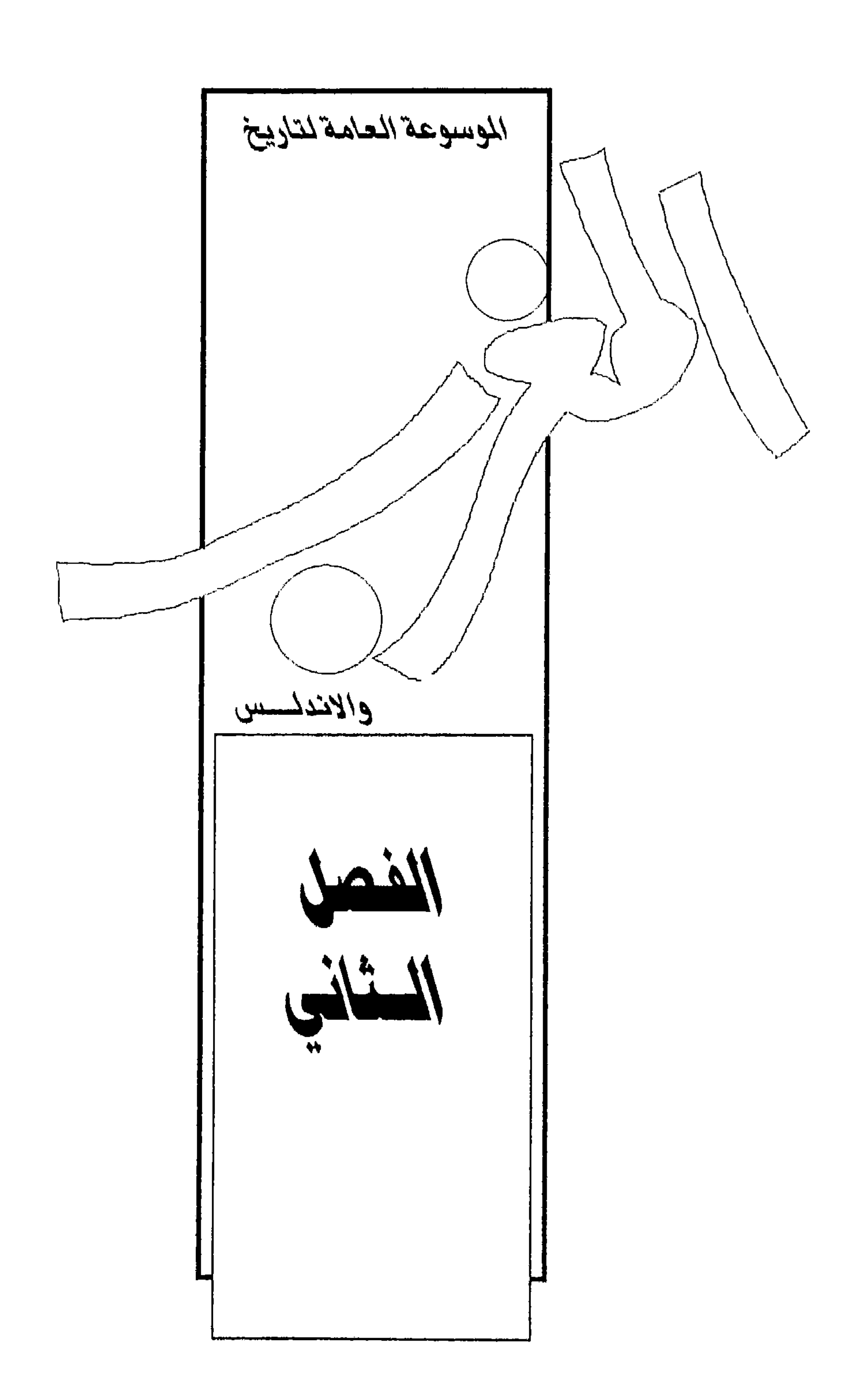
منارة فاس المتألقة

هذا مع العلم بأن صروحاً أُخرىٰ للعلم كانت قد تأسست في مكة وجامع الزيتونة في تونس، والأزهر في مصر، والمسجد الجامع في البصرة، ومدارس الأمويين في دمشق، والعباسيين في بغداد، ولكن قصبة السبق في الأقدميه لم تفز بها سوىٰ جامعة القرويين في فاس. حيث كان الموحدون وبنو مرين بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر يفجرون ينابيع الثقافة في فاس، ويحتضنون نخبة من العلماء المشاهير من أمثال ابن رشد وابن طفيل الفيلسوف. والأدريسي الجغرافي، وابن خلدون العالم الاجتماعي والمؤرخ، وابن بطوطة الرحالة المشهور وغيرهم.

ولو قيض للمغرب ان يحتفظ بحضارته التي جعلت منه وطناً للاشعاع في القرون الوسطىٰ ـ إلى يومنا هذا ـ بما كان سيرافق تلك الحضارة من تفجير لينابيع الخلق والابتكار والابداع والتطوير للعلوم والفنون، لتغيرت مسيرة التاريخ ولأصبح المغاربة والعرب معهم في الشرق الأدنىٰ في المكانة العظمىٰ التي يتمتع بها الغربيون في هذا العصر.

ولكن أدوات بناء الحضارة المغربية، التي حملها سلاطينه وملوكه العظام في أبان نهضته ما لبثت ان انتقلت إلى أيدي الهدامين من شباب الأُسر المالكة التي حكمت المغرب ـ ممن ورثوا العرش فاستحالت في أيديهم إلى معاول لهدم الحضارة المغربية، فتناحر الاخوة على احتلال السلطة وتقاتلوا واسالوا الدماء في جميع أنحاء المغرب، ولهذا السبب كان عمر الحكم

بالنسبة للأسر التي حكمت المغرب قصيراً، ومع ذلك فقد ظلت الحضارة المغربية قائمة وثابتة بالرغم من تقلب الحظوظ وتعدد الانقلابات. إلى ان بدأت الدسائس الأجنبية تتدخل في حياة المغرب وسياسته، وبدأت مع ذلك التدخل عهود الانهيار التي تأخر المغرب بسببها قروناً طويلة.



الفصل الثاني

الدولة العلوية في المغرب

بدأ الحكم العلوي على انقاض حكم السعديين الذين عجزوا خلال السنوات الأخيرة من حكمهم عن الاحتفاظ بالاستقلال الشامل للوطن المغربي، بعد ان دب الفساد القبلي في جسم الدولة، وكثر الطامعون بالحكم والانفصال، وتمادوا في بذر بذور الفتن والتفرقة، مما أدىٰ إلى ظهور الأسرة العلوية الجديدة التي عز على أئمتها ان يروا بأعينهم انهيار الدولة، وهم احفاد الحسن الداخل حفيد سبط الرسول. وأما الأرض الطيبة التي انطلقت منها ثورتهم على الفساد فكانت مدينة سجلماسة العريقة.

وكان الحسن الداخل قد عاش في سجلماسة عيشة التقى والصلاح فتنافست القبائل والسكان على حبه واحترامه، ولما حاول أبو حسون السملالي المنشق على الشرعية والعرش في أواخر حكم السعديين، ان يفرض عقوقه وانشقاقه على سجلماسة وبلاد السوس. تصدىٰ له الشريف بن علي من أحفاد الحسن القائم «الداخل» فَزَجَّه أبو حسون في السجن، وعندئذ ثار عليه المولىٰ محمد نجل الشريف بن علي، وبايعته القبائل والسكان ليخلص المغرب من المنشقين والفاسدين، فكان لذلك

أول إمام من الأسرة العلوية انيطت به أعباء الحكم وإعادة الأمن والطمأنية إلى البلاد عام ١٦٥٩ .

وجاء بعده المولىٰ رشيد ولكنه قتل في العام ١٦٧١ فتولى زمام الحكم المولىٰ إسماعيل أخو المولىٰ رشيد من العام ١٦٧٢ إلى ١٧٢٧، وقد دام عهده أكثر من نصف قرن، وكان معاصراً للويس الرابع عشر، ومع انه تمكن من ان يعيد إلى المغرب قوته ومناعته وازدهاره لدرجة ان الدول الغربية كانت تخطب وده، وتحسب له ألف حساب إلا انه كان مزواجاً فقد أنجب عدداً كبيراً من الأبناء الذين فرقت بينهم المنافسات والأطماع، فأحالوا البلاد إلى ميدانٍ لسفك دماء أبناء الشعب المُتَشَيِّعين لهذا أو ذاك من أبنائه.

وكان للمولىٰ إسماعيل أخطاء كثيرة، ولكن أعظمها هو انه جنّد الافارقة السود وجعلهم يسيطرون على الجيش، كما فعل المعتصم العباسي من قبل عندما حل ديوان الجند العربي في بغداد، وسرح القادة العرب وأحل مكانهم المماليك من الأتراك الجلب. وكما عمل مماليك المعتصم على تدمير الخلافة العباسية في بغداد والشرق الأوسط، عمل الأجناد السود على تمزيق عرىٰ الوحدة المغربية فصاروا يؤيدون ويرفعون على العرش المغربي كل أمير من أبناء إسماعيل قادر على رفع رواتبهم واتحافهم بالهدايا والذهب الرنان.

وبينما كان الاشعاع الحضاري يخبو في المغرب، كان هذا الاشعاع يطلع في أوروبا التي شرعت تستيقظ في أول عهد النهضة ابتداء من القرن الخامس عشر، ثم تلا ذلك عصر اكتشاف البخار وقطار سكة الحديد والباخرة التجارية والحربية التي تسير بالبخار. في حين ظلت مراكب المغرب تسير بالأشرعة والمجاديف. وكان ذلك مدعاة للتفوق الأوروبي

على المغرب الذي أخذت شمس حضارته تميل نحو الغروب.

وراحت الأوضاع في المغرب تنتقل من سيءٍ إلى أسوأ خلال حكم أبناء المولى إسماعيل وأحفاده، إلى ان ظهرت فرنسا على مسرح القوة في أوروبا.

ومن المعلوم ان علاقات فرنسا بالمغرب تعود إلى القرن السادس عشر، ففي سنة ١٥٣٣ أرسل فرانسوا الأول وفداً إلى السلطان أحمد بن محمد.

وفي سنة ١٥٥٩ عقد انطوان دي بوربون ملك نافار ووالد هنري الرابع معاهدة مع السلطان السعدي مولاي عبد الله، ثم تلتها معاهدة جديدة سنة ١٦٣٥ بين لويس الثالث عشر والسلطان الوليد.

وقبل مرور نصف قرن على ذلك عقد لويس الرابع عشر معاهدة أُخرىٰ مع السلطان إسماعيل، وفي سنة ١٨٠٧ استقبل نابليون بونابرت رسولاً خاصاً من السلطان سليمان بن محمد.

ومن هنا يتضح انه كان ثمة تبادل سياسي وتجاري بين المغرب وفرنسا، ولكن بريطانيا ما لبثت ان زاحمت فرنسا على مكانتها في المغرب خلال القرن التاسع عشر، لأن معظم تجارة المغرب الخارجية كانت مع بريطانيا، وكان ممثلو بريطانيا في عهد الملكة فكتوريا بين الدبلوماسيين الأجانب الذين استشارهم السلاطين المتعاقبون.

الاطماع الفرنسية في المغرب

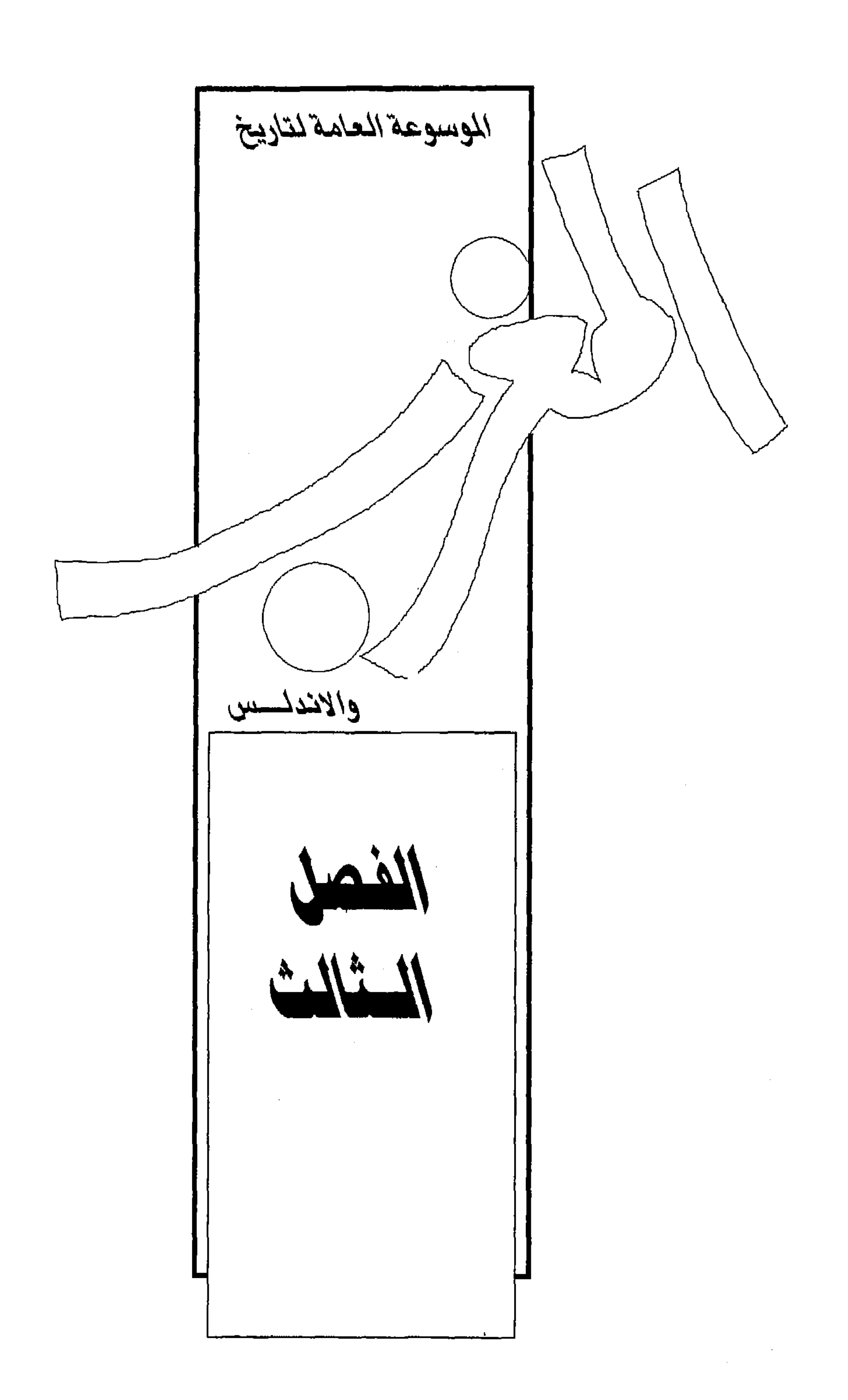
ولكن فرنسا التي كانت تريد ان تؤسس لنفسها امبراطورية في شمال افريقية لتنافس بها الامبراطورية البريطانية سرعان ما احتلت الجزائر سنة

١٨٣٠ وكانت ما تزال تابعة للامبراطورية العثمانية المحتضرة، وبقفزةٍ أُخرىٰ احتلت تونس سنة ١٨٨١ .

ولكن عين الفرنسيين كانت مـا تزال مُصَّوبة نحو المغرب، ففي سنة ١٨٦٠ نشر في فرنسا مجلدان بعنوان «وصف المغرب وتاريخه» من تأليف ليون غودار الذي كان اسقفاً في الجزائر، فوضع هذا الأسقف تصميماً لاحتلال المغرب في المستقبل، وكان مما قاله: يجب ان نبدأ الحرب من جهات مختلفة بحيث يستحيل على سلطان المغرب ان يعرف كيف يركز دفاعه، وعندها يجب ان نبحث عن مدعٍ للعرش وننصبه سلطاناً على البلاد تحت طاعتنا وإشرافنا.

وبينما كان السلطان الحسن الأول، يعمل جاهداً على توطيد وحدة البلاد وحمايتها من الضغوط الاستعمارية التي فرضتها أوروبا على المغرب منذ عام ١٨٧٣، توفى عام ١٨٩٤ فأنتقل العرش إلى ولده عبد العزيز وكان حدثاً لا يزيد عمره على ١٣ عاماً وهو السن الذي يحاط به السلطان عادة بالأوصياء وأوامر النهي وكلمات الإغراء المعسولة.

وما كاد عام ١٩٠٠ يذر قرنه حتى كانت فرنسا واسبانيا تستعدان لغزو المغرب وذلك في عهد السلطان عبد الحفيظ .


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الـثالث



صاحب الجلالة محمد الخامس

المقدمة الثانية

محمد الخامس الملك القائد

ان تاريخ الملك المغفور له محمد الخامس حافل بجلائل الأعمال وسمو العطاء وعظم التضحية. وكلها مآثر عظيمة لا يؤديها ولا يبذلها سوى المخلصين لأوطانهم وقضايا شعوبهم وأولئك هم نخبة النخبة.

وقد قدّم هذا الملك العظيم لوطنه المغرب أعظم هبة يمكن ان يقدمها ملك لوطنه وشعبه ألا وهي: الحرية.. والاستقلال... والدستور.. فتوج بها مآثره أبد الدهر.

لذلك.. فان تاريخه يستحق أكثر من كتاب وأكثر من مجلد إذا ما أردنا ان نُعدِّد مزاياه أو أن نتحدث عن الأعمال العظيمة التي قام بها خلال سنوات حكمه التي زادت على ثلث قرن.

وقد تميز بالشجاعة الخارقة والبطولة الفذة، كما برز بروزاً قلَّ مثيله بين الشخصيات العالمية المعروفة، بكفاحها الطويل ونضالها الدائم ضد المستعمرين. والفرق بينه وبين الشخصيات العالمية التي تألقت تحت أضواء

الدعاية والاعلان في كفاحها ضد النازية الالمانية، هو أنه كان يكافح بعض تلك الدول الاستعمارية التي انتصرت على القوة النازية بقوة السلاح، وليس بقوة المبادىء المستقيمة.

لقد خاض الأوروبيون المستعمرون حربين عالميتين من أجل تثبيت احتلالهم لأكثر من ثلاث قارات، وحاربوا بكل إمكاناتهم لابقاء المانيا بعيدة عن مناطق نفوذهم، في حين كانت المانيا الدولة الأقوىٰ ولكن نصيبها في التركة الاستعمارية كان قليلاً جداً.

ومن هنا ندرك ان الحربين العالميتين كانتا ذات أهداف استعمارية بحتة، بينما كان ملك المغرب يكافح الحلفاء المستعمرين لتحرير وطنه المغرب من الاستعمار والعبودية.

وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولىٰ تمكنت كل من فرنسا وآسبانيا بواسطة المعاهدات السرية، والسياسة القائمة على الخداع والكذب وتزوير الحقائق من بسط نفوذهما وتثبيت أقدامها في المغرب، بعد ان اعتلىٰ عرشه بالتتابع السلطان عبد العزيز ومن بعده أخوه السلطان عبد الحفيظ ثم أخوهما الثالث السلطان يوسف والد سيدي محمد بن يوسف.

وفي خلال عهد هؤلاء السلاطين الثلاثة لم يتوقف الشعب المغربي عن كفاحه ونضاله وثورته المسلحة التي قادها أبطال ميامين من أمثال الشيخ ماء العينين بطل الصحراء المغربية وأبناؤه وقادة الأطلس والأمير عبد الكريم الخطابي بطل معارك الريف في شمال المغرب.

وبعد وفاة السلطان يوسف اعتلىٰ محمد الخامس عرش آبائه وجدوده العلويين وليس له من العمر سوىٰ ستة عشر ربيعاً.

وبجلوسه على عرش المغرب أتاح الله لذلك البلد المجاهد ملكاً

شاءت إرادته القاطعة ان يكون تحرير المغرب على يديه. ففي عهد السلاطين السابقين كان الكفاح المسلح ينطلق من القاعدة العريضة ضد المستعمرين، ولكن الكفاح انطلق من القمة في عهد الملك محمد الخامس.

وسرعان ما وجدت إدارة الحماية الفرنسية نفسها أمام ملك يتميَّز بعقلية متحررة، وطاقات متعددة، تتجدد باستمرار وعزيمة أقوىٰ من الفولاذ وقناة لا تلين، وصبر على الشدائد. فجن جنون المستعمرين.

ووجد الشعب المغربي بمليكه المناضل الأمل المفقود وكأنه دعوة مخلصة استجاب لها الله... ورجلاً لا كالرجال، وملكاً لا كالملوك، وضع نصب عينيه فكرة تحرير المغرب، وأخذ استقلاله عنوة أخذ اليد، مهما بلغت الخسائر والتضحيات.

ومع ذلك فقد كان هذا الملك يحاول دائماً، ان يتلقىٰ وحده ضربة الاستعمار المباشرة، بشهامة مثالية وأباء مغربي لا يتزعزع، حتى لا يعرض رجال الأحزاب والشعب المغربي قاطبة لهجمة الاستعمار الشرسة ووسائل القمع والبطش والأرهاب.

وسرعان ما اكتشف المستعمرون سر الملك النبيل، فراحوا يوجهون ضربات متلاحقة للشعب المغربي على شكل مذابح الدار البيضاء المفتعلة لكي يرغموا الملك على الرضوخ لمطالبهم وتوقيع قراراتهم.

وكان الشعب المغربي المكافح يقدر تضحيات الملك، لذلك سرعان ما كان يهبُّ منتفضاً وغاضباً، كلما شعر ان عرش البلاد أصبح مهدداً، وعندها يثور المغرب بمدنه وقراه وجباله وسهوله وصحاريه للدفاع عن عرين الأسد. فتنقلب ساحات البلاد وشوارعها إلى معارك دامية لا تنفع في تهدئتها كل وسائل الدعاية والاعلان ولا أعمال القمع والبطش

ما كان أعظمه شعباً عندما يثور لكرامته، وما كان أشجعه عندما يملأ الساحات والميادين بالأبطال الميامين، وما كان أكرمه عندما يجود بالنفس والنفيس دفاعاً عن الحرية.

وقد شهد الأعداء أنفسهم للملك بالبطولة حتى وصفه بعض الكتاب الفرنسيين بانه (مهندس الاستقلال) ووصفه الكتاب العرب بأنه (أبو الاستقلال) وهو في الحقيقة صانعه الذي صهر بطولاته في نيران الثورات الشعبية المتتابعة ثم سكبها في بوتقة الحرية، ومنها خرجت قلادة الاستقلال التي تطوق الآن جيد المغرب الحر المستقل.

وقد بدأ جلالته عملاقاً كعمالقة الأساطير عندما أسرع إليه المفاوضون في منفاه ـ مدغشقر، يتوسلون إليه، ان يعود إلى وطنه ملكاً عزيزاً منتصراً. . ورجوه ان يترك لفرنسا ولو قليلاً من ماء الوجه لقد أصبح محمد الخامس ضمير الشعب المغربي ويقينه.

وهو الذي زحف إليه عدوه الجلاوي عميل الفرنسيين على ركبتيه راجياً ومتوسلاً، ثم ركع ثلاث مرات مقبلاً الأرض بين يديه لكي يعفو عنه حتى خصمه ابن عرفة الذي نصبه المستعمرون سلطاناً دعيّاً، اعترف بعد تنازله عن العرش «بأن محمد الخامس هو ملك البلاد الشرعي الوحيد». ويومها كتب فرانسوا مورياك يقول: «لم يكن سيدي محمد بن يوسف [الملك] قط أقوىٰ منه اليوم، ونحن الآن أكثر اعتماداً عليه من اعتماده علينا».

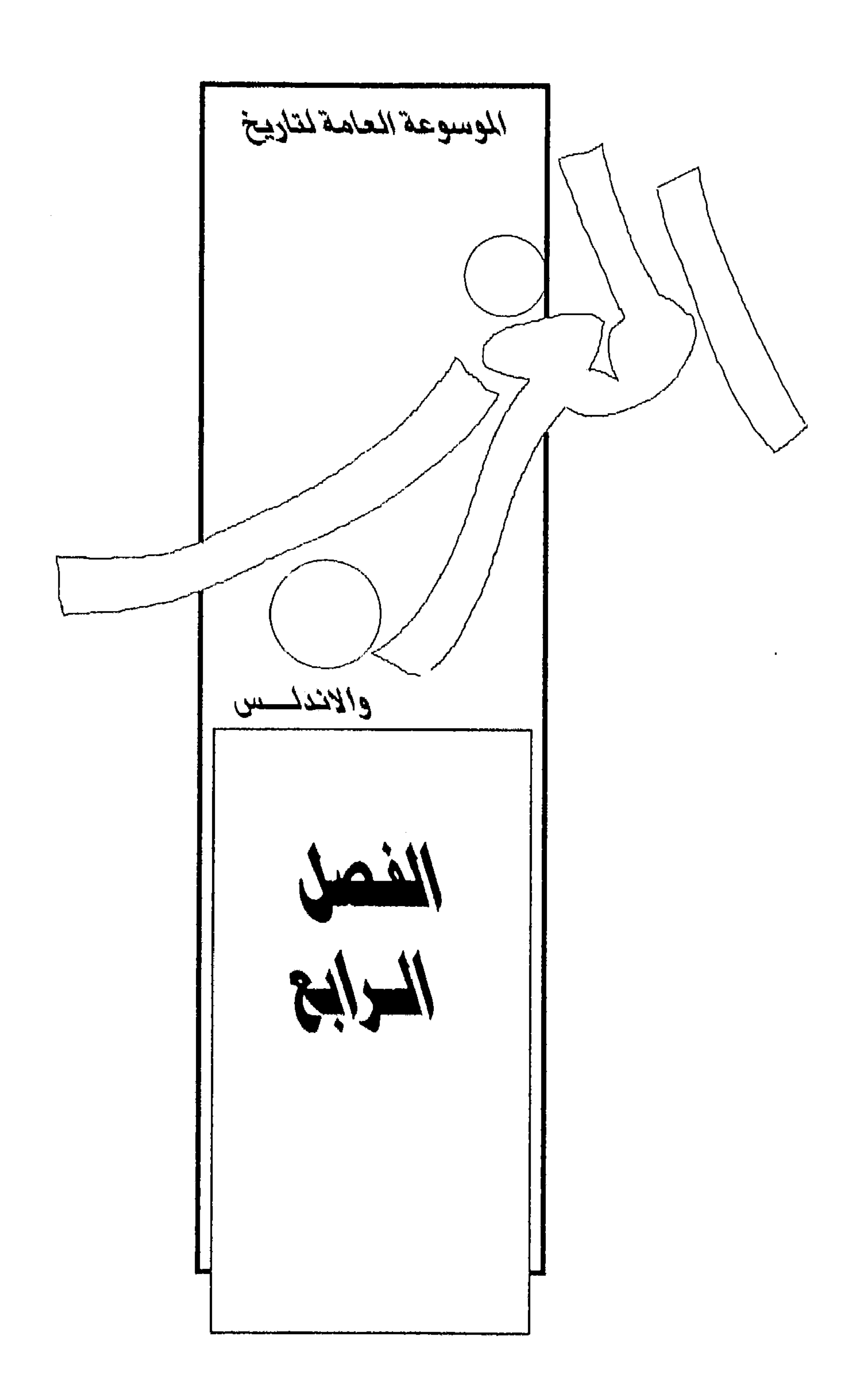
خطوة واحدة إلى الوراء وخطوتان اثنتان إلى الإمام

وكان جلالته على شدة بأسه وصلابته في المواقف الوطنية يضطر أحياناً إلى استعمال أسلوب المرونة، حتى يحمي الشعب من انتقام أبالسة

الاستعمار، وكثيراً ما كان يستنجد ببداهته عندما كان المقيم الفرنسي العام يخيره بين أمرين: أما التوقيع على بيان توجه فيه تهمة الالحاد إلى رجال حزب الاستقلال أو التنازل عن العرش، وأما ان يوقع على القرارات التي كان يرفض التوقيع عليها أو يخلع عن العرش وأمثال ذلك من الوقاحة والغطرسة الاستعمارية، وعندئذ، كان جلالته يلجأ إلى كلمته المشهورة: خطوة واحدة إلى الوراء لنكسب خطوتين إلى الأمام. .

وقد نجحت كلمته المأثورة هذه ثلاث مرات ففي كل مرة كان جلالته يتراجع خطوة إلى الوراء. . ثم لا يلبث ان يكسب خطوتين إلى الأمام. .

ولما استعمل نفس المرونة في المرة الأخيرة كلفته الخطوة التي تراجع فيها إلى الوراء. . رحلة النفي إلى مدغشقر. . ولكنه سرعان ما فاز بعدها بخطوتين إلى الأمام، ففي الخطوة الأولىٰ عاد من النفي إلى بلاده عزيزاً مكرماً ومنتصراً أيضاً. . وفي الخطوة الثانية عاد من باريس وهو يحمل وثيقة الاستقلال.



الفصل الرابع



جلالة عاهل المغرب الملك الحسن الثاني

الملك الحسن الثاني

وقد عانىٰ الملك الحسن الثاني في حياة والده نفس المعاناة وكان آخرها النفي مع والده وبعد وفاة المغفور له الملك محمد الخامس في السادس والعشرين من شهر شباط/ فبراير ١٩٦١ أخذ الملك الحسن الثاني على عاتقه إتمام رسالة والده، فحرر البلاد من الجيوش الأجنبية، ثم عكف على تنظيم البيت المغربي فأصدر ثلاثة دساتير كان آخرها دستور عام ١٩٧٢.

لذلك لقب بأبي الدستور، ثم راح يكرس جهوده لتحرير الصحراء المغربية، وشرع في التفاوض مع الحكومة الآسبانية التي تحتلها، ولما شعر بأن الآسبانيين يماطلون بالجلاء بعد اعترافهم باستقلال المغرب، ابتكر فكرته الرائعة: المسيرة الخضراء، وهي التي أعقبتها فكرة الجلاء، وبذلك تحررت الصحراء المغربية.

وكانت فرحة العمر.. فرحة الشعب المغربي عندما وجد نفسه قد تحرر من قيود المستعمرين، وبلاده قد تحررت من وجود جيوشهم البغيضة.

والملك الحسن الثاني صاحب مآثر كثيرة من أهمها انه من أبرز رواد التضامن العربي وقد نادىٰ به وحث عليه في كل مؤتمرات القمة ابتداء من مؤتمر القمة في الربا ط. سنة ١٩٧٤.

ومنها إبراز الشخصية الفلسطينية والدعوة إلى إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية وحمايتها من السيطرة والنفوذ، وحماية القضية الفلسطينية من المزايدات والمتاجرة.

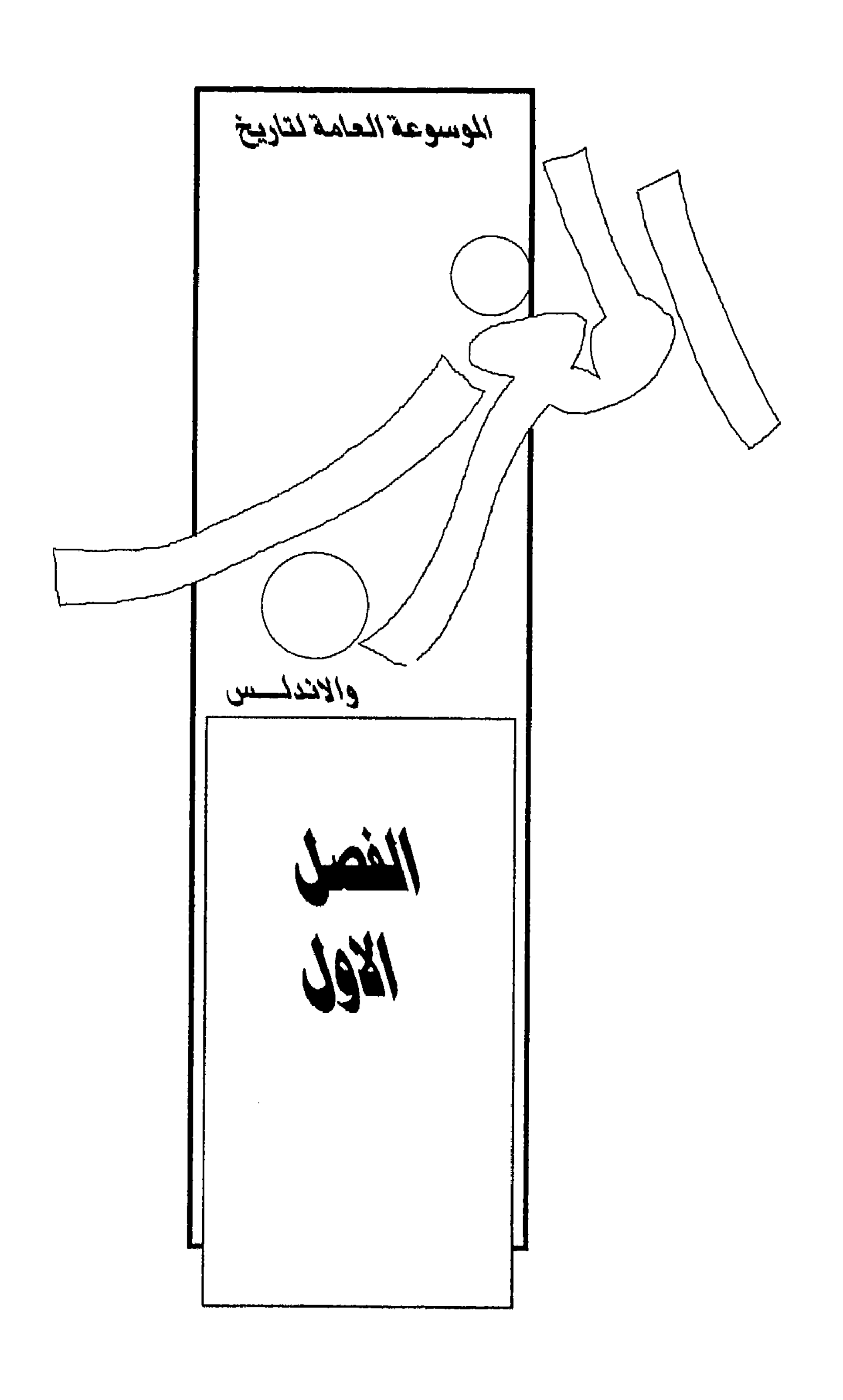
وهو أول من دعا إلى إنشاء صندوق مالي لدعم الجيوش العربية. وفي حرب رمضان سنة ١٩٧٣ ـ أرسل القوات المغربية إلى الجبهتين المصرية والسورية، وتعرضت حياته للخطر مرتين: الأولىٰ في حادث الهجوم المسلح على قصر الصخيرات، والثانية في حادث الطائرة الذي دُبر له ولكن الجيش المغربي ولله الحمد ظل سليماً معافىٰ مجمعاً على الولاء للملك وعلى الدفاع عن التراب المغربي الغالي ضد كل طامع وعميل.

البــاب الــثاني



فارس الصحراء المغربية




الموسوعة العامة لتاريخ
المغرب
والاندلـــس
الفصل
الاول

المساحة والسكان

عندما غزت فرنسا الجزائر كانت حدود المغرب ممتدة إلى الجزائر وأفريقيا الوسطىٰ والسنغال والسوادن والمحيط الأطلسي، والبحر الأبيض المتوسط، وكانت الصحراء المغربية ضمن هذه الحدود فما من وراء حدودها الجنوبية سوىٰ السنغال وأفريقيا الغربية، وقد قدم الرئيس السنغالي ليوبولد سيدار سنغور أثناء إحدىٰ زياراته للملك الحسن الثاني في الرباط ايضاحات قيمة حول هذه النقطة التاريخية لا يمكن الطعن بصحتها. ولكن فرنسا الاستعمارية، بعد ان غزت السنغال، انشأت في وقت متأخر ما يدعىٰ اليوم بجمهورية موريتانيا لتكون حاجزاً بين المغرب وسائر أراضيه القديمة في غربي أفريقيا.

وكما قال البرفسور جرمين أياشي الفرنسي الجنسية لمجلة التايم الاميريكية الصادرة في ٣٠ يونية «حزيران» سنة ١٩٨٠ المجلد ١١٥، العدد ٢٦ «ان فرنسا كانت تعلم جيداً بانها ستجلو عاجلاً أم آجلاً عن المغرب، لذلك بادرت إلى انتزاع بعض المناطق منه وضمتها إلى الجزائر عام ١٩٠٨. وهكذا يكون قد انتزع من حدود المغرب الجنوبية والشرقية مساحات

واسعة. ومنها الصحراء المغربية التي كانت اسبانيا تنوي ابتلاعها وهي: طرفاية والساقية الحمراء ووادي الذهب. بالإضافة إلى مدينتي سبتة ومليلة المطلتين على البحر المتوسط في الشمال».

ان مساحة المغرب تلاعبت بها أيدي المقيمين العامين في عهد الحماية التي كانت مفروضة على المغرب، وبالتالي تلاعبت بها أقلام المؤرخين والمؤلفين الفرنسيين.

لعل أصدق الأرقام وأصحها تلك التي نشرتها مجلة التايم الامريكية في عددها المذكور أعلاه نقلاً عن موسوعة لاروس الفرنسية العالمية.

● جاء في الطبعة الثانية من موسوعة لاروس عام ١٨٨٨ ان مساحة المغرب هي ٨١٢,٣٠٠ كيلو متر مربع.

● وفي العام ١٩٠٠، سجلت موسوعة لاروس المصورة مساحة المغرب بـ ٨٠٠ ألف كيلو متر مربع، بنقص ١٢,٣٠٠ كيلو متر مربع.

● وفي العام ١٩٥٦ تقلصت مساحة المغرب إلى ٤٣٠٨١٠ كيلو مترات.

● وفي العام ١٩٥٨، بعد ان استرد المغرب منطقة طرفاية الصحراوية زادت مساحته إلى ٤٥٦٧٣٠ كيلو متراً مربعاً.

● وفي العام ١٩٦٩ زادت مساحة المغرب إلى ٤٥٨,٧٣٠ كيلو متراً مربعاً بعد استرداد منطقة افني.

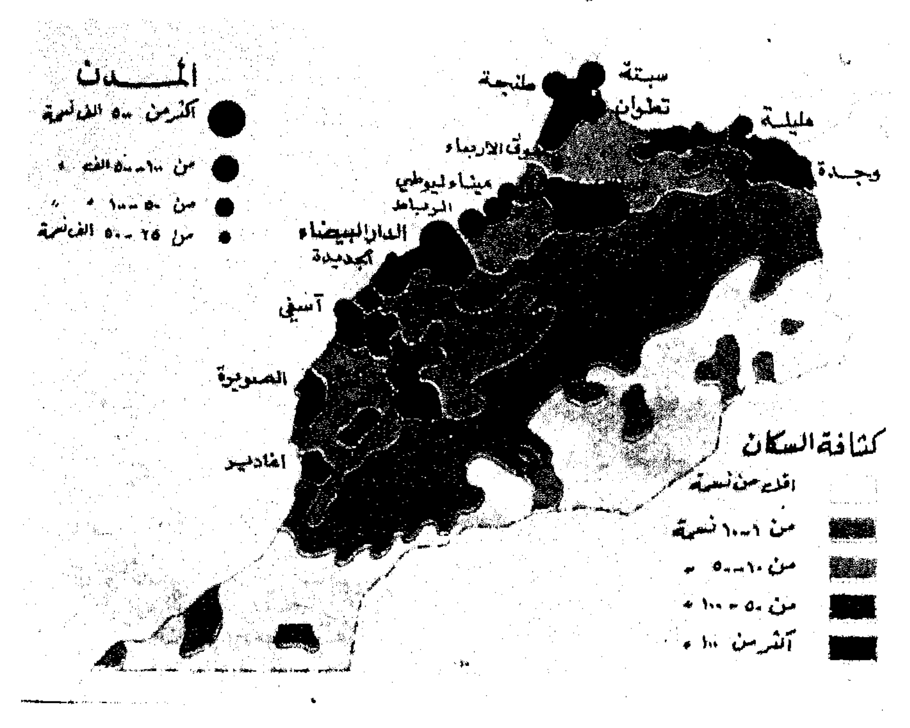
● وفي العام ١٩٧٦، ازدادت مساحة المغرب بعد استرداد الساقية الحمراء إلى «٦٠٨,٧٣٠ كيلو متراً مربعاً.

● وفي عام ١٩٧٩ زادت مساحة المغرب إلى ٧٠٣,٠٣٠ كيلو متراً

مربعاً بعد استرداد منطقة وادي الذهب الصحراوية .

● وبعد ان نجري عملية طرح بسيطة تظل مساحة المغرب كما كانت عام ١٨٨٨ ، وهي ٨١٢,٣٠٠ كيلو متر مربع، ناقصة ١٠٩,٢٧٠ كيلو متراً مربعاً وتلك هي المساحات المقتطعة من المغرب والتي ما زالت منفصلة عنه حتى الآن .

وقد نشرنا الأسباب في أماكنها من هذا الكتاب .



في سبيل المغرب الكبير

يقول البروفسور جرمين إياشي المشار إليه: «ان السلطات المغربية كانت تشعر شعوراً وطنياً بأن ضم وادي درعة إلى الجزائر يعني ان أراضيها المنتزعة ظلت ملكاً لعائلة «المغرب الكبير» بحدوده التاريخية التي تتألف من

المغرب والجزائر وتونس وليبيا، وكانت السلطات المغربية تنظر إلى المستقبل بعين توقعاتها، عندما تتوحد هذه الدول العربية الإسلامية وتصبح دولة واحدة أي دولةِ «المغرب الكبير» وذلك خوفاً من وقوعها بأيدي الاسبان الذين كانوا يحتلون سبتة ومليلة في الشمال.

وعندما استردَّ المغرب أقليمي طرفاية وإيفني الصحراويين، ولم يكن قد استرد بعد إقليمي وادي الذهب والساقيةِ الحمراء الذين كانت اسبانيا تزمع ان تنشىء فيهما دولة البوليساريو المزعومة.

وأضاف البروفسور إياشي قائلاً: ان مساحة المغرب وأراضيه معروفة ولا يمكن إخفاؤها بأحدكميّ القفطان.

واستطرد يقول: «قبل عام ١٩١٢، كان التاجر المغربي المتجول يجوس خلال الصحراء متنقلاً من بلد إلى آخر، ومن قبيلة إلى أُخرىٰ، وبعد ان يتجاوز أقليم طرفاية نحو الجنوب الصحراوي المغربي، لم يكن ثمة حدود تعيقه، ولا من يسأله عن هويته، أو جواز سفره، ولا جمارك يتوقف عندها لدفع الضريبة، وهو غير محتاج لاستبدال نقوده. وفي المساء كان يلجأ إلى احدىٰ محطات التُّجَّار المتجولين مثله المتوجهين الى تيزنيت في الشمال والصويرة، أو صافي وربما كانوا قادمين من «عطار» أو شنقيط في الجنوب ولكنهم جميعاً القادمون من الجنوب والقادمون من المشال، يتكلمون لغة واحدة. ويصلّون جماعة خلف إمام واحد، ويرتلون قرآناً واحداً، وكانوا عندما يتسقطون الأحاديث يعبرون عن مخاوفهم من تقدم الفرنسيين نحو أراضي النيجر ونحو السنغال والجزائر، ويتبادلون المعلومات حول السلطان عبد الحفيظ، وهل بوسعه الاستمرار في المقاومة أو يستسلم.. وكانت رحلات التجار تسير بمحاذاة الشواطىء المغربية أو عبر ممرات الصحراء المغربية المطروقة».

والمعنىٰ المقصود من هذا، ان المغرب لم يكن مجزءاً وأراضيه لم تكن منتزعة بل كانت كلها وطناً مغربياً لجميع المغاربة، قبل ان يفرض المستعمرون ظلهم البغيض على الحدود المغربية.

وهنا يقول البروفسور جرمين أياشي متسائلاً: «أين كان البوليساريو أو الشعب الصحراوي مختبئاً عندما كان الوطن حراً مستقلاً؟ وأين كانوا طيلة مدة الاحتلال الاسباني إلى ما قبل حرب التحرير المغربية»؟.

«هؤلاء البوليساريو أين كانوا..؟ أو ليس هو الشعب الصحراوي هو الشعب المغربي حيث كان الناس يعيشون معاً وحيث كان التجار يعرفون سكان المدن وسكان الصحراء، وحيث كانت القبائل المقيمة والقبائل الرحل تعرف بعضها بعضاً».

ان سكان الصحراء لم يتعرفوا على عناصر دخيلة على الوطن، على غرباء قادمين من الخارج سوىٰ الاسبانيين والأجانب الذين كانوا يعملون في مناجم الفوسفات. وكان المغاربة يعرفون أنفسهم بأنهم مواطنون ومن رعايا السلطان في كل العهود، وكان الشعب المغربي لا يدين إلا للسطان بالولاء، ولا يدعو بالمساجد إلا لنصرة السلطان.

ويستتبع البرفسور أياشي قائلاً: «هذا الشعب الصحراوي» هل كانت له حدود مرسومة قبل الاستعمار أو بعده؟ وهل تقدم أحدٌ لتعيين حدوده؟ وهل كانت لهم علامات أو شارات مميزة؟ وهل كانت لهم مقابر خاصة»؟.

«فلو كان لهم حدود أو شعارات لكانوا تقدموا بها إلى محكمة العدل الدولية، فإذا كان الاسبان قد عجزوا عن اكتشاف تلك الفروق والحدود والعلامات المميزة فان غيرهم أعجز.

يستطرد البروفسور جرمين أياشي قائلاً: «وعندما سئل سكان الصحراء المغربية عن أصولهم وفروعهم أجابوا: أنهم مغاربة من رعايا ملك المغرب، ما عدا الانفصاليين الذين شكل منهم الاسبان حزباً مرتجلاً أطلقوا عليه اسم: «الاتحاد الوطني الصحراوي» كعملية مناوئة لحكومة المغرب في ١٦ شباط سنة ١٩٧٥.

المسيرة الخضراء

وتحدث البروفسور أياشي عن «المسيرة الخضراء» فقال: «صحيح ان فكرة المسيرة الخضراء» كانت من وحي الملك الحسن الثاني، ولكن الشعب المغربي كان يتوقعها متحفزاً لمواكبتها ومستعداً لمجابهة الاسبان ـ بكل ما يملكون من أسلحة الدمار».

ويستتبع قائلاً: «لقد تجمعوا عند نقطة الانطلاق دون ان يسوقهم أحد أو يُرغمهم راغم على التجمع، وانطلقوا كتلة هائلة من البشر العُزّل من السلاح، حاسبين حساب ان تستقبلهم مدافع الاسبان بنيران الحصيد..

والمسيرة لم تمكن مزحة أو خدعة أو تمثيلية كما وصفها البعض، وإلا فمن يضحي بروحه في مسيرة كهذه تضمُّ مئات الآلاف من المغاربة من أجل مزحة أو خدعة أو تمثيلية»[1].

لقد كانت «مسيرةً خضراء» تمثل الروعة والجلال والفخامة في أروع مظاهرها.

---

(١) المسيرة الخضراء: وقد حدثت في الأيام ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٧٥ وقد اتجهت من المغرب نحو الصحراء الغربية لاستعادتها من الاسبان وقد اشترك فيها حواي ٣٥٠,٠٠٠ مواطن مغربي متطوع كما قدرت ذلك وكالات الأنباء العالمية التي رافقت الحدث.

وفي الماضي كان الصحراويون الاشاوس يثورون جماعات وقبائل لانقاذ العاصمة مراكش والسلطان تحاصره في قصره الجيوش الفرنسية، ولكن في هذه المرة انطلقت المسيرة الخضراء من جميع المدن المغربية ومنها مراكش وفاس والرباط والدار البيضاء وغيرها لتحرير الصحراء المغربية. . . لا أقول واحدة بواحدة ولكنني أقول: انه جهاد مستمر يُتَمِّم كفاحه المثالي ويكمل بعضه بعضاً.

ان الغبار الذي علا وجوه ورؤوس وثياب أبطال المسيرة لو جمع لكان بالإمكان ان يقام منه نصب تذكاري أو قوس نصْر لتخليد «ذكرىٰ المسيرة الخضراء».

عدد سكان المغرب

ان عدد سكان المغرب مختلف عليه كما هو مختلف على مساحة أراضيه[1]. فقد سجل بدجت ميكن في كتابه «The Moors» المنشور سنة ١٩٠٢ ان عدد سكان المغرب كما أورده بعض المؤلفين بالشكل التالي:

جاكسون قدر عدد السكان بـ ١٥ مليوناً، وبونللي ١٠ ملايين،

---

(١) ان مساحة أراضي المغرب موضوع مختلف عليه. والمساحات التالية تشير بوضوح إلى ذلك الخلاف. فالمؤلف روم لاندو يقدر مساحة المغرب بـ١٧٠ ألف من الأميال المربعة. ويذكر (ويتاكر) بأن مساحته هي ٢٧٠٢٨٠ ألف ميلاً مربعاً أما أطلس التاريخ الإسلامي فيقدر مساحته بـ١٥٠ ألف ميل مربع. وقدرتها (الهيرالد تريبيون) بـ١٦١٦٩١ ميلاً مربعاً كما قدرتها موسوعة (La civilisation africaine) بـ٦٥٩٩٧٠ كيلو متراً مربعاً عدا (الصحراء الغربية) التي تبلغ مساحتها ٤٥٨٧٣٠ كيلو متراً مربعاً.
بينما قدرها Robert Laffont في كتابه (Quid) بـ ٧١٠٨٥٠ كيلو متراً مربعاً بالإضافة إلى ١٣٥٠ كيلو متراً مربعاً لا تزال مع الجزائر و ٦٥٠ كلو متراً مع موريتانية ١٢,٥ كيلو متراً مربعاً مع اسبانيا (كيلو متر واحد لسبتة و ١١,٥ كلم لمليلة).
أما الدليل الأزرق الفرنسي فقدرها بحوالي ٥٢٠٣٩٠ كيلو متراً مربعاً. ولعل أصدقها ما جاء في كتاب (Quid) الفرنسي.

وركلوس بين ٨ و ٩ ملايين نسمة، وجرابرج بين ٥ و ٨ ملايين ولا نوي بين ٦ و ٧ ملايين وشنييه بـ ستة ملايين.

أما سلطات الحماية الفرنسية فقد ادعت ان عدد السكان قفز من ثلاثة ملايين في عام ١٩١٢ إلى تسعة ملايين عام ١٩٥٠. أما الموسوعة البريطانية عام ١٩١١ فقد قدرت عدد السكان بين ٥ و ٩ ملايين نسمة، أما حولية ألمغرب التي نشرتها جمعية المغرب وهي الهيئة الرئيسية للمستعمرين الفرنسيين فقد قدرت عدد السكان بحوالي تسعة ملايين نسمة وفي شهر كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩١٢ قال المارشال ليوتي ـ شيخ المستعمرين الفرنسيين وأول حاكم عام للمغرب ان عدد السكان يتراوح بين خمسة وستة ملايين نسمة. ويصر بعض الفرنسيين على ان عدد السكان بلغ تسعة ملايين نسمة عام ١٩٥٠.

وذكر الأستاذ أحمد عسة في كتابه «المعجزة المغربية» ان عدد سكان المغرب كان متدنياً في عهد التخلف ولكنه بلغ حسب التقدير في عام ١٩٣٥، إلى ستة ملايين نسمة ثم قفز عددهم إلى ٨,٦٠٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٥٢، وبلغ عام ١٩٦٠ في عهد الاستقلال ١١,١٠٠,٠٠٠ نسمة ليقفز عام ١٩٦٨ إلى ١٤,٣٠٠,٠٠٠ نسمة ثم قفز مجدداً في عام ١٩٧٠ إلى ١٥,٥٣٠,٠٠٠ نسمة، ثم استمر عدد السكان بالارتفاع حتى بلغ ١٧ مليون نسمة في عام ١٩٧٤. وذلك لأن الشعب المغربي شعب نسول. وبسبب انخفاض معدلات وفيات الأطفال بعد ارتفاع مستوىٰ العناية في الصحة العامة.

أما السبب الرئيسي في ارتفاع عدد السكان حيث يبلغ الآن في مطلع عام ١٩٨٩ أكثر من ٢٤٤٣٠,٠٠٠ نسمة إلى جلاء القوات الاستعمارية، لأن المذابح والمجازر قد توقفت في عهد الاستقلال ومع ذلك التوقف انطلق

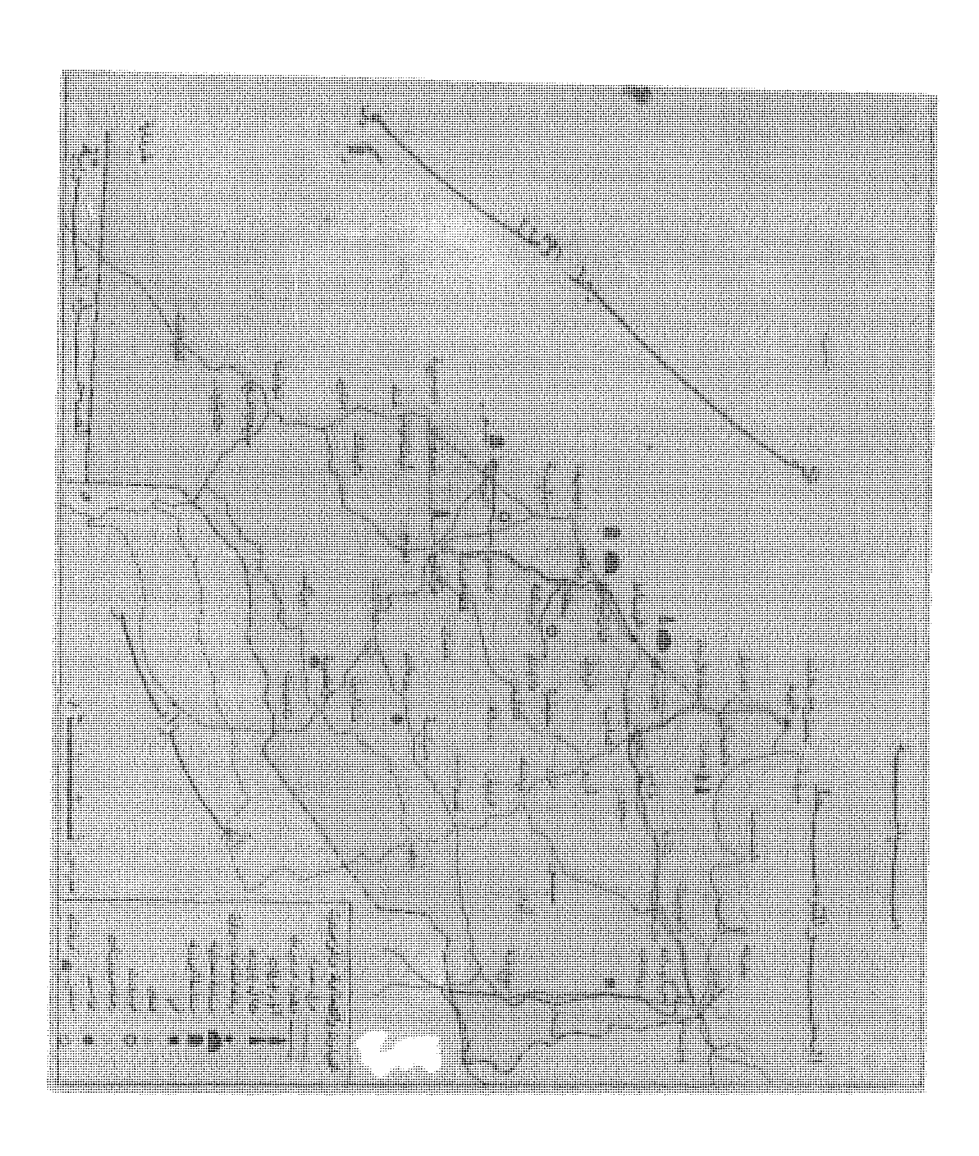
عدد السكان ـ في محيط يسوده الأمن والاستقرار السياسي والاقتصادي والطمأنينة وراحة البال ـ إلى أعداده المرتفعة.

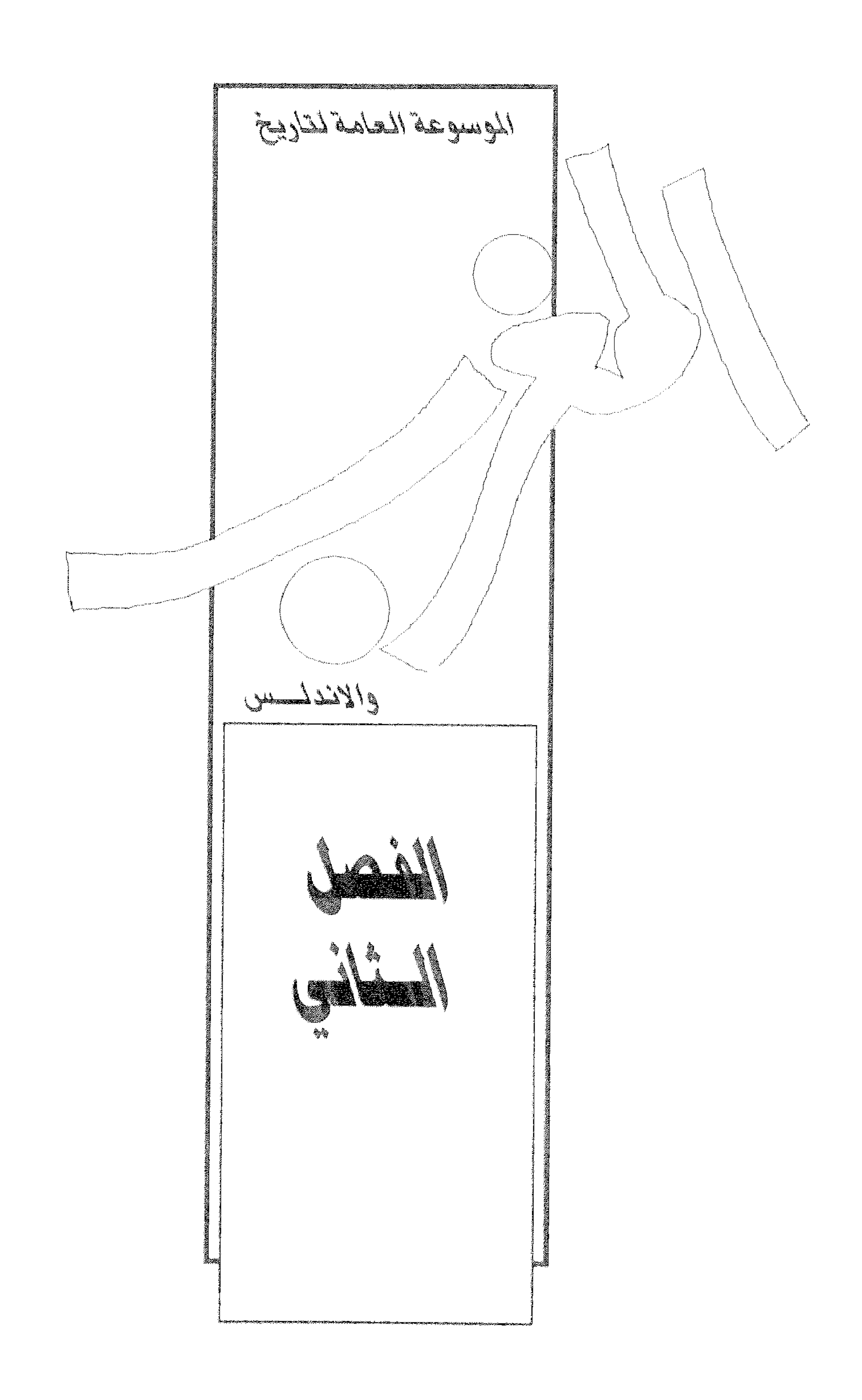
ان عدد سكان المدن المغربية ارتفع بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة فسجل زيادة بلغت نسبتها ٥٠ في المئة، وحتى عام ١٩٧١ كان يحدد سكان كل مدينة من المدن الاحدى عشرة الكبرىٰ ١٠٠ ألف نسمة، لذلك فان التقديرات تشير إلى أن عدد سكان المغرب سيبلغ حوالي ٣٦٢٠٥٠٠ نسمة بحدود العام ٢٠٠٠[١].

(١) قُدِّرَتْ نسبة الازدياد (الولادات) في المغرب سنة ١٩٨٨ بـ ٤٣٪ ونسبة الوفيات بـ ١٣,٤٪.

وقد أُجْرِي إحصاء مُدُنيّ في العام ١٩٨٨ كانت نتيجته ما يلي:

عدد سكان الرباط وسلا (١١١٨٠٠٠) ـ الدار البيضاء (٢٧٨٥٠٠٠) ـ فاس (٩٦٠٠٠٠) ـ وَجْدَة (٥٩٩٠٠٠)ـ مراكش (٥٥٤٠٠٠) ـ مكناس (٤٤٤٠٠٠) ـ تطوان (٤٤٧٠٠٠) ـ طنجة (٣٧٤٠٠٠) ـ أغادير (٣٥٢٠٠٠)، علماً بأنَّهُ في العام ١٩٢٦ كان عدد سكان كل من: الرباط وسلا (٣٨٠٤٤) الدار البيضاء (١٠٦٦٠٨) فاس (٨١١٧٢) وَجْدَة (١٩٩٧٦) مراكش (١٤٩٢٦٣).




الموسوعة العامة لتاريخ
المغرب
والاندلـــس
الفصل
الثاني

طبيعة المغرب

تختلف طبيعة المغرب الخيرة المعطاء باختلافات مناخاتها كمملكة كبيرة تتألف أراضيها من سهول خضراء يانعة تطيب فيها الحياة للإنسان المُجِدّ لاعتدال مناخها، وخصب أراضيها، ووفرة محاصيلها، ومن جبال شامخة تتبارىٰ فوق قممها الشمّ النّسور والعقبان وحيث يبلغ ارتفاعها أكثر من ١٢ ألف قدم[١]، تتدرج من الأجواء الأطلسية إلى سفوح شبه استوائية، ومن صحارىٰ جنوبية مغربية تبلغ مساحتها ما بين ثلاثة إلى أربعة أخماس مساحة المغرب بسبب انخفاض معدل الأمطار السنوي الناتج عن إنخفاض معدل الرطوبة، الناجمة عن قلة وجود الغابات التي تجتذب بكثافتها السحب والأمطار، وارتفاع معدل تسرب المياه في باطن الأرض لعدم وجود الغابات والأعشاب.

وهذه ظاهرة تستحق الأهتمام والعناية والدرس ومن المعلوم ان أحسن

---

(١) تمتد جبال الرّيف بموازاة شاطىء البحر الأبيض المتوسط ويصل ارتفاعها إلى ٢٤٥٦ متراً بينما تحتوي سلسلة جبال أطلس التي تنتهي عند منطقة أغادير على أعلى قمم أفريقية الشمالية (طوبقال ٤١٦٥ متراً.

أنواع الشجر الصالح غرسه في الصحاري المجدبة هو النخيل. لأن شجرة النخيل المباركة سخية في انتاجها السنوي، وهي قليلة التكاليف إذا توافرت لزراعتها المشاتل القريبة. والمغرب يستطيع ان ينشيء في كل عام غابة نخيل في صحاريه، إذا خصص للنخيل عيداً مدة سبعة أيام خلال العطلة الشتوية للتلامذة والطلاب وغيرهم من المتحمسين لزراعة النخيل من عشاق الشجر. وعلى مدىٰ سبعة أيام يشرع التلامذة بزراعة اشتال النخيل تحت إشراف الخبراء الزراعيين في الأماكن المعينة، وبذلك يستطيع المغرب إصابة هدفين بسهم واحد.. غابات للنخيل تزرع سنوياً، ورطوبة في الأجواء ترطب المناخ وتجتذب إليها السحب من قمم الأطلس.

وثمة أنواع من الشجر ينبت في الصحاري مثل البطم والسدر والأثل والسلم وأنواع أُخرىٰ يعرفها الخبراء، هذا بالإضافة إلى وجود أنواع عديدة من النباتات المدّادة التي يمكن زراعتها على وجه الأرض لتخزين مياه الأمطار تحتها مباشرة بدلاً من تَسَرُّبِها إلى الأعماق المجهولة.. وتجدر الإشارة إلى ان أحسن أنواع النباتات المدادة الموجودة حالياً، هي في اليابان والولايات المتحدة وثمة علماء اختصاصيون في تحسين الأراضي الصحراوية في الولايات المتحدة وروسيا وغيرهما من البلاد.

ومن المعلوم ان أشجار النخيل مشهورة بغزارة انتاجها من البلح والرُّطب المجفف وبالإمكان ان تكون مصدر ثروة عظيمة للبلاد على المدىٰ الطويل.

ويحكىٰ ان كسرىٰ انوشروان رأىٰ رجلاً هرماً عاكفاً على زراعة أشجار النخيل في أرضه البعلية القليلة المياه فقال له: أتؤمل ان تعيش لتجني الثمرات الطيبة من هذا النخيل؟ فأجاب الرجل الهرم. أيها الملك لقد زرع آباؤنا وجدودنا النخيل فأكلنا ونحن نزرعه اليوم ليأكل منه أبناؤنا وأحفادنا.

ان زراعة الغابات في الصحاري تعني اكتساب أراضٍ زراعية جديدة وانتاجاً وافراً، ورطوبة في الأجواء، وأمطاراً غزيرة في مواسم هطول الغيث.

انهار المغرب وأوديته

وهذا يجُرُّنا إلى الحديث عن أنهار المغرب الغنية بمياهها في فصل الأمطار، والشحيحة نوعاً ما في الصيف أو في الخريف لعدم وجود الرطوبة الكافية التي تهيؤها الغابات. فالأنهار في المغرب تسمىٰ «أودية» ومعظمها ينبع من جبال الأطلس عندما ترتدي أثوابها الناصعة البياض في موسم تساقُط الثلوج، وانه لمنظر آخاذ لعشاق الرياضة الشتوية التزلج على الثلج، خصوصاً إذا كانت الجبال الاطلسية مكسوةً بأشجار الأرز ـ الأرز الذي جاء به الكنعانيون القدماء وغرسوه فوق جبال الأطلس، فساعدتهم أخشابه على بناء مراكبهم ذات الصف والصفين من المجاذيف وأكثر من ذلك، كما ساعدتهم أشجار الأرز على تنشيط أسواقهم التجارية بالأخشاب مع العلم ان شجر التفاح ينمو ويترعرع فوق الجبال العالية. وكلما علت الجبال اعطت أشجار التفاح انتاجاً وافراً وحبات أكبر حجماً خصوصاً إذا زرعت في «الجلول» على الطريقة اللبنانية، أي المدرجات حيث تنحدر هذه المدرجات من القمم إلى السفوح بشكل هندسي جميل.

وتنحدر مياه الثلوج والينابيع إلى أنهار المغرب التي تصب في المحيط الأطلسي، ويعتبر نهر «السبو» من أطول أنهار المغرب إذ يبلغ طوله ٦٦٠ كيلو متراً، ويبلغ متوسط جريانه ١٣٧ متراً مكعباً في الثانية، ولا يقل في أيام (الشحايح) عن ١٥ متراً مكعباً. في الثانية. وقد يرتفع معدل جريانه أيام الفيضان إلى ثمانية آلاف متر مكعب في الثانية، وهو يجري في عدة روافد

منها: وادي جيجو، ووادي زلول، ووادي فاس، ووادي مكناس، في منطقة الأطلس الأوسط، ونهر الورغة، ووادي البهت، ووادي دوم في سهل الغرب.

ويأتي بعده في الطول نهر (أم الربيع) حيث يبلغ طوله ٥٨٠ كيلو متراً، يجري في حوضه الواسع البالغة مساحته ٣٤٦٩٠ كيلو متراً، ومعدل جريانه ١٠٥ أمتار مكعبة في الثانية ثم ينخض معدله في فصل (الشحايح) إلى ٢١ متراً في الثانية، وينبع هذا النهر من جبال الأطلس الأوسط، فيروي سهل «تادله» وهو منتظم الجريان على مدار فصول السنة.

ومن أهم روافد »أم الربيع» الوادي الأخضر، ووادي العابد ووادي التساون. وهو من أفضل الأنهار لإقامة السدود من أجل أغراض الري وتوليد الكهرباء.

وهناك نهر الملوية الذي يبلغ طوله ٥٥٠ كيلو متراً ويتسع حوضه إلى ٦٥ ألف كيلو متراً مربعاً. ان وجود هذا النهر في مناخ صحراوي لمِمَّا يساعد على زراعة الغابات في حوضه، وأشجار البن والشاي بعد دراسة ذلك في اليمن بالنِّسْبَة للبن، وسيلان بالنسبة للشاي بالإضافة إلى أشجار النخيل، ففي أيام الفيضان يرتفع منسوبه إلى ٥٠٠ متر مكعب واحد في الثانية وهذا يساعد على زراعة قصب السكر والموز والشمندر، لينخفض في أيام (الشحايح) إلى متر مكعب في الثانية ويصب هذا النهر في البحر الأبيض المتوسط.

وينبع وادي اللُّوكُوس من سلسلة جبال الأطلس. وينحدر ببطء إلى المحيط الأطلسي قرب مدينة العرايش في الشمال، ويبلغ طوله ١٧٩ كيلو متراً ويتفرع منه عدد من الروافد من بينها وادي «أبي الرقراق) ووادي

«ادقرة» ووادي «كريفلة».

وليس بكثير على سلسلة جبال الأطلسي ان ينبع منها روافد مثل وادي زيز وربما كان في الأصل «ايزيس» أي عزة ملكة مصر في العصور القديمة، ووادي «كيريس» واعتقد ان الاسم الصحيح هو «يسيريس» ربة حقول القمح في الأساطير الفينيقية ـ الاغريقية، بدليل انه يهب الخصب والنماء للفراديس المحيطة «بتارودانت» ذات الجدران القرمزية، ونهر داداس، ونهر توكدة، ووادي بولمان ـ والجنان حول هذين النهرين تكثر فيها بساتين الجوز والتوت. . وهذا يساعد على تربية دود الحرير. . . . وأشجار النخيل.

وعندما يتعانق وادي داداس ووادي ورزازات في وادي درعة بعد ان ينضم إليهما في العناق وادي زيز فان هذا اللقاء الجميل يرفع معدل طوفان وادي درعة إلى ٤٠٠٠ متر مكعب في الثانية كما يرفع فيضان وادي زيز إلى ١٢٠٠ متر مكعب في الثانية.

وقد قدرت مديرية الموارد المائية متوسط هطول الغيث سنوياً فوق أراضي المغرب بـ ١٥٠ مليار متر مكعب، وحَيْثُ أَنَّ قسماً كبيراً منها يتبخر لعدم وجود رطوبة الغابات التي تمنع التبخر أو تقلله. أما الفيض الباقي وقدره «٢٥» مليار متر مكعب وهو ثروة المغرب من مياه الأنهار فإنه ينساب منها ١٧ مليار متر مكعب في الأودية والأنهار، بينما تسيل المياه الباقية وقدرهما ثماني مليارات متر مكعب في بطن الأرض، تحت الطبقات الجوفية. . وهذه حالة تذهب فيها المياه ضياعاً وتحتاج إلى دراسة لمعرفة أسباب تسرب المياه تحت الطبقات الجوفية وليست في أحواض تلك الطبقات، لأن المياه الجوفية يمكن استخراجها بالوسائل الحديثة.

مخزون المياه ومعدل الأمطار في المغرب

ان مخزون المياه في المغرب المتوقع في عام ٢٠٠٠، قد يبلغ ١٦ مليار متر مكعب، يستعمل منها ١٢ مليار متر مكعب فقط.

ويبلغ معدل هطول الأمطار السنوي في طنجة ٨٤٤ ملليمتراً لأنها واقعة على شاطيء البحر المتوسط، بينما يهبط معدل الأمطار في مدينة اغادير المطلة على المحيط الاطلسي ومن خلفها الصحراء المغربية، إلى ٢٣٠ ملليمتراً، كما يقل معدل هطول الأمطار في مدينة مراكش في الداخل إلى ٢٥٦ ملليمتراً في العام، ولكنه يرتفع في مدينة ايفران القريبة من فاس إلى ٥٩٠ ملليمتراً لوقوعها في منطقة جبلية ترتفع عن سطح البحر ١٦٣٥ متراً. . ومن المتوقع ان يرتفع هذا المعدل إذا حُرجت هذه المنطقة الجبلية واكتسيت بالغابات.

ويبلغ معدل نزول الإمطار السنوي في المناطق الاطلنطية بـ ٤١٠ ملليمترات، ثم يزداد المعدل في جبال الأطلس المتوسط حتى يصل إلى ٨٢٠ ملليمتراً. و١٠٠٠ ملليمتر في جبال الريف المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

أما في منطقتي حوز مراكش والسوس وهما منطقتان شبه صحراويتين فيسودهما مناخ جاف لأن معدل الأمطار سنوياً فيهما يتراوح بين ١٠١ و ٢٠٥ ملليمتر، وهو معدل ضئل جداً ولكن زراعة الغابات في المستقبل ستعمل على تحسين هذا المعدل.

ومن المعروف ان موسم الأمطار في المغرب يتكاثر في شهري نوفمبر - تشرين الثاني - ومارس - أذار- ويقل في شهري ديسمبر - كانون الأول ويناير - كانون الثاني، والأيام الممطرة في المغرب لا تتعدىٰ العشرين يوماً في مناطق جنوب الأطلس الجافة، ثم ترتفع إلى ٣٠ يوماً في وادي

الملوية الأوسط لوجود نسبة من الرطوبة في الأشجار، ثم في حوز مراكش ووادي السوس ثم تزداد إلى سبعين يوماً في مناطق الريف الغربي والأطلس المتوسط والسهول الاطلنطية الشمالية. . . ولا تبلغ مئة يوم إلا في مناطق الأطلس الأوسط .

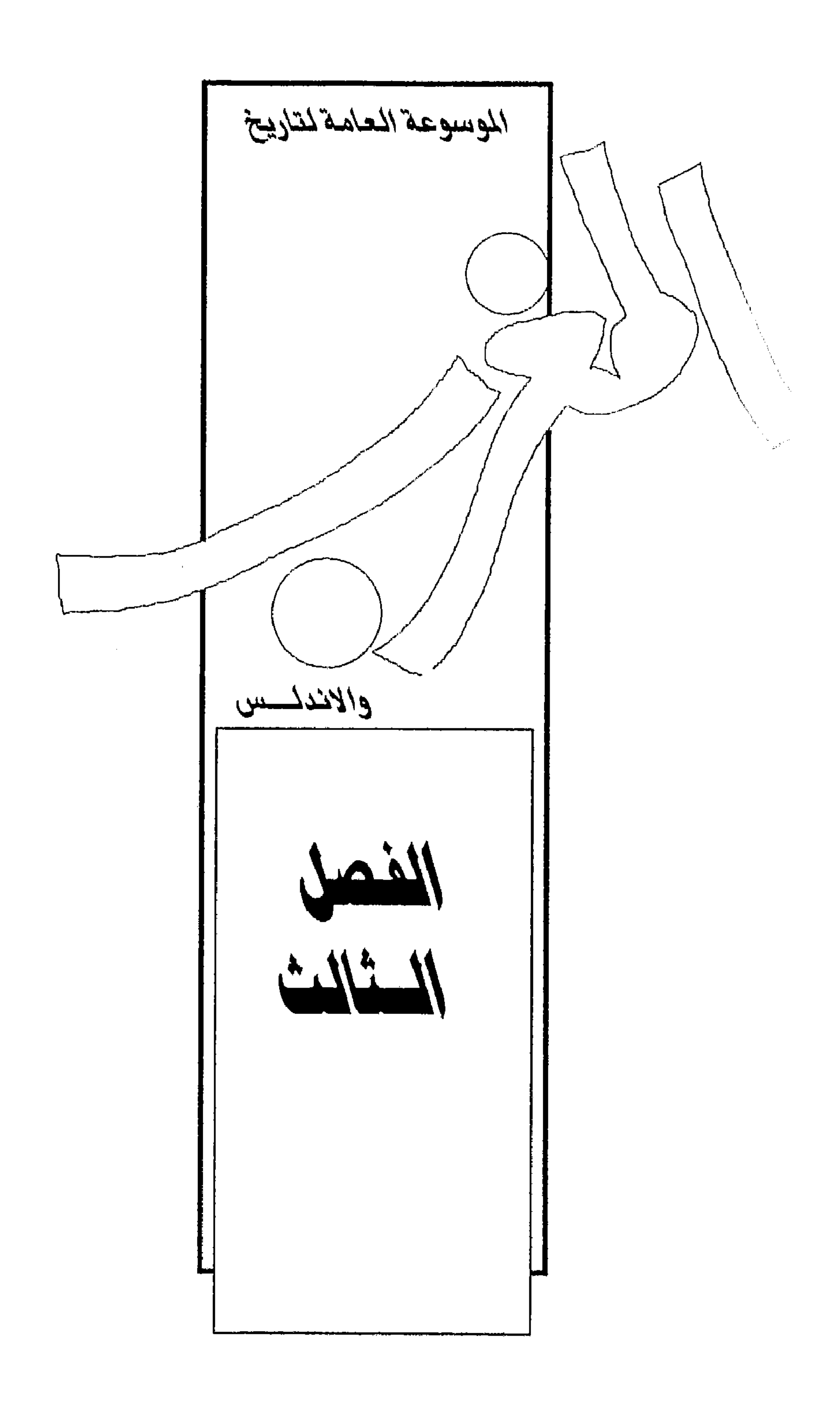
المغرب هبة الأطلس

ان المغرب هبة جبال الأطلس لأن الثلوج تغطيها طيلة فصل الأمطار، فتجعل منها خزاناً طبيعياً للمياه المتدفقة من الينابيع والسيول إلى الأودية والأنهار. وتؤلف المملكة المغربية الزاوية الغربية الممتدة شمالاً على ساحل البحر المتوسط وطولها ٤٥٠ كيلو متراً، في حين ان غربها يمتد من أقصىٰ الشمال إلى أقصىٰ الجنوب وطوله ١,٣٠٠ كيلو متر، على ساحل المحيط الأطلنطي في الطرف المقابل للولايات المتحدة. . وذلك مما يجعل ساحل المغرب المطل على المحيط منطقة استراتيجية بالغة الأهمية.

ومن المعروف جداً ان مضيق جبل طارق وهو أيضاً موقع استراتيجي

هام جداً، لأنه برزخ مائي يصل غربي البحر المتوسط بشرقي المحيط الاطلنطي، كما يصل شمال أفريقية بحراً بجنوب أوروبا بعرض يضيق إلى حد ١٥ كيلو متراً بينما تشكل سهول وجدة والعيون وجر سيف حدود المملكة المغربية حالياً من الشرق. مع الجزائر في حين تمتد حدودها الجنوبية إلى مداخل أواسط أفريقيا لولا اعتراض الحدود الموريتانية المصطنعة.

وكما يقال ان السهول المغربية المطلة على المحيط الاطلنطي تشكل امتداداً استراتيجياً خطيراً مقابل الولايات المتحدة فان الجبال والأراضي الواقعة على إمتداد شمالي المغرب تشكل مواقع استراتيجية هامة لموقعها في الاتجاه المقابل لأوروبا.



الفصل الثالث

طرق القبائل والقوافل القديمة

حتى القرن التاسع عشر، ظلت طرق القوافل القديمة التي كانت تَسْلُكها القبائل المغربية، عندما كانت تجتاز الصحراء الكبرى إلى افريقية الغربية بقصد المتاجرة لُغْزاً مُتَحيِّراً. وكانت تلك القبائل تروح وتجيء آمنة مطمئنة حاملة السلع المختلفة، وأهمها الملح والأقمشة والأوعية الفخارية والمعدنية، والحبوب وكانت هذه القبائل وفي مقدمها «الطوارق» الصنهاجية، وقبائل لمتونة وغيرها تحمل هذه المنتوجات العربية الإسلامية إلى قلب السودان القديم «مالي» والنيجر والسنغال «وغانا وغنيا وغيرها من الأقطار الافريقية ، ثم تعود محملة بالذهب والفضة والمعادن والأحجار الكريمة والريش والطيور الجميلة والقردة والحيوانات الداجنة والمفترسة أحياناً.

وبالرغم من ان هذه الطرق الصحراوية كانت قديمة جداً تعود إلى زمن الكنعانيين في قرطاجة والمغرب، فانها ظلت سراً مغلقاً على الأوربيين، حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

أما الطريق الأول فكان طريق تلمسان ووجده وبركنت وتندرارة وبشار وإيغلي وادرار وسالي ووركان وحاسي الحرك وتامنراست وعين كزام وعين غاريت ثم النيجر. وكان الطريق الثاني يصل من الشمال المغربي إلى تزنيت وبوزكان وفم الحصن وتندوف وبئر الخزايم والمرعيتي وعروان وتمبكتو في السودان القديم «مالي الحالية» أما الطريق الثالث وهو الطريق السَّاحلي الذي يمتد من البحر الأبيض المتوسط أي من سبتة وطنجة ومليلة ثم يتجه نحو الجنوب إلى طرفاية والعيون «والداخلة التي بنيت في زمن متأخر» ثم إلى تشلة ويلوه، ونواذيب، والممغرة عند رأس مرك، ونواكشوط ثم الموت ودكنة في السنغال.

وكان ثمة مراكز رئيسية سواء كانت هذه المراكز مدناً أو قرىً أو مواطن مائية للقبائل، تتفرع منها طرق للقوافل عديدة، أو تصل إليها القوافل القادمة من تونس والمغرب الأوسط أو من المناطق الجبلية كالأطلس الصحراوي والأطلس المتوسط، والأطلس الكبير والأطلس الصغير.

وعندما اقتحم الفندال والرومان والعرب شمال أفريقية رحل العديد من القبائل البربرية نحو الجنوب عبر طريق تاوديني ـ تمبكتو، لنقل السود والذهب والعاج وغيرها إلى أسواق المدن الشاطئية المقابلة للأندلس على المحيط الأطلنطي أو المدن المغربية الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط.

وكما ذكرنا من قبل فقد كان الفضل الأعظم بنقل الإسلام إلى افريقية الغربية وإلى قلب القارة الافريقية الغربية والشرقية على السواء للقبائل الصنهاجيَّة «الطوارق».

وكان الطريق الرابع يمتد من سرطة الصغيرة إلى كانو عن طريق

غدامس عبر قبائل الطوارق، التي كانت قوافلها تكاد تحتكر التجارة مع القارة السوداء عبر أراضيها أو الأراضي التي تسيطر عليها.

وكان الطريق الخامس يأتي من طرابلس الغرب ماراً بحر سوق وبورنو وبحيرة تشاد محتازاً منطقة «التيبو» الخطيرة.

أما الطريق السادس وهي الطريق التي كان يطلق عليها «اسم الأربعين يوماً» فكانت تبدأ من أسيوط المصرية مارة بالفشر إلى بورنو، وكانت تدعى طريق «الايمان» لانتشار الدين الإسلامي عبر المناطق التي تمر بها والذاهبة إليها في افريقية كما ان هذه الطريق كانت تمر بها قوافل الحجاج المسلمين في طريقها إلى مكة المكرمة.

وكان ثمة مدن أو مراكز تجارية لا بد للقوافل من المرور بها لأنها تسيطر على العديد من الطرق الممتدة من الشمال إلى الجنوب، فكان في الشرق المغربي القديم مركز «الزاوية الكحلاء» «حصن أما سنين فيما بعد» ومدينة «غات» التي تصل إليها القوافل من صفاقس وقابس مروراً بغدامس وغيرها. وكان هناك حاسي الحرك التي تمر فيها القوافل إلى النيجر في منطقة أدرار. كذلك بشار وتافيلالت ثم المدن الكبرىٰ مثل تلسمان وفاس ومراكش.

ولم يكن المرور عبر هذه الطرق ميسوراً لأي كان. حتى القوافل الكبرىٰ ما كانت تجسر على عبور مناطق الطوارق، إلا إذا كانت متعاقدة معها وتدفع الأتاوة. إلا ان الطرق الغربية المحاذية للمحيط الأطلنطي كانت مأمونة المجاز والعبور، لهيمنة الحكومة المغربية عليها بصورة دائمة حتى ان صغار التجار والباعة المتجولين كانوا يمرون بها بحريَّة تامة.

وكانت الينابيع والآبار تتحكم بهذه الطرق للتزود منها بالمياه،

والتماس الراحة وتسقط الأخبار قبل عبور المناطق الصحراوية الخطرة. لأنها في الواقع تسيطر على الدروب الصحراوية المفضية إلى قلب القارة الأفريقية.

ويقال بأن قبائل الطوارق تَلَثَّمَت اتقاء للحر في المناطق الصحراوية والرياح العاصفة بالأتربة والرمال. ولم تكن هذه الطرق والدروب تخلو من جمال وسحر صحراويين. خصوصاً في الليل عندما تبرد الأجواء، وتنخفض حرارة الأجواء الصَّحْرَاويَّة إلى درجة مقبولة في الصيف، ولكن في الشتاء فان الحرارة تهبط في تلك المناطق إلى درجة الصقيع والتَّجلُّد.

ولا شك في أن زحف الرمال قد قضىٰ على كثير من الأودية التي كانت تتجمع فيها مياه الأمطار، كما طمرت الكثير من الينابيع، وكذلك الأشجار.. وقد عملت القوافل والسكان المحليون على إتلاف الأشجار الصحراوية بسبب استعمالها وقوداً للتدفئة إو لإنضاج الأطعمة.

هكذا انتقل الإسلام إلى افريقيا السوداء

مع هذه القوافل التجارية انتقل الإسلام من المغرب الأقصىٰ إلى افريقية الغربية بطريقين تجاريتين: الأولىٰ طريق شنقيط «في موريتانيا حالياً» والثانية من الصحراء المغربية إلى كل من غانا و «مالي» ونيجيريا.

وكانت غانا مملكة عظمىٰ قبل ١٥٠٠ سنة على عهد الأمبراطورية الرومانية سنة ٣٠٠ بعد الميلاد، كما كانت مالي أو السودان القديم امبراطورية مترامية الأطراف في القرن الرابع عشر، وقد جلس على عرش المملكتين غانا ومالي ملوك اشتهروا قديماً ومنهم الملك منساموسى حوالي ١٣٣٠ ميلادية، وهو الذي حجّ إلى بيت الله الحرام آخذاً معه خمسين ألف أونصة من الذهب «وقية» تصدق بها على المحتاجين في الأراضي المقدسة.

ثم عاد ومعه عدد كبير من المسلمين بعضهم من العلماء، والبنائين وذوي الحرف. وبواسطة هؤلاء شيدت المساجد وأبنية السكن في تمبكتو.

وفي القرن السادس عشر ذهب سلطان «سونفيه» التي كانت تضم شمال نيجيريا والنيجر ومالي ـ إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبصحبة عدد كبير من أعيان البلاد والسكان الراغبين في زيارة الكعبة المشرفة.

ويعتقد سكان شمال نيجيريا انهم من أصل عربي وما زالوا يتمسكون بالعادات والتقاليد العربية وشجرات أنسابهم، وما زالوا يفتخرون بها.

وانتشرت في افريقية الغربية الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية.

وقد استقلت غانا عام ١٩٥٧ بعد ان ضمت إليها ساحل الذهب، ويبلغ عدد سكانها عشرة ملايين نسمة ومساحتها ٩٠٠٠٠ ميل مربع، واستقلت مالي عام ١٩٥٩، وعدد سكانها خمسة ملايين ونصف، ومساحتها ٤٦٤٠٠٠ ميل مربع.

وظلت القارة الافريقية مجهولة معلومة عند الأوربيين الذين لم يكن مُتاحاً لهم عبور تلك الفيافي والفلوات.

متى عرف الأوربيون افريقيا

يقال ان الغرب عرف للمرة الأولىٰ أسرار القارة الافريقية، عندما وقع أحد العلماء المغاربة المسلمين أسيراً في عام ١٥٢٠ بيد القراصنة الأوروبيين فأهدوه إلى البابا ليون العاشر. وهناك في رومة وضع كتاباً من ثلاثة مجلدات عن قلب القارة الافريقية. فبهر الناس بالمعلومات التي دونها في كتابه، خصوصاً عندما تحدث عن وجود مملكة عظيمة سكانها من الزنوج المسلمين، وفيها أمراء عظام يملكون من الذهب أكثر مما كان يملك سكان

المكسيك الأوائل. وبالرغم من ذلك فلم يجسر أحد على القيام بأيّة مغامرة للوصول إلى قلب القارة الأفريقية.

وفي عام ١٧٨٨ تشكلت في لندن الجمعية الأفريقية لأسباب اقتصادية خصوصاً بعد ان فقدت بريطانيا مستعمراتها الامريكية «الولايات المتحدة» فراحت تبحث عن مناطق جديدة في العالم لتستعمرها وتمتص دماء سكانها.

ففي ٢٠ يوليو عام ١٧٩٦ أرسلت بعثة استكشافية برئاسة طبيب انكليزي يدعىٰ مونجو بارك إلى غربي أفريقية، وبعد رحلة طويلة شاقة بلغ نهر النيجر.

وفي عام ١٨٢٧ خصّصت الجمعية الجغرافية بباريس جائزة لأول رحالة فرنسي يستطيع الوصول إلى تمبوكتو في السوادن القديم «مالي» فقام بالمهمة رينيه كاييه الرحالة الفرنسي الذي استطاع الوصول إلى تمبوكتو، بعد ان تنكر بملابس عربية مصرية وادعىٰ الإسلام، ثم ختم رحلته عائداً إلى سيراليون على شاطىء المحيط الأطلنطي متجهاً مع احدىٰ القوافل إلى طنجة وفاس، وهناك اعتلت صحته ومات.

وفي عام ١٨٥٠ توجهت قافلة انكليزية من طرابلس كان يرأسها جيمس ريتشارد سون بمساعدة رحالة إلماني يدعىٰ هاينريش بارت، ثم توفي ريتشارد سون في الطريق.

ولكن الالماني بارت استمر في الرحلة باسم الحكومة الانجليزية، حتى وصل إلى داخل القارة وهناك عقد اتفاقات تجارية مع ملوك وأمراء المقاطعات التي وصل إليها، ثم تجرأ في احدىٰ المرات فادعىٰ الإسلام وبذلك تمكن من دخول بلدة تمبوكتو، ومنها انطلق إلى بحيرة تشاد، ثم راح يتبع مجرىٰ نهر البينو والشاري، وقد جمع معلومات أفريقية قيمة جعلت

المناطق التي وصل إليها كتاباً مفتوحاً لكل قارىء أوروبي.

وجاء من بعد هؤلاء جيرارد رولف أعظم رواد القارة الأفريقية وهو الماني من بلدة بريمن، وكان في الأصل طالب طب، ثم خدم ست سنوات في الفرقة الأجنبية الفرنسية، والتحق كطبيب عسكري في الجيش في مدينة فاس المغربية، وراح يقود الجمال ـ بعدها ـ باسم مصطفىٰ من اغادير، فتوغل في قلب الصحراء، إلى ان وصل طرابلس ومنها اتجه إلى بحيرة تشاد، ثم إلى نهر النجير، ثم انعطف نحو الغرب عائداً إلى شواطىء المغرب على المحيط الأطلنطي.

المهم في كل ذلك هو ان هؤلاء الأجانب الذين نكتب عنهم الآن بصفتهم رحالة وأوئل الرواد للقارة الأفريقية بالنسبة لأبناء جلدتهم الأوربيين، جاؤوا متأخرين بالنسبة لما قامت به القوافل التجارية المغربيَّة من رحلات إلى أفريقية، فان هذه الرحلات كانت بالنسبة للمغاربة من عهد القرجايين إلى ان احتل الفرنسيون المغرب، تعتبر رحلات عادية تقوم بها القوافل المغربية بصورة دائمة صيفاً وشتاءً، ولكن أحداً من الرحالة المغاربة، قبل وبعد ابن بطوطة لم يتحفنا بكتاب عن مشاهداته في أفريقية الغربية.

عبد الله بن ياسين ينشر الإسلام في افريقيا

ولقد أقام عبد الله بن ياسين اللمتوني فقيه دولة الطوارق المغربية في زاوية له على نهر السنغال، ونشر الإسلام في السنغال والنيجر وقاد جيشاً حارب به في النيجر وغانا قبل تأسيس الدولة الصنهاجية في المغرب.

يوسف بن تاشفين بين أفريقيا والأندلس

ولعل يوسف بن تاشفين وهو من أسرة عبد الله بن ياسين اللمتونية

ارتكب أعظم أخطائه عندما توجه إلى الأندلس، متخلياً عن أفريقية الغربية التي ظهرت فيه دعوته الإسلامية، وكانت ميدان نشاطه الواسع عندما كانت أفريقية الغربية أكبر سوق للقبائل اللمتونية.

والسؤال المطروح هنا لماذا لم يضم يوسف بن تاشفين السنغال والنيجر وغانا وسائر الدول الأفريقية الأُخرىٰ التي كانت واقعة في مجال حملات قبيلته الدينية ونشاطاتها في المجالات التجارية إلى المغرب؟...

سؤال سيبقىٰ بدون جواب.. لأن يوسف بن تاشفين فضّل الأندلس على الثروة التي لا حدود لها في أفريقية، فأضاع من يده امبراطورية كبرىٰ لو استطاع تحويل نشاطه العسكري إليها، لأصبح المغرب أغنىٰ وأكبر دولة على ظهر الأرض إلى يومنا هذا.. لقد كانت القارة الأفريقية كلها تحت أقدام المغرب في الجنوب ولكن سلاطين المغرب المحدودي الأفق والتفكير والعبقرية والنبوغ انشغلوا في ذلك الوقت بالمهمِّ في الأندلس عن الأهم في افريقية.

الصحراء الكبرى

هذا مع العلم بأن الصحراء الكبرىٰ ـ كان معظمها يعتبر أرضاً مغربية من المحيط الاطلنطي غرباً إلى حدود السودان شرقاً، وكان السودان القديم وموريتانيا وبلاد الطوارق هذه الدنيا الصحراوية كانت كلها في متناول أيدي سلاطين المغرب، ومن المعروف ان السلطان الذهبي تمكن من فرض سيطرة بلاده إلى حدود مالي وقد لقب بالذهبي نسبة إلى ذهب «مالي» الذي انعش به الاقتصاد المغربي.

ان مساحة الصحراء الكبرى تبلغ ٣,٥٠٠,٠٠٠ ميل مربع أي حوالي ثلث القارة الأفريقية ولكنها من طول عهد التَّرك والإهمال أصبحت الصحراء

ذات الرمال الزاحفة التي تزحف على السهول المتاخمة لها ـ بحركة انتقامية طبيعية ـ لأنه لولا إهمال الصحراء الكبرى من الدول المجاورة لها ـ لما أخذت تزحف رمالها على أراضيها الزراعية. وهذه الرمال زحفت في الماضي، وما زالت تزحف على سهول تُغطي مساحتها ٣٠٠٠ ميل مربع تضم: السنغال وموريتانيا ومالي وفولتا العليا ـ بوركينا فاسو حالياً ـ. والنيجر وتشاد والسودان والحبشة والصومال» هذا مع العلم بأن الرمال الزاحفة قد غطت مساحات واسعة من أراضي المغرب وتونس والجزائر ومصر.

والكارثة التي هددت دول جنوب الصحراء الكبرى هي نفسها التي تهدد حالياً الدول الواقعة في شمالها أي المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر ـ ولا سيما الدلتا في وادي النيل.

خطر زحف الصحاري على البلاد العربية

كيف يمكن ان نضع المبادىء الأساسية لمكافحة الرمال الزاحفة على الوطن العربي قبل فوات الفرصة وضياع الإمكانات والموارد المالية؟

من المعروف حتى الآن ان الرمال الزاحفة غطت مساحات كبيرة من شبه الجزيرة العربية في اليمن والسعودية وعمان وحضرموت ودول الامارات العربية.

وإذا استثنينا اليمن وحضرموت حالياً فان سائر دول شبه الجزيرة العربية قد أمدها الله وزودتها الطبيعة بموارد بترولية هائلة لكي تساعد نفسها والأجيال القادمة بعد نفاد النفط، فالنفط حالياً «يزحف» إلى أوروبا ليساعدها على استمرار حضارتها الصناعية وفي الوقت نفسه تزحف الرمال وتتكدس وترتفع لدرجة أصبحت تشكل نجوداً وتلالاً تهدد المناطق الواقعة في شمال شبه الجزيرة العربية.

ولو أردنا ان نسمي «النفط» نعمة من الله وهدية» من طبيعة شبه الجزيرة

العربية لسكانها . . لكان علينا ان نعمد إلى الاستفادة من هذه النعمة، أو الهدية الطبيعية بانفاق مواردها على تحسين الأراضي وإيقاف زحف الرمال من جهة، . وتحويل المناطق الرملية إلى مناطق زراعية لكي تستفيد منها الأجيال القادمة من جهة ثانية وهذا ما بدأ فعلاً في المملكة العربية السعودية حيث بدأ بالفعل تحويل الصحاري الى اراضٍ زراعية خصبة وأصبحت هذه المملكة في السنوات الأخيرة من البلاد المصدرة للحبوب وخاصة القمح، ولانرى اثراً لذلك في غيرها من البلدان.

فالمال كثير ولكن الجهود قليلة.

والنعمة تهدر حالياً في غير مجالاتها! . . .

وإذا نضب النفط فماذا يكون قد بقي للأجيال القادمة؟ . . .

وبما ان الأموال التي تهدر لا يمكن ان تعوَّض، وبما ان الحياة باقية ومستمرة، وكذلك حركة التناسل والولادة. فان الواجب يفرض على الحكومات العربية النفطية ان تساعد ظهر الأرض من النفط الذي يستخرج من بطنها.

لذلك ينبغي على كل دولة عربية في شبه الجزيرة العربية ان تخصص وزارة مهمتها تحويل المناطق الصحراوية إلى مناطق زراعية ويخصص لها سنوياً موازنة مرتفعة للقيام بواجبها على خير الوجوه وأحسنها.

وبما ان هذه الدول تستقدم خبراء لمصانعها البيترو كيمائية، فانها أيضاً قادرة على استقدام خبراء لتحسين الأراضي الصحراوية وتحويلها إلى أراضٍ زراعية.

فالنفط سينضب خلال الخمسين سنة القادمة كما يتوقع الخبراء .

ولكن الأراضي الصحراوية المحولة إلى أراضٍ زراعية ستبقىٰ،

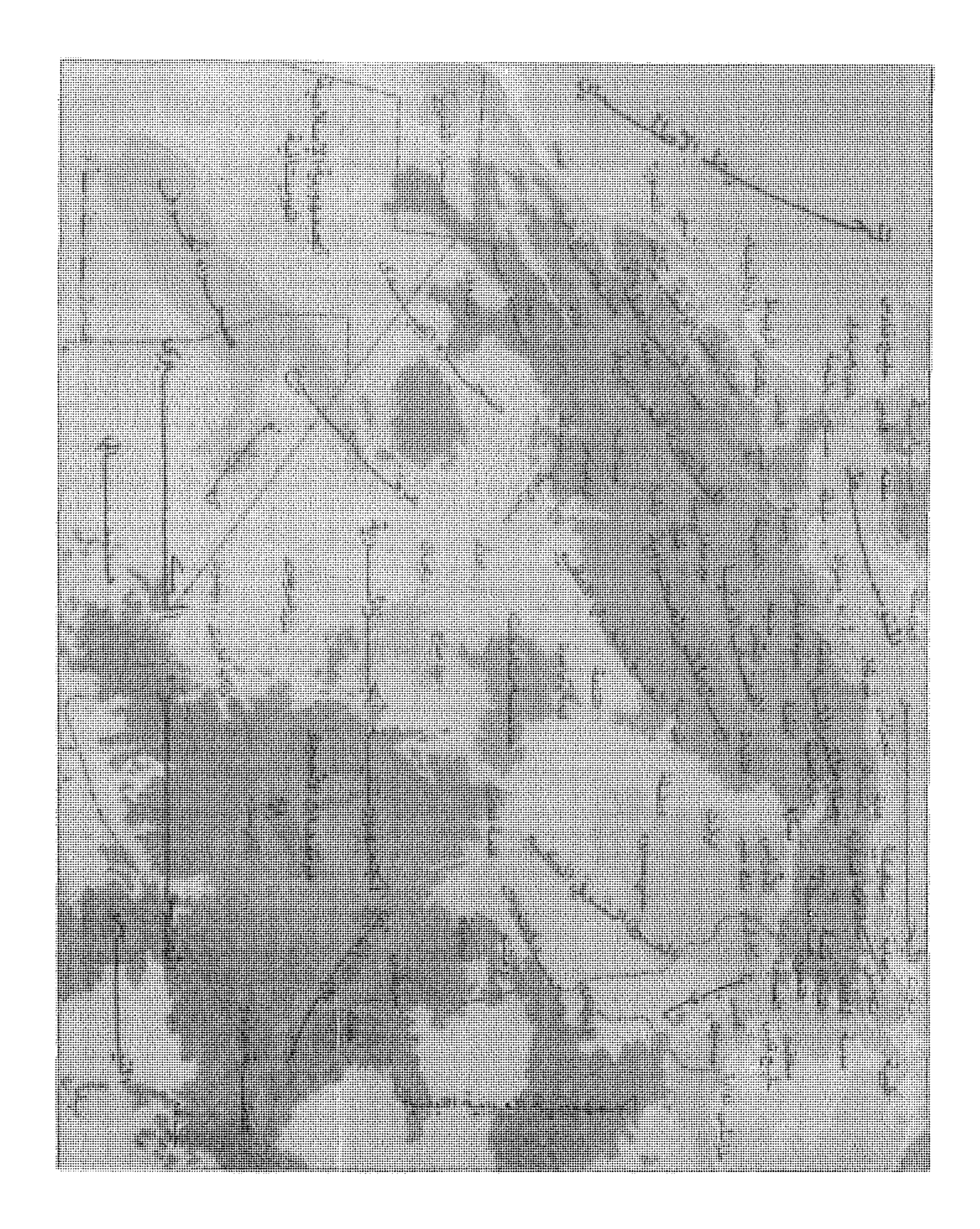
وانتاجها الزراعي والحيواني سيحل محل النفط الناضب، بمعنىٰ ان ثروة زراعية ستحل محل الثروة النفطية الناضبة.

لقد زود الله بلاد العرب بالأنهار العظيمة ولكن معظم مياهها تذهب هدراً إلى البحر ومنها: مياه دجلة والفرات والعاصي والنهر الكبير والليطاني والنيل وغير ذلك على طول امتداد البلاد العربية كلها.

لو حُوِّلت مياه دجلة والفرات إلى شمالي صحراء شبه الجزيرة العربية لخلقت أراضٍ زراعية كافية لتغيير وجه الأرض. وَلو طبقت نفس الفكرة على سائر الأنهار العربية، لأنقذنا مساحاتٍ واسعة من الأراضي الصحراوية والبور والبعلية... ولغيَّرنا وجه الحياة في العالم العربي، ولأصبح لنا حضارة قيمة قائمة على أسس وقواعد ثابتة، أليس من العار ان نستورد القمح والحبوب من الغرب ومياهنا تذهب هدراً في البحار..

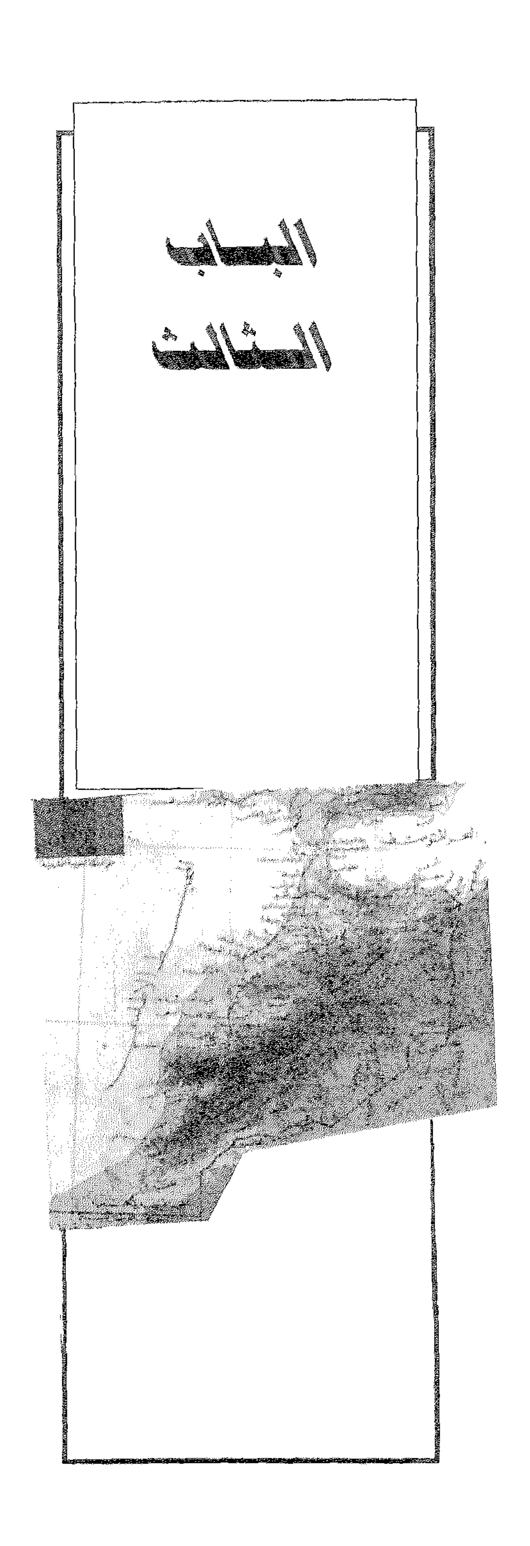


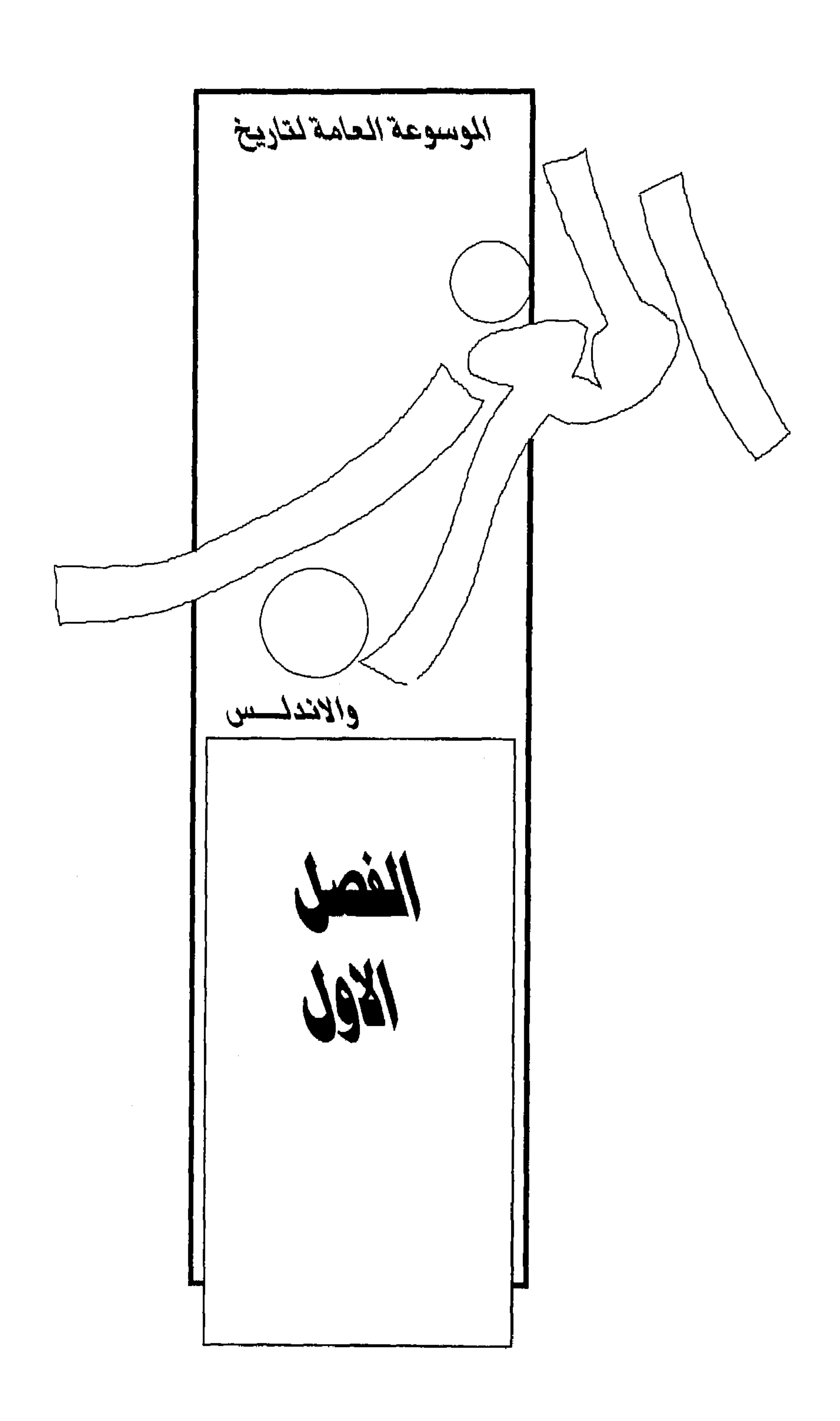
الطوارق
كانوا في فترة من التاريخ
أسياد الصحراء



المغرب العربي الكبير وموقع الصحراء الكبرى فيه

الباب الثالث





الفصل الاول

الدولة العلوية
أسرة الشرفاء

الحسن الداخل بن القائم

يعتبر الشرفاء العلويون الذين انتقلت إليهم خلافة المغرب أبناء عمومة للأدارسة والسعديين الذين سبقوهم في حكم المغرب لأن الأسرة العلوية الجديدة هي من أحفاد الحسن بن القائم وهو من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب.

وقد لُقب الحسن بن القائم، بالحسن الداخل لأنه دخل المغرب بدعوة الحجاج المغاربة الذين توسموا فيه الصلاح والتقوىٰ، والايمان الصادق والسمت المهيب والطلعة المشرقة والعبادة والتهجد. فاستمالوه إليهم. وتحببوا إليه، ورجوه العودة معهم إلى المغرب بلادهم ليقيم بينهم لتزداد بلادهم بركة بحضوره ووجوده، وليزدادوا إيماناً على ايمانهم بعدما انتشرت البدع في المغرب وعمته المذاهب والنحل، ومشايخ الزوايا وطبقت أرجاءه الاجتهادات والاقتباسات لدرجة اختلطت معها الأمور في أذهانهم، لذلك

أصبحوا بأمس الحاجة إلى إمام من أحفاد الحسن بن فاطمة بنت الرسول محمد (ص)، لكي يبصرهم بأمور دينهم ودنياهم ويرشدهم إلى طريق الهدىٰ والصلاح.

وأقام الإمام الحسن في سجلماسة التي شهدت انقلابات كثيرة، وحكاماً ينتمون إلى أنظمة مختلفة، واتسمت حياته بالورع والتقوىٰ، فأحبه السكان وبجّلته القبائل المغربية، وتوارث أبناؤه وأحفاده بعده ذلك الحب والتبجيل، وأفعموا قلوبهم بحب وطنهم المغرب حامل الدعوة ورائدها وناشرها في كثير من البلاد.

وبلغ من حب الأحفاد لوطنهم المغرب ان المولىٰ علي الشريف أحد أحفاد الحسن القائم اشترك بحملة «السودان القديم» خلال عهد «المنصور الذهبي» وهي الحملة التي فاضت على المغرب بالذهب والخير العميم.

وكان أبو حسون السملالي الخارج على دولة السعديين، قد فرض سلطته على سجلماسة وبلاد السوس وتمادىٰ في غيِّه وغطرسته عندما زجّ بالشريف بن علي في السجن بسبب ولائه للشرعية الممثلة بدولة السعديين. ولم يرع له حرمة ولا مهابة كما لم يقدر نسبه وقرابته من الرسول الأعظم (ص).

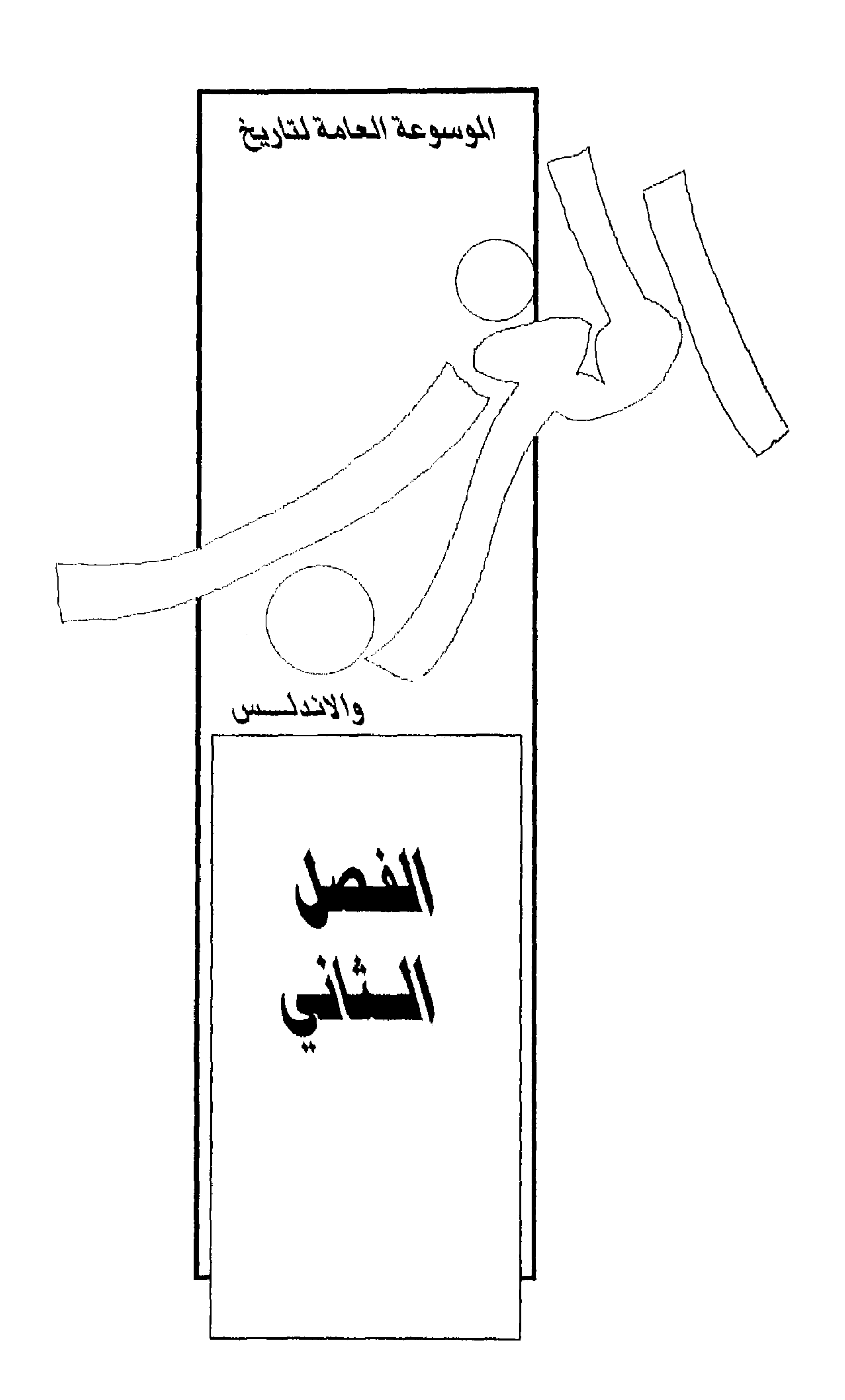
وأنّى لأبي حسون السملالي ان يدرك بأن خطأه الجسيم الذي ارتكبه سيكون الشرارة الأولىٰ التي ستندلع منها ثورة الشريف محمد نجل الشريف بن علي الذي زجه في السجن انتصاراً لأبيه السجين ظلماً وعدواناً من جهة واستجابة لموجة شعبية ساخطة على الفوضىٰ الضاربة أطنابها في جميع أراضي المغرب من جهة ثانية.

فالمغرب كان في تلك الفترة من منتصف القرن السابع عشر الميلادي

يعيش تلك الفوضىٰ الهائلة بسبب قيام امارات عديدة طامحة إلى اقتطاع أجزاء من المغرب ووضعها تحت سلطتها، فكان ثمة زوايا الدلائين الصنهاجيين الذين يحاولون بشقّ النفس استرداد حكم المرابطين القدماء الذي عفا عليه الزمن، ولكن طموحاتهم ما زالت حية تعمل في السر والعلن انطلاقاً من تلك الزوايا.

وكان أبو حسون الجزولي في الجنوب، وكانت حكومات صغيرة تعلن استقلالها في بعض المدن مثل مدينتي سلا وتطوان.

يضاف إلى ذلك ثورة العياشي وخليفته غيلان في الشمال وتحركات مشايخ القبائل الهلالية مثل الشبَّانات في مراكش وتفيلالت. وهكذا كان على محمد بن الشريف ان يشق طريقه بحذر شديد في وسط تلك الفوضىٰ المفتعلة من القبائل والمشايخ والأسر والزوايا.



الفصل الثاني

الشريف محمد الأول بن علي

وكان الشريف محمد الأول بن علي ١٦٣٥ ـ ١٦٥٩ أول ما حظي بتأييد سكان سجلماسة الذين تربىٰ وترعرع بين ظهرانيهم، فجمع منهم قوة عكسرية لمناوأة أبي حسون، فاضطرا هذا إلى اطلاق سراح الشريف بن علي لقاء فدية مالية.

وكان الشريف محمد قد بايعه سكان سجلماسة وما حولها، على تحرير أراضي المغرب من الخارجين على النظام، لذلك كان لا بد له من تشكيل جيش كبير قادر على تحقيق تحرير المغرب، ولكن إمكانات الشريف المادية جعلته يكتفي بتأليف جيش صغير، ولكنه معزز بقوة من الفرسان، فزحف على فاس ثم على مراكش فاحتلهما، ولكن الدلائيين ورثة المرابطين تصدوا له فاضطر إلى مهادنتهم لأنهم كانوا أقوىٰ منه، فاتفق معهم على أن يستولي على الأراضي المحاذية للصحراء إلى جبل عياش، وما كان إلى ناحية الغرب من المغرب يكون للدلائيين.

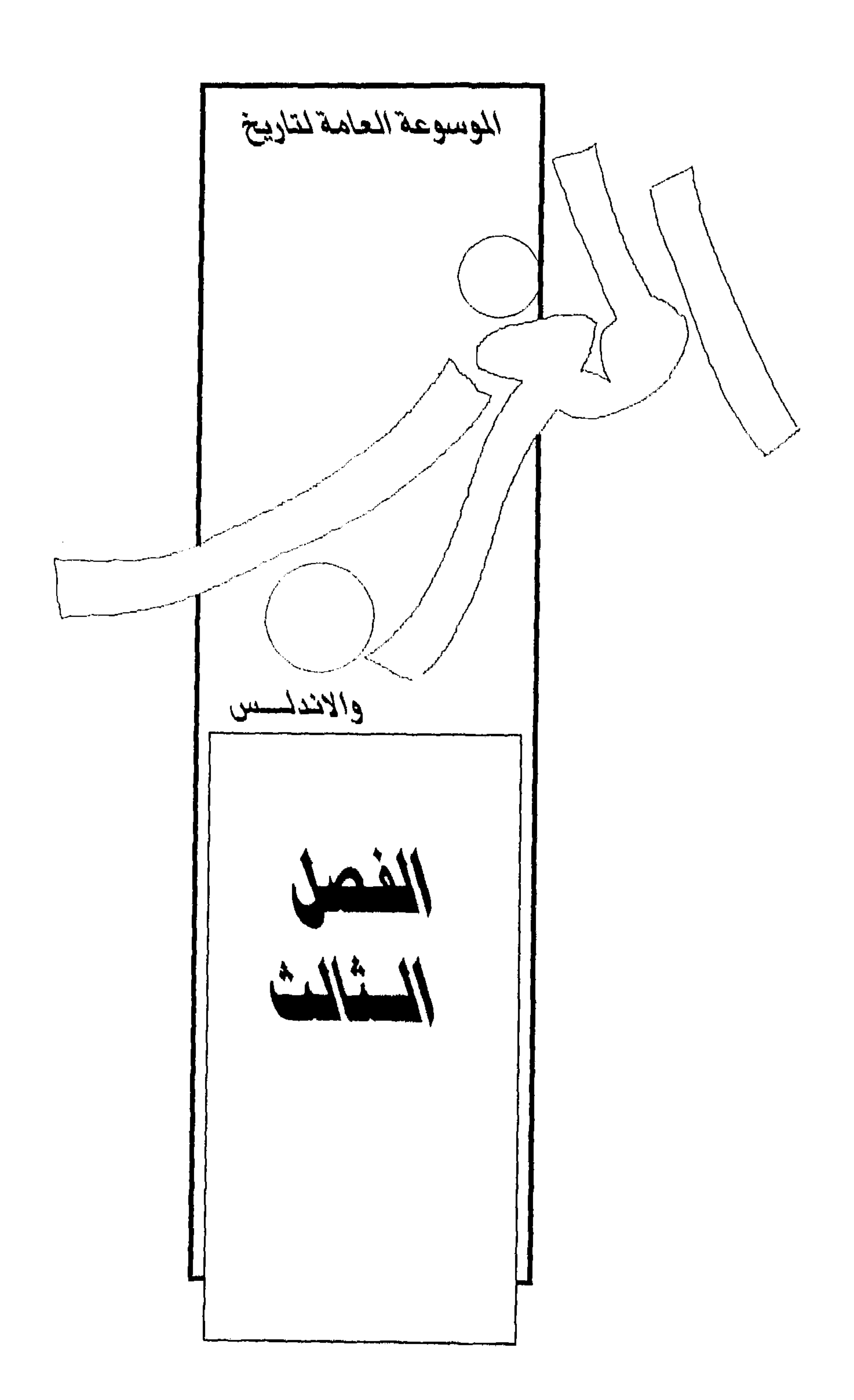
وبعد ان تم الإتفاق وعقدت المصالحة مع الدلائيين توجه إلى مدينة

تلمسان لاحتلالها وكانت في أيدي العثمانيين فراح يشن عليهم الغارة تلو الأُخرىٰ، ولكن غاراته لم تحقق له الهدف المنشود فاكتفى بعقد اتفاق معهم يجعل وادي «تافتا» حداً فاصلاً بينهما.

وبهذا الاتفاق استطاع ان يمد حملته نحو الصحراء ويصل إلى الاغواط وعين ماضي.. وفجأة علم بأن أخوه الرشيد بن الشريف بن علي قد ثار عليه.



المولى الرشيد بن محمد



الفصل الثالث

الرشيد بن الشريف بن علي
١٦٦٦ ـ ١٦٧١م

قيل عن أسباب ثورة الرشيد، ان الشريف محمد الأول لم يستطع ان يحقق البرنامج الذي بايعه السكان على أساسه، والذي ينص على توحيد المغرب ووضع حد للانقسامات الجارية والقضاء على الدويلات الإنفصالية القائمة وقد اعتبر الرشيد مصالحة أخيه محمد للدلائيين ضعفاً ظاهراً للعيان، لذلك تحارب الاخوان وخاضا معركة دامية انتهت بمقتل الشريف محمد، فانضم جيشه إلى جيش الرشيد. وكان هذا أول إنشقاق في الأسرة العلوية.

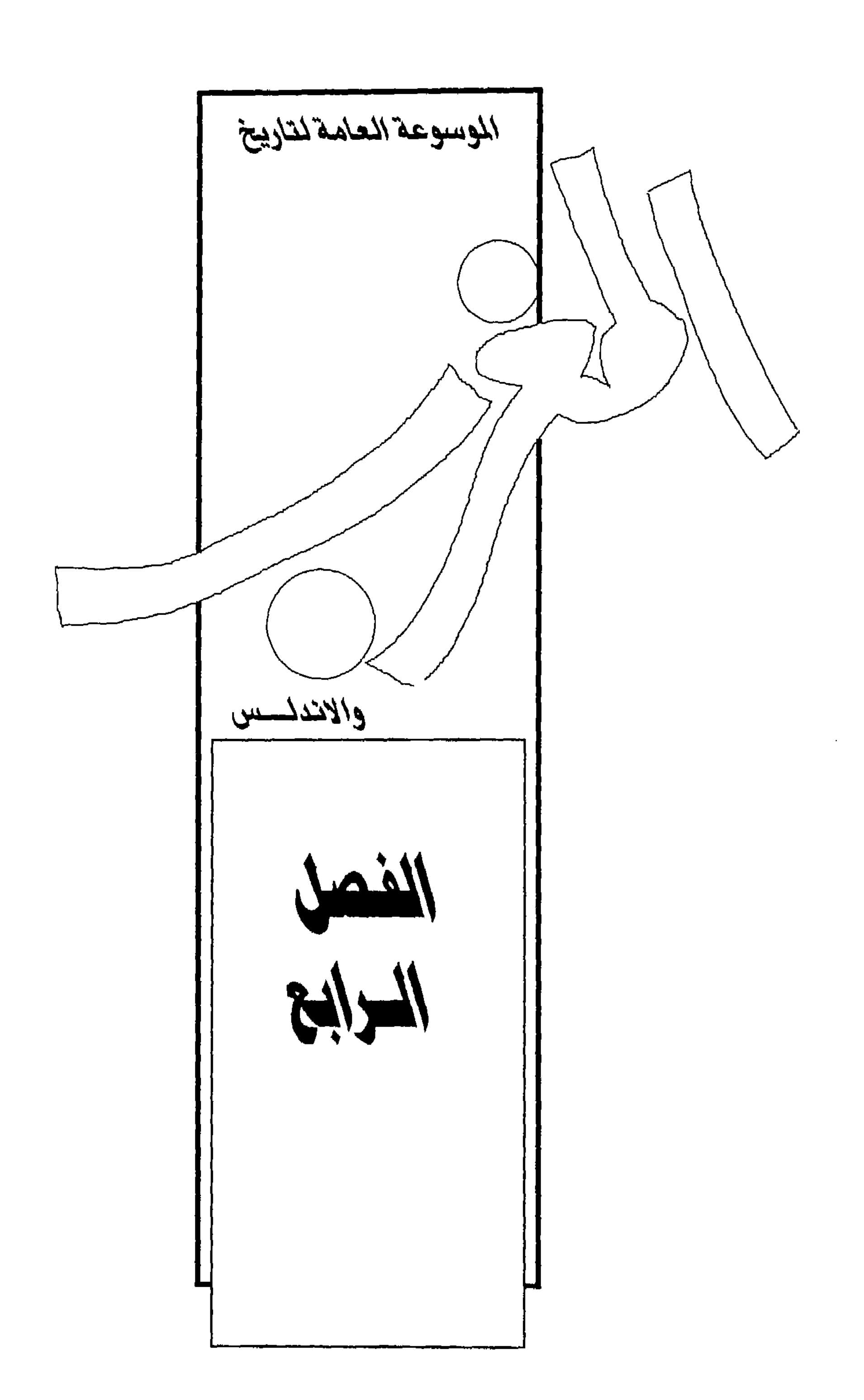
أما كيف يقتتل الاخوان ويقتل الأخ الغالب أخاه المغلوب وكلاهما من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب. فأنه لأمر يثير الكثير من علامات التساؤل والاستفهام عدا عن أنه ترك حزناً بالغاً وامتعاضاً بين صفحات التاريخ.

في هذه الأثناء كانت مقاومة الخارجين سابقاً على حكومة السعديين

قد بدأت بالانهيار خصوصاً الدلائيين في سلا، وغيلان في فاس، وذلك بسبب تقلص تجارة السكر وغيرها من المواد التي كانت تستوردها بريطانيا وهو لندة بعد ان انصرفت الدولتان إلى استيراد السكر من البرازيل.

ولما كان لا بد للشريف الرشيد من تنظيم موارده المالية لمجابهة كل الاحتمالات لتحقيق طموحاته التي قتل من أجلها أخاه محمداً لذلك كله نراه يتجه بأنظاره نحو فرنسا التي كانت ـ كما يبدو ـ تأمل بأن تحل محل بريطانيا وهو لندة، بعقد اتفاقية تجارية مع المغرب، لأنها الدولة الأقرب إلى المياه المغربية بعد اسبانيا، ولأن الرشيد وضع في حسبانه ان التجارة مع فرنسا ستكون خاضعة لمراقبته الشديدة. ويتضح من ذلك ان فرنسا كانت تطمح بأفكارها إلى أبعد من عقد اتفاقية تجارية.

فاتخذ الرشيد مدينة «تازا» قاعدة لعملياته الحربية، ولما توسعت العمليات اتخذ «فاس» ومنها انقض على الدلائيين فهزمهم هزيمة ساحقة وقضىٰ على زاويتهم قضاءً مبرماً، حتى لا يعودوا إلى الانتفاض والثورة من جديد. ثم وجه اهتمامه إلى تدمير الإمارات الداخلية التي كانت تتقاسم سيادة المغرب ومنها إمارة أبي حسون في بلاد السوس وامارات الشبّانات الهلالية في مراكش، والامارات المستقلة في الشمال، وهكذا تمكن من إعادة وحدة المغرب الأقصىٰ، وراح يستعد بتعزيزه قوة الجيش لتحرير الموانىء المغربية المحتلَّة من قبل الأسبان والبرتغاليين. ولكنه قتل عام ١٦٧١، وهو يقوم بترويض جواده إذ اندفع به الجواد الجامح بين أشجار بستانه فاصطدم رأس الرشيد بغصن شجرة كبيرة أدىٰ إلى مصرعه، ولكنه والحق يقال كان قد نجح في توحيد المغرب الأقصىٰ وقضىٰ على الانقسامات والتجزئة.



الفصل الـرابع

الشريف إسماعيل الكبير المظفر بالله

١٦٧٢ ـ ١٧٢٧

تولىٰ الحكم بعد الشريف رشيد الشريف إسماعيل أخوه الثالث من أبناء الشريف بن علي ـ وقد طالت مدة حكمه أكثر من نصف قرن ولقب باسم المظفر بالله وكان معاصراً للويس الرابع عشر ملك فرنسا «ولقب بأبي النصر أيضاً».

سطع نجم مولاي إسماعيل في المغرب، وازداد تألقاً وسطوعاً بالانجازات التي أتمها بعد ان استفاد من النتائج التي حصل عليها أخوه الشريف محمد. ولكنه جابه جملة من المشاكل العالقة منها مشكلة تشكيل جيش جديد خاضع لسلطته المباشرة، ففرض نظام الضرائب الباهظة، وفي الوقت نفسه استبقىٰ الوحدات الهلالية في الجيش كما فعل المرينيون من قبل.

وبعد أن بايعته مكناس ـ وكان عمره ٢٦ سنة ـ اقتدت بها سائر المدن والحواضر الأُخرىٰ إلا مدينة مراكش، لأن ابن أخيه أحمد أعتصم بها،

وحرضها على العصيان طمعاً بالسلطان.

فسير إسماعيل حملة عسكرية إلى مراكش جعلت ابن أخيه يفر هارباً إلى قبائل السوس مخلياً مدينة مراكش لعمه السلطان إسماعيل، ولما تمردّت فاس واستنجد أهلها بابن أخيه أحمد، عدل عن مهاجمة الواحات الصحراوية وانطلق من مراكش لمنازلة أحمد ابن أخيه في «تازا» ومنها انتقل إلى «غيلان» ليقمع الثورة في الشمال. ثم عاد إلى فاس منتصراً فبايعته على الفور، وهكذا قضىٰ ١٥ سنة من مطلع حكمه في قمع الثورات والانتفاضات. ثم مد نطاق أعمال التحرير إلى أقصىٰ الجنوب وأبعد مما وصلت إليه فتوح المنصور الذهبي.

وبعد ان استتب الأمن وانتظمت أحوال السكان المواطنين واستقر الاقتصاد على قواعد ثابتة، شاع في البلاد الأمن والرخاء والعمران إلى حد جعل المؤرخ الناصري يقول:

«في هذا العصر استقامت الأمور، وسكنت الرعية، وهدأت البلاد واشتغل السلطان ببناء قصوره في مكناس وغيرها وغرس بساتينه وأصبحت البلاد في أمن وعافية حتى ان المرأة أو الذّميّ. صار يخرج أحدهما من وجدة إلى وادي نول، فلا يجد من يسأله إلى أين؟ ورافق ذلك رخاء مفرط، إذ لم تعد للقمح قيمة ولا للماشية لكثرة الانتاج وراح العمال يجبون الأموال. والسكان يدفعون بلا كلفة. حتى صار المغاربة كفلاحي مصر يعملون ويدفعون في كل جمعة أو شهر أو سنة ولم يبق سارق ولا قاطع طريق»[1] .

وقد اختلف المؤرخون في عصره وبعد عصره في وصف سجاياه ومزاياه وفيما كان المؤرخون العرب يجمعون على مدحه والتغني بمآثره راح

---

(١) راجع كتاب الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصىٰ للناصري.

المؤرخون الأوروبيون يكيلون له النعوت الحاقدة فوصفوه بالظلم والقسوة، مستندين إلى روايات قصها الأسرىٰ من الأفرنج والموتورين، أو من حكايات تناقلها السفراء نقلاً عن الأسرىٰ الافرنج، أو الموتورين من العرب والبربر هذا مع العلم بأن الأسرىٰ الافرنج في المغرب كانت حياتهم أحسن كثيراً من حياة الأسرىٰ المسلمين في أوروبا حيث كانوا يعاملون كمخلوقات أقل مستوىٰ من الحيوانات.

ولكن المؤرخين من الطرفين أجمعوا على ان السلطان إسماعيل كان مهيباً يفرض هيبته على كل من رآه أو تحدث إليه، وكان شجاعاً. لا يهاب الموت، وذكياً بيّن الذكاء وفطناً لا تنطلي عليه مكائد الغربيين وأحابيلهم.

ونجح في اجتثاث شَأْفة العصيان في الأطلس الأوسط وجرده من أسلحته وجمع من سكانه ٣٠ ألف بندقية و ١٠ آلاف جواد.

وقد انتقده المؤرخون الأوروبيون لأنه لم يتمكن من وضع سياسة اجتماعية واقتصادية ثابتة. ونحن نسألهم بدورنا هل كان في فرنسا سياسة إجتماعية على عهد لويس الرابع عشر، أو لويس الخامس عشر وهو القائل قبل وفاته «من بعدي الطوفان» أي الثورة الفرنسية التي قضت على نظام الاقطاع والنبلاء والتجار المحتكرين.

ثم نسألهم بدورنا: «هل كان في بريطانية سياسة اجتماعية خلال حكم اليزابيت الأولىٰ ونبلائها وقراصنتها أوْ حكم من جاء بعدها من ملوك بريطانية؟..

ونكتفي بهذا القدر لأن المؤرخين الأوربيين في أواخر القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين راحوا يكتبون عن المغرب، وكأنه البلد الوحيد في العالم الذي كان لا يتمتع بنظام اجتماعي أو اقتصادي. أو ضريبي.. في

حين كان ملوك فرنسا وبريطانيا يفرضون الضرائب الباهظة على شعوبهم دون ان يقدموا المساعدات المالية، والاصلاحات الزراعية لتمكنهم من دفع الضرائب. وعندما كان أبناء الشعب يعجزون عن دفع الضرائب كان يزج بهم في السجن بعد مصادرة أملاكهم، أو يرسلون إلى امريكا والمستعمرات البريطانية للعمل فيها كعبيد بعد ان أسقط القضاء في بريطانيا وفرنسا عنهم حقوقهم المدنية المشروعة.

ويؤخذ على السلطان إسماعيل انه استكثر من عناصر السود «الزنوج» الذين ألحقهم بالجيش لدرجة انه جعل للسود نظاماً خاصاً، فكان يربي أولاد وبنات الزنوج منذ نعومة أظفارهم حتى إذا شب الذكور الحقهم بالجيش وقد تمرنوا واعتادوا على حب السلطان وطاعته. أما الأناث فكان يلحقهن بالخدمة في المنازل بعد ان يكنَّ قد تعلمن كل فنون التدبير المنزلي لتكون المرأة منهن مهيأة للحياة الزوجية وهكذا كان يزوج الأناث المدربات بالجنود السود من أبناء جلدتهن، لتنشأ العائلة كلها على الطاعة والولاء للسلطان بعد ان يكونوا قد تربوا في رعايته ونعمته.

والحقيقة ان ما كان يسمى بمآخذ في ذلك العصر، كان ينبغي ان يسمىٰ حسنات أما قصة طغيان عناصر السود على العرب والبربر في الجيش فان منشأ هذا الطغيان يعود إلى أبناء السلطان إسماعيل الذين ثاروا وتمردوا وأفسدوا كل مكرمة ومأثرة صنعها والدهم في حياته.

من مآثر السلطان إسماعيل

كان السلطان إسماعيل قد جمع السود الذين جاء بهم المنصور الذهبي من السودان القديم أو من أفريقية الغربية، وجندهم جميعاً على الشكل الذي أوردنا وصفه، وألحق بهم السود الذين استقدمهم من موريتانيا التي كانت

جزءاً لا يتجزأ من الأراضي المغربية.

واهتم السلطان إسماعيل بتزويد جيشه بأسلحة العصر كالمدافع التي تُحشىٰ حشواً بالبارود ومثلها البنادق والمنجنيقات وسائر أدوات الحصار، أما المتطوِّعون من الأجانب فقد أوكل إليهم سلاح المدفعية والهندسة كما كان الحال في عهد المرينيين والسعديين ـ أي أنه ارتكب نفس الأخطاء ـ.

وأقام السلطان إسماعيل ولأول مرة نظام الشرطة في المدن والحاميات العسكرية في النقاط الحساسة في داخل البلاد وعلى أطرافها. وبعد ان دان له الحكم، واستتب الأمن في البلاد التفت إلى المحتلين الأجانب لمرافىء المغرب الحيوية، فحرر مدينة المعمورة «المهدية حالياً» وحلق الوادي عام ١٦٨١ من الاسبان. وكانوا قد احتلوها سنة ١٦١٠، وحرر مدينة العرائش عام ١٦٨٩، ومدينة أصيلا عام ١٦٩١، واسترجع طنجة من الانجليز عام ١٦٨٤ وكان الانجليز قد استلموها من البرتغاليين عام ١٦٦١ قبل ان يتولىٰ أخوه الشريف رشيد الحكم. عندما تزوج شارل الثاني ملك بريطانيا الأميرة كاترين البرتغالية، فكانت طنجة بمثابة صداق لهذا الزواج تقدم به العرش البرتغالي إلى العرش البريطاني.

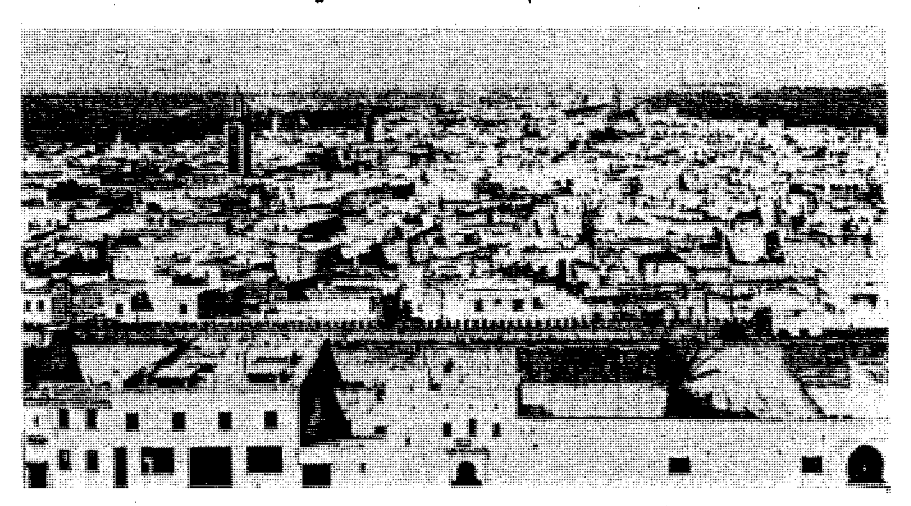
وقد تم تحرير هذه المدن الشاطِئِيَّة خصوصاً المعمورة ـ بالقتال الضاري وأُسر العديد من الاسبان، ثم حاصر العرائش بضعة أشهر إلى أن فتح ثغرات في أسوارها فانقض عليها جنوده الأبطال وأسروا منها ثلاثة آلاف جندي اسباني ساقهم السلطان إلى مكناس ليبنوا قصر الرياض، كذلك أصيلا لم تحرر إلا بعد حصار دام سنة، والانجليز لم يجلوا عن طنجة إلا بعد حصار طويل.

أما الموانىء التي لم يحررها السلطان إسماعيل من أيدي البرتغاليين

فهي سبتة ومليلة والحسيمة وبادس والجديدة وكان الحصار عليها مفروضاً منذ زمن بعيد ولكن السطان اضطر إلى رفع الحصار لقمع بعض الانتفاضات وأعمال الشغب والتمرد في البلاد وذلك عندما ثار أحمد الدلائي عام ١٦٧٧ بمساعدة عثمانيي الجزائر.

مكناس في عهد السلطان إسماعيل

وقد آثر السلطان إسماعيل مدينة مكناس على فاس ومراكش العاصمتين القديمتين وقرر ان يجعل منها «فرساي» المغرب، فشيد فيها القصور والمدارس والمساجد. وأقام فيها حصناً تعلوه أبراج مزودة بالمدافع والمهاريس. وشق في المدينة بحيرة تمخر فيها الزوارق، وجمّل المدينة الحدائق الغناء، أما قصره الخاص فقد جعله تحفة الأنظار، تعلوه أربعون قبة وأحاطه بحديقة واسعة روىٰ المؤرخ الناصري ان طولها بلغ فرسخاً، وعرضها ميلان، وشق في المدينة شوارع واسعة وجعل لها أبواباً عديدة فخمة ولكن كل هذه الأبنية هدم معظمها أو دمر في عهد ابنه عبد الله. . وانه



منظر عام لمدينة مكناس العاصمة الاسماعيلية

لمن المحزن حقاً ان يأمر السلطان إسماعيل بتدمير «قصر البدائع» الذي بناه المنصور الذهبي من قبل في مراكش وذلك عندما اعتصم بالمدينة أحمد ابن أخيه في أبان حكمه.

وقد جمع السلطان في خزانة قصره «المكتبة» أربعة عشر ألف مجلد قبل وفاته، وبعد وفاته وزع ابنه ذلك التراث العظيم على مكتبات المساجد المغربية.

وكان السلطان إسماعيل محباً للعلم ومجالس الأدب، فمن أجلاله لقضايا الفكر بعث كتاباً إلى الدون كارلوس ملك اسبانيا يطلب منه إرسال ١٠٠ كتاب من ذخائر المكتبة العربية في الأندلس. مقابل عتق كل أسير اسباني وكان عدد الأسرىٰ ١٠٠ أسير فاسترجع خمسة آلاف كتاب باطلاق سراح خمسين اسبانياً. وافتدىٰ الأسرىٰ الخمسين الباقين من الاسبان باطلاق سراح خمسين أسير مغربي.

ومن أعجابه بمجالس العلم والأدب ومرونة العقيدة الدينية ما رواه المؤرخ الفرنسي الكونت دي كاستري في كتابه «مولاي إسماعيل» ان السلطان المذكور كان يستقبل سفراء الدول الأجنبية في بلاطه وفي بعض الأحيان كان يستدعي رجال الدين المسيحيين ليناظرهم مستعملاً في مناظرته إياهم العقل والمنطق.

وعندما شكل الجيش من السود الذين اطلق عليهم اسم (عبيد البخاري) أمر ذات يوم بحشد الجيش من السود أمامه، وطلب إليهم ان يقسموا يمين الولاء والإخلاص على كتاب «صحيح البخاري» وهو مؤلف يحتوي على «الأحاديث النبويَّة» وبلغ عدد الحاميات التي وزع عليها الجنود السود ٧٦ حامية. أمّا العرب المجندون فقد وزعهم على فاس ومكناس

وأرسل المتطوعين للجهاد المقدس على خطوط القتال الشمالية.

على خطىٰ العباسيين

إلا ان السلطان إسماعيل وقع في نفس الخطأ الذي تورط فيه من قبل الخليفة المعتصم العباسي عندما حلّ ديوان الجيش العربي واستبدله بديوان الجند الأتراك الذين جلبهم من بلادهم وسلطهم على سكان بغداد فعاثوا فساداً في المدينة لدرجة أنهم كانوا يسوقون جيادهم خبباً وحِضاراً في شوارعها.

ولما تمادوا في أذيتهم للسكان اشتكوا للمعتصم فأمر ببناء مدينة سامراء ـ على انقاض مدينة «سيميرا» الكنعانية قديماً فعرب العرب اسمها مرتين في الأولىٰ سموها سامراء وفي المرة الثانية سموها «سُرّ من رأىٰ».

وبحل الجيش العربي انفرد الأتراك بالحكم بعد موت المعتصم «٨٣٣ ـ ٨٤٢م» وابنه الواثق «٨٤٢ ـ ٨٤٧م» وبعد وفاته تقلد الحكم ابنه الثاني المتوكل ٨٤٧م ـ الذي قتله «بغا» التركي أحد مماليكه مع ووزيره الفتح بن خاقان.

ومن المعروف ان تدهور الخلافة العباسية بدأ من المتوكل ثم قتل الأتراك معظم الخلفاء العباسيين صبراً. . إلى ان استولت على الحكم أسرة بني بُويه الفارسية وهي من خراسان.

وكذلك تورط السلطان إسماعيل بزواجه وتسرِّيه بعدد كبير من الجواري والنساء الأجنبيات بالإضافة إلى بنات القبائل كما تورط هارون الرشيد الخليفة العباسي من قبل؛ الذي كان من أشهر زوجاته «زبيدة» أم الأمين وهي هاشمية عباسية من أحفاد الخليفة المنصور «ومراجل» الفارسية أم المأمون «ومارية» التركية أم المعتصم «وفاردة» أم صالح [راجع الأغاني لأبي الفرج

الأصبهاني ج١٦ ص١٣٧ والمسعودي ج٨ صفحة ٢٩٩».

وكانت ولاية العهد للمأمون لأنه أكبر سناً وأوسع علماً وثقافة من الأمين، ولكن الأسرة العباسية تدخلت في الأمر بإيعاز من زبيدة أم الأمين فتولىٰ بعده الخلافة ولما حاول ان يعزل أخاه المأمون عن ولاية العهد نشبت الحرب بين الاخوين فتغلب المأمون واحتل جيشه بغداد وقتل الأمين.

وفي عهد المأمون عادت الدولة إلى صبغتها الفارسية، فلما مات وتولىٰ المعتصم ابن التركية أحدث انقلاباً في نظام الدولة فقضىٰ على النفوذ الفارسي وأحل محله النفوذ التركي ومنذ ذلك الحين لم يعد للعرب والقادة العرب والأسرة العباسية كلها أي نفوذ معترف به. إذا استولىٰ الأتراك على مقاليد الحكم فكانوا يخلعون الخليفة ويولون غيره دون أن يكون لأي خليفة عباسي أي سلطة أو نفوذ في الحكم سوى الاسم واللقب والدعاء له في خطب المساجد.

وقد تورط السلطان إسماعيل بكل هذه الأخطاء العباسية الآنفة الذكر عندما أتخذ الزنوج قادة وجنوداً وعندما أنجب عدداً كبيراً من الأبناء نُكبت الدولة المغربية في عهودهم واحداً بعد الآخر.

فالزنوج كانوا مرتبطين بشخصية الحاكم، ما دام يدفع أُجورهم فإذا قصر السلطان عن دفع رواتبهم ثاروا، وقلبوا السلطان وأبدوا استعداداً لخدمة غيره إذاكان قادراً على الدفع.

التوازن السياسي في عهد السلطان إسماعيل

وقد أقام السلطان إسماعيل سياسة متوازنة مع الدول الأوروبية، وعلى الأخص مع بريطانيا وفرنسا وهو لندة ليحصل على مساعدات تساعده على إجلاء القوات الاسبانية والبرتغالية عن المدن المغربية الشاطئيّة.

ومن أجل تحقيق غاياته فكر بعقد صفقة «مصاهرة» مع لويس الرابع عشر، فبعث إليه رسولاً خاصاً ليخطب ابنته الأميرة «دوكين» واشترط ان تقدم له فرنسا المعونات الكافية لتمكنه من طرد الاسبان والبرتغاليين عن شواطئه، ولكن لويس الرابع عشر «المغرور» رفض الطلب مرتين وأجاب قائلاً: «بأن القرصان المغربي لا يحترم الاتفاقات التي يوقعها السلطان» وهو رد فيه الكثير من الوقاحة والتعالي.

فكان هذا الجواب سبباً في وقف المبادلات التجارية بين بلديهما لمدة عامين، وتعطيل التمثيل الديبلوماسي بين بلديهما زهاء أربعين عاماً، وتوقفت بالمثل كل الاتفاقات الرامية إلى تبادل الأسرى بين المغرب وفرنسا، واغتنم الانجليز الفرصة فحلوا محل الفرنسيين، فعاد المغرب إلى تصدير السكر والمنتجات الزراعية الفائضة إلى لندن، مقابل البارود والأسلحة الحديثة والكبريت والآلات الصناعية لصنع الأجواخ وكان المغرب بحاجة ماسة إلى كل هذه المواد الاستراتيجية والصناعيّة.

وكانت الخلافات بين بريطانيا واسبانيا على أشدها إلى حد ان بريطانيا احتلت جبل طارق فاستفاد السلطان إسماعيل من ذلك الاحتلال إلى حد ما. ولكن احتلال جبل طارق كان يعتبر لدى العارفين بخفايا السياسة الدولية في ذلك العصر انه كان يشكل خطراً مباشراً على اسبانيا والمغرب معاً. لأن جبل طارق يعد نقطة ارتكاز لمن يريد السيطرة على المضائق المؤدية إلى اسبانيا أو الهجوم لاحتلال طنجة والبلاد المغربية.

تسامح السلطان إسماعيل

ومع ان المؤرخين الأوروبيين لم يكونوا منصفين بحملاتهم الشعواء على السلطان إسماعيل فانهم أمتدحوا سياسة التسامح الديني التي اتبعها

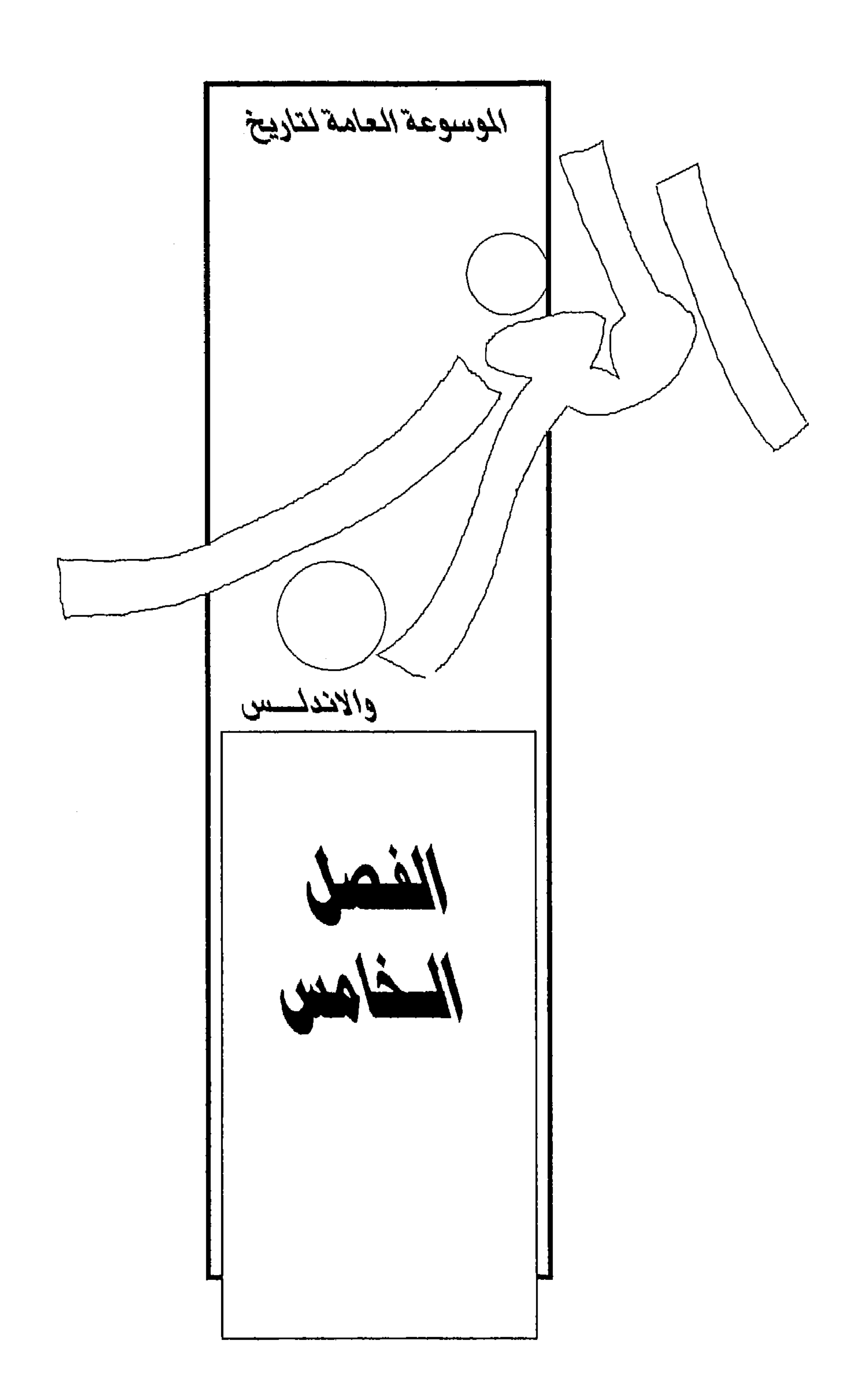
السلطان باطلاق حرية العبادة لغير المسلمين بسماحه لبعثة الرهبان الفرنسسكان الاسبان العناية بأسراهم، كما سمح للمسيحيين ببناء كنائس في مكناس العاصمة، وكان فيها كنيستان للبرتغاليين، ودير في فاس وكنائس أُخرىٰ في سلا وتطوان.

وبالرغم من الأخطاء العديدة التي ارتكبها السلطان بدون تصميم، وربما كان معظمها ناشئاً عن حسن النية، فانه كان رجلاً نبيلاً وسلطاناً قوياً فرض إرادته على أعدائه الأوروبيين وغير الأوروبيين فوقّع معاهدة عدم اعتداء مع الدولة العثمانية «فلا هو يقوم بأي محاولة لاسترداد الجزائر وضمها إلى دولة المغرب الكبير، ولا العثمانيون يعتدون على بلاده أو يساعدون القبائل على التمرد ضد السلطة العلوية.

وعاش السلطان إسماعيل ٧٥ سنة، وفي أواخر أيامه بدأ أبناؤه يثورون عليه، كما ان الجيش الأسود راح يتدخل بسياسة الدولة، مما جعل المغرب يعيش ٣٠ عاماً في فوضىٰ ضاربة الأطناب بعد وفاته كانت السبب في وقف نمو الحضارة المغربية التي تأخرت في حين تقدمت الحضارة الأوروبية، وكانت الحضارتان تسير ان من قبل جنباً إلى جنب كفرسي رهان.



السلطان اسماعيل



الفصل الخامس

السلطان أحمد الذهبي بن إسماعيل

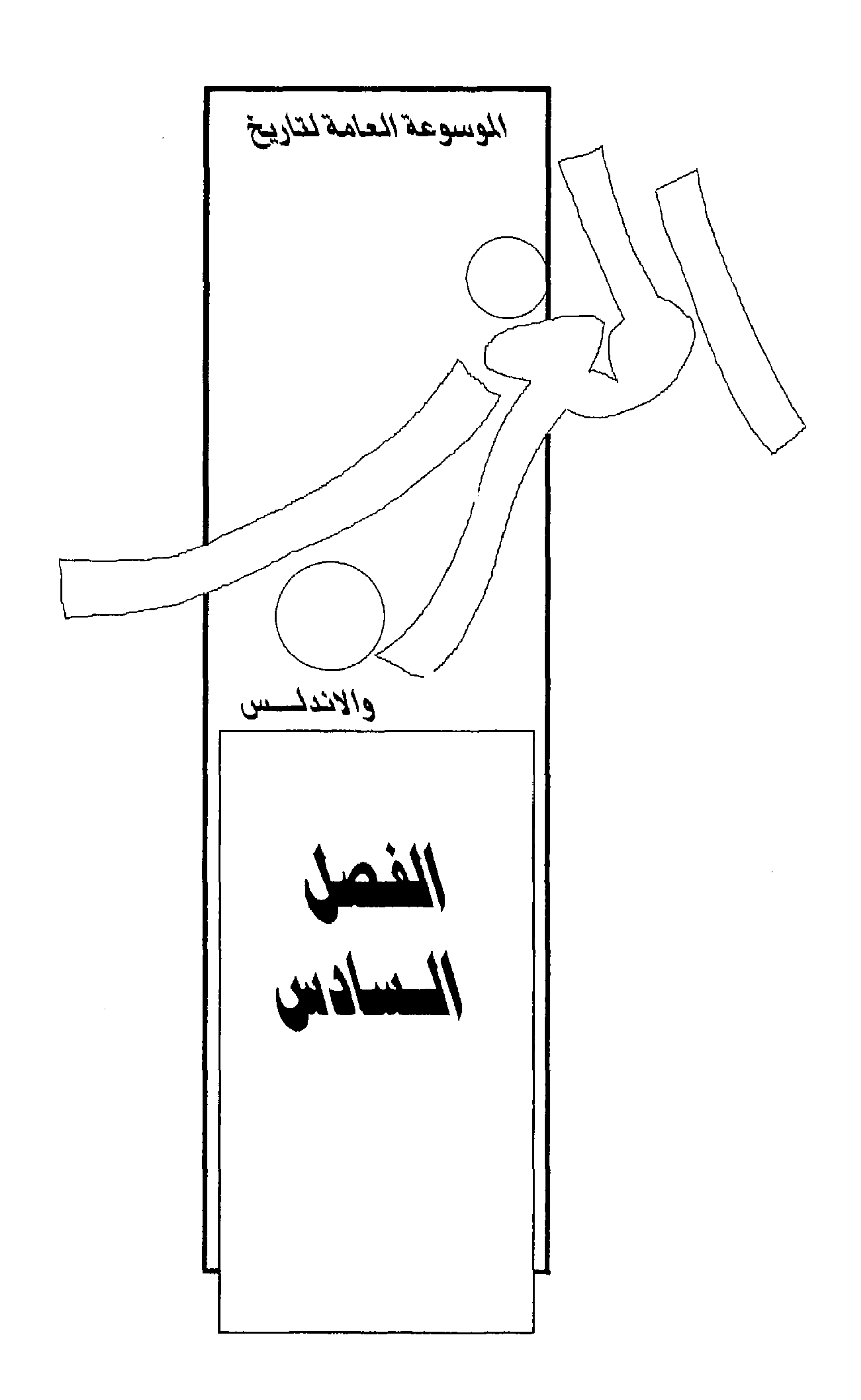
١٧٢٧ ميلادية

كان السلطان إسماعيل أثناء حياته قد عين عدداً من أولاده حكاماً على المقاطعات والمدن البارزة، فقعدبذلك إشرافه الكلي على سولكهم الشخصي، وفي خلال ولايات بعضهم تمادىٰ هذا البعض في الفساد والمجون حتى أنهم ثاروا عليه في أواخر حياته. فعزلهم واحداً بعد الآخر واستبدل بهم حكاماً وولاةً من أهل البلاد والمشهورين منهم بالصلاح والتقوىٰ.

ولما وافاه الأجل، عاد الأبناء إلى التنافس على تولي السلطة. . ويبدو ان الأمر أصبح في أيدي زعماء الجيش من السود. فآزروا ابنه أحمد بعد ان وعدهم ومنَّاهم بإغداق أموال الدولة عليهم. وهكذا بويع أحمد سلطاناً بعد والده وكان ضعيفاً عاجزاً فأجزل العطاء لرجال الدولة الطماعين والقواد السود الجشعين فناصروه حيناً من الزمن إلى ان خلت خزائنه بعد عام واحد من توليه. . وكان أثناء مدة ولايته المحدودة قد لقب بأحمد الذهبي لكثرة ما

أغدق على حاشيته والجيش من أموال الدولة.

ولكن عهده ويا للأسف اتسم بالظلم، والطغيان وفرض الضرائب المجحفة على السكان والقبائل، وانصرف في الوقت نفسه إلى حياته الخاصة الحافلة بالفحش والملذات، وكان كلما أعوزه المال فتك بأمراء الأطلس والريف وحكام الغرب والأسر الغنيَّة البارزة لكي يستولي على أموالها. فلما نضبت الأموال من الخزينه، وعمت الشكوىٰ والتذمر من سوء تصرفه أخذت الحاشية وقواد الجيش يبحثون عن سلطانٍ جديد. لكي يؤمن لهم الرواتب. والهدايا والمنح فاختاروا أخاه السلطان عبد الملك. فأسرعوا إليه وحملوه من ولايته في السوس وعادوا به إلى مكناس، ونصَّبوه سلطاناً، ثم نقلوا السلطان أحمد المخلوع ووضعوه في الاقامة الجبرية في مدينة سجلماسة.

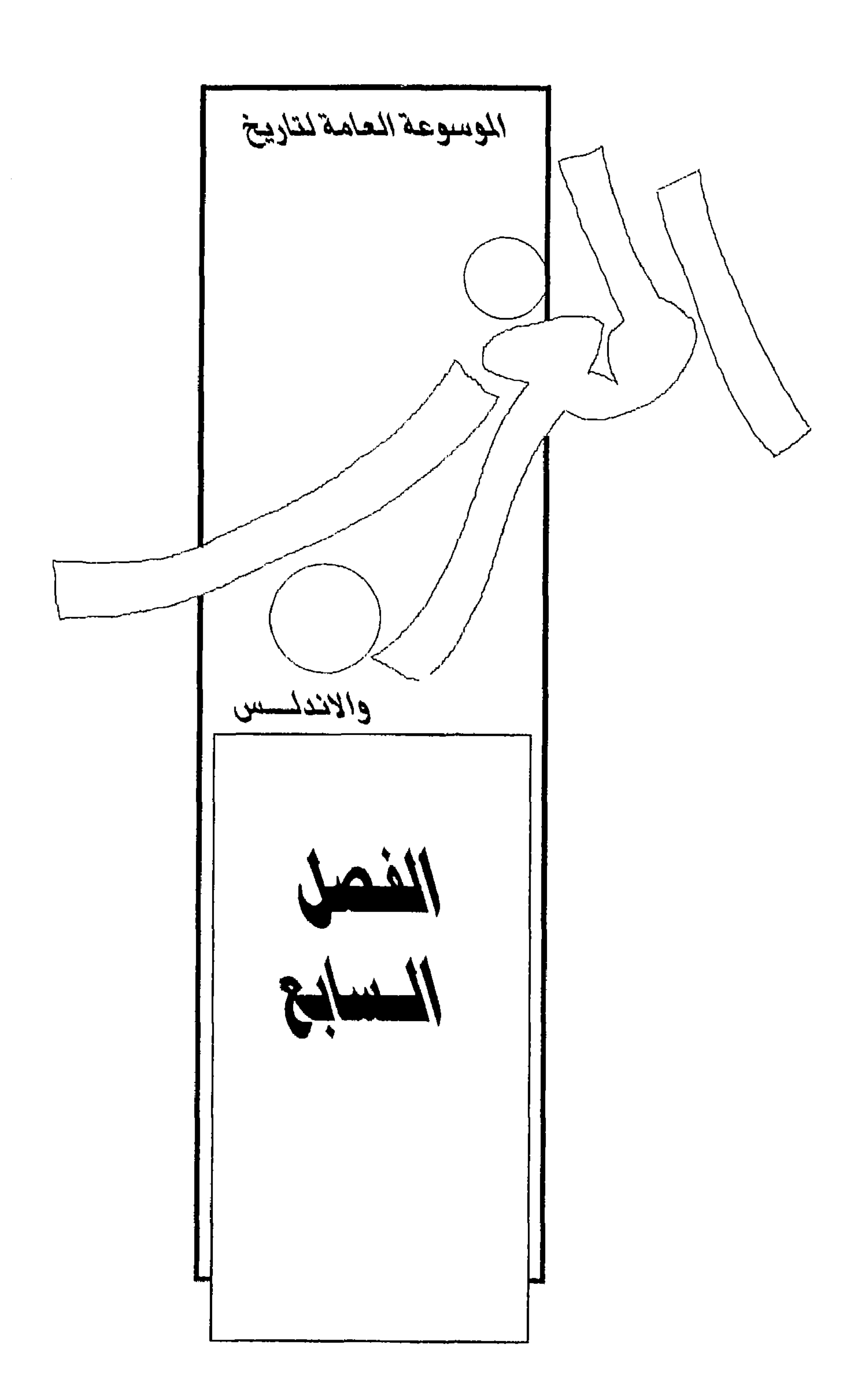

الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل
الســادس

السلطان عبد الملك - أبو مروان

«١٧٢٧»

وسرعان ما اكتشف عبد الملك السلطان الجديد ان خزائن الدولة خاوية والضريبة مدفوعة، والشعب يئن ويشكو من سوء الحكم، وتصرف قادة الجيش الأسود المشين، فاستعان عبد الملك بالبربر لكي يساعدوه على «عبيد البخاري»[١] أي السود في الجيش، فثار السود وقتلوا بعض القادة ممن وقفوا في وجوههم، عندئذ هرب السلطان واستجار بالحرم الأدريسي ولجأ إليه، فاغتنم السلطان المخلوع أحمد الفرصة وعاد من منفاه إلى مكناس وأخذ يوزع الأموال يميناً وشمالاً، فثار سكان مدينة «فاس» وهم المتشربون بالحضارة والمدنيَّة أكثر من غيرهم، وتشبثوا بِبيعة السلطان عبد الملك، فزحف عليهم السلطان أحمد المخلوع، فحاصر مدينة فاس وضربها بالمدافع والمهاريس، فاستسلمت بعد دفاع مجيد دام خمسة أشهر. وانتهىٰ الأمر عند هذا الحد، وبعد بضعة أسابيع عثر على السلطان عبد الملك مخنوقاً في مكناس وبعد ثلاثة أيام مات السلطان المخلوع أحمد الذهبي.

(١) ان كلمة عبد معناها المخلوق المستعبد وليس المخلوق الأسود كما يظن الكثيرون.


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل
الســابع

المولى عبد الله بن إسماعيل

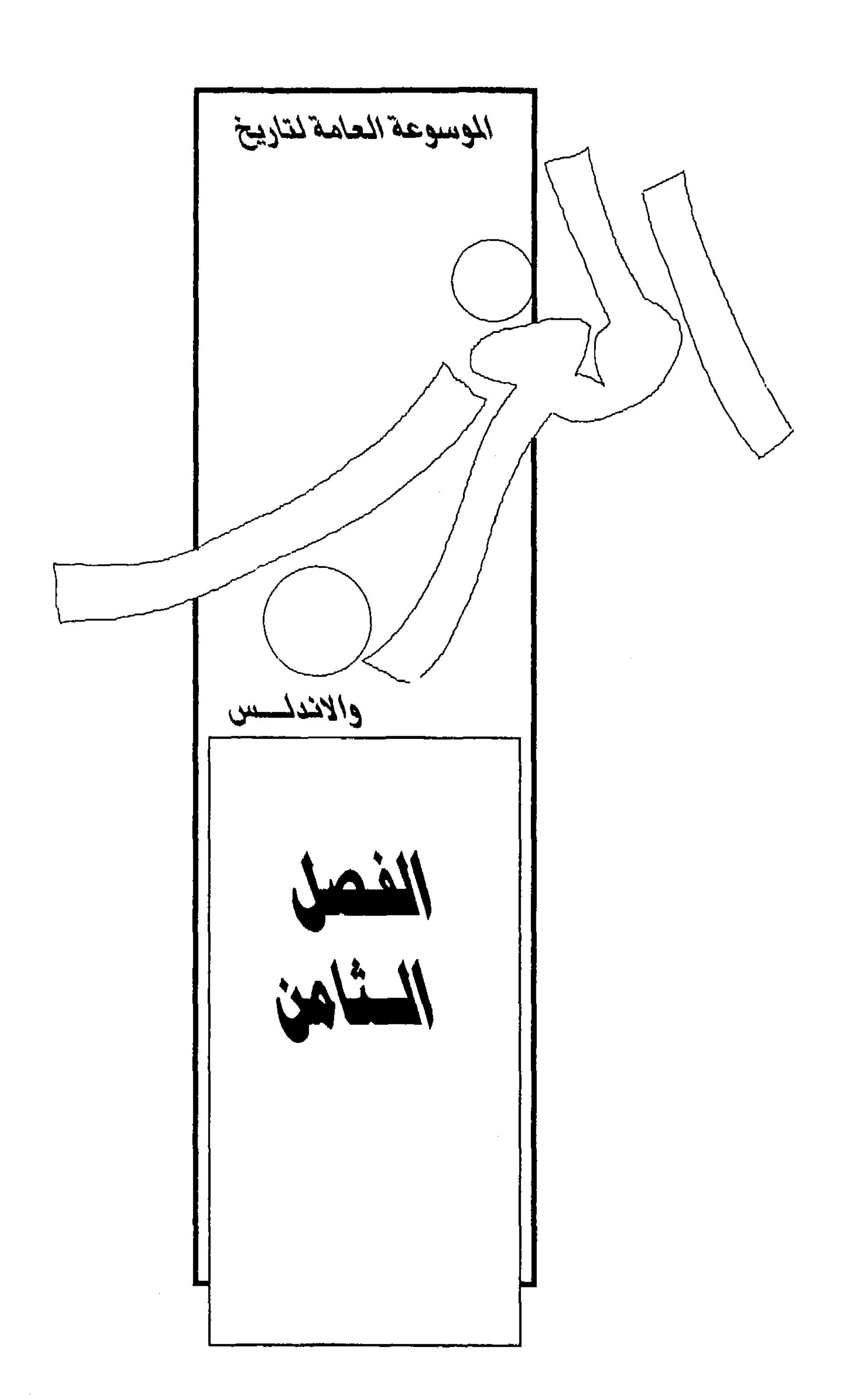
وهكـذا امتـدت حقبـة الفـوضـى مـن عـام ١٧٢٧ إلـى عـام ١٧٥٧ ، وشهـدت فيمـا شهـدت مـن الأحـداث والكـوارث عـزل السلطـان الجـديـد عبد الله خمس مرات .

وكان قد جرىٰ تعيين الأمير عبد الله الابن الثالث للسلطان إسماعيل بالإتفاق والتواطؤ مع حاشية القصر وقواد الجيش الأسود، فبادر من فوره إلى مكافأة الذين ناصروه ومعاقبة الذين أسأوا وتآمروا . . وعبثوا بنظام الدولة، فبطش بالمخربين حتى انه أمر بهدم سور فاس، واستخدم الأسرىٰ في تقويض بعض معالم الرباط قمعاً لفتنتين فيهما، كما انتقم من احدىٰ القبائل لأنها قطعت طرق المواصلات. ثم خاض معركة حامية ضد ثوار البربر الذين ثاروا عليه في جبال الأطلس، ولكن كتائب السود هزمت في هذه المعركة حتى لا تتيح للسلطان عبد الله ان ينتصر، على اعتبار انه بحالة انتصاره سيكتسب قوة جديدة تمكنه من البطش بهم، لذلك انتقم منهم السلطان. فأعدم عشرة آلاف زنجي مرة واحدة، فاشتد تآمرهم عليه وقرروا قتله أو خلعه فهرب منهم واعتصم بحمىٰ أخواله عشائر المغافرة ليستعين بهم

على مواصلة الكافح.

وفي أثناء هذه الاضطرابات ساء الوضع الاقتصادي وهبطت معدلات الانتاج الزراعي والصناعي إلى الحضيض، بعد ان كانت قد ارتفعت إلى القمة في عهد المولىٰ إسماعيل لدرجة ان سكان المغرب عاشوا في ترف وبحبوحة أنستهم الشدائد التي عانوها في عهد الدولة الوطاسية وأواخر العهد السعدي.

وقد دام حكم السلطان عبد الله سبع سنوات قبل هروبه. . ولكن كتائب الزنوج اغتنمت الفرصة لإشاعة أكبر قدر من الفساد في عالم عربي إسلامي متحضر، عاش أولئك الزنوج في وسطه بعقلية متخلفة لا يهمهم من الدولة ـ بقاؤها أو زوالها ولا يعنيهم سوىٰ استمرار الانفاق عليهم وتأمين رواتبهم. فهم والحالة هذه لم يكونوا يشعرون بأدنى شعور بالمواطنية الصادقة، ولا يؤمنون بالرعوية الأمينة على مصالح الدولة التي تنشد البقاء والاستمرار.



الفصل الثامن

السلطان علي الأعرج بن إسماعيل - ١٧٣٤

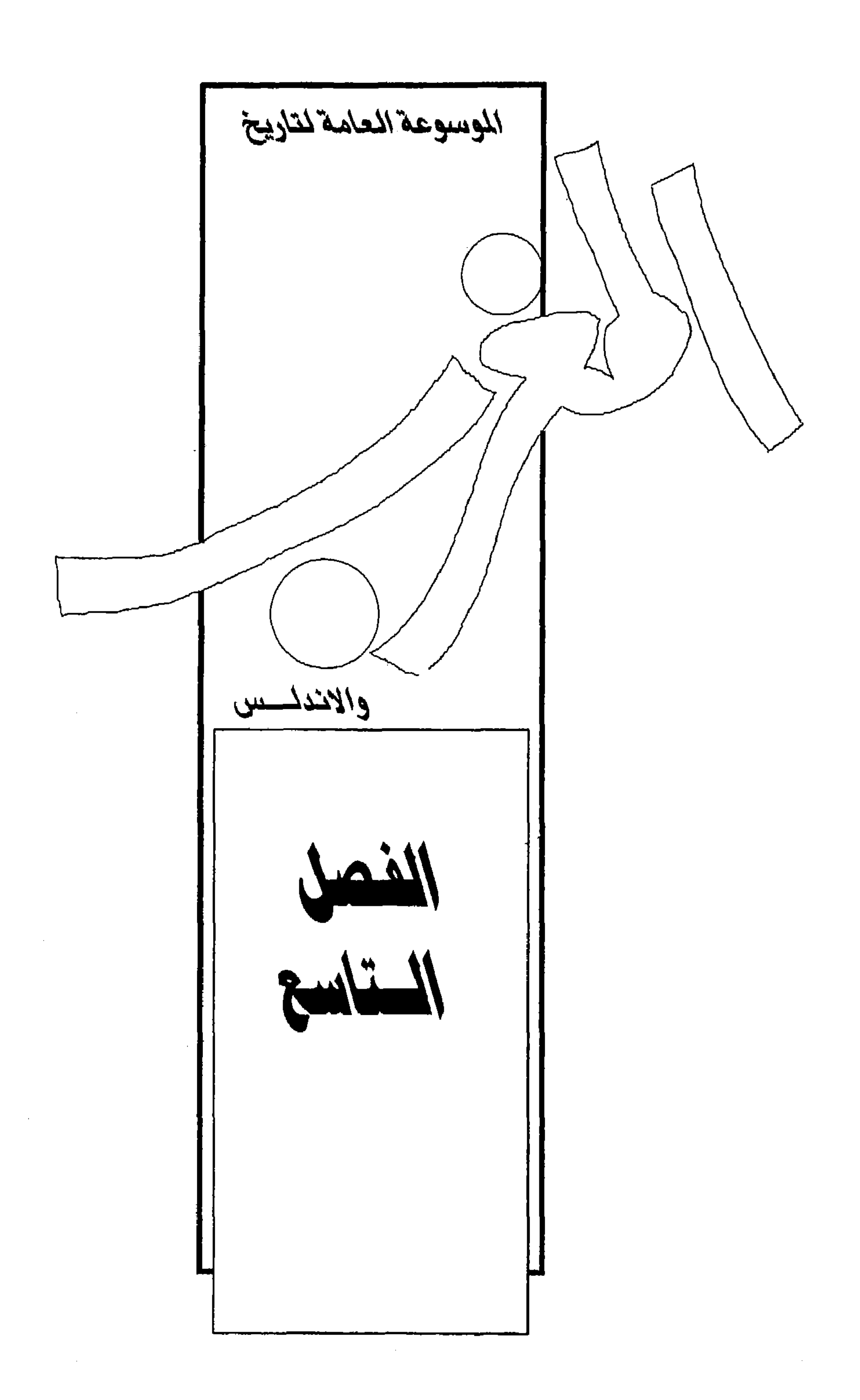
بعد هروب السلطان عبد الله، عمدت كتائب الزنوج إلى تنصيب علي الأعرج الابن الرابع للسلطان إسماعيل سنة ١٧٣٤، فبذل هذا جهوداً خارقة لإعادة النظام والأمن، فألغىٰ الضريبة الجائرة التي فرضت على الشعب، وعاد إلى الضريبة الشرعية. ولكن الاقتصاد كان متدهوراً لقلة الانتاج.. فأصيبت الخزينة بالعجز، ولم يعد بين يديه ما يقدمه للزنوج والأصابع الخلفيَّة التي تحركهم.

ووقع الشعب المغربي بين ناري السلطان وكتائب الزنوج، فاندلعت الثورة في مدينة فاس موئل العلم والحضارة، بعد ان ضاق ذرع السلطان ولم يعد قادراً على تثبيت الأمن ومنع أعمال السلب والنهب، فوجد سكان فاس أنفسهم مع سكان الأطلس ضد جيش المرتزقة، والتهبت الأجواء في الأطلس، فخاض سكانه معركة حامية مع كتائب الزنوج، فانهزموا ووقع السلطان الأعرج أسيراً بأيديهم، ولكن الثوار ذوي النفوس الأبية والشهامة الإسلامية عز عليهم وقوع السلطان الأعرج أسيراً في أيديهم وهو ابن السلطان إسماعيل الذي بسط أياديه البيضاء على المغرب وحرر الكثير من

مدنه وأراضيه، فعاملوه معاملة حسنة لا تخلو من الإجلال والتعظيم ولم يسمحوا له بالعودة فحسب بل أرسلوا معه كتيبة لتشيعه إلى وادي الربيع ليعود من هناك إلى قصره. بينما استمر الثوار في مطاردة الكتائب السوداء.

وبالرغم من عودة السلطان إلى قصره فان عبيد البخاري لم يتركوه وشأنه لكي يصرف أمور الدولة، لينقذهم مما أفسدته أياديهم فعادوا يتآمرون عليه من جديد حتى أرغموه على الهرب فرحل إلى شرقي المغرب.

وفي هذه الأثناء ظهر السلطان السابق عبد الله بن إسماعيل مرة أُخرىٰ في «تادلا» وكان يحمل معه بعض الأموال. وكما هي العادة تسلط عليه السود. حتى ابتلعوا كل ما لديه. ولما ضايقوه هرب من وجههم واختفى.


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الــتاسع

السلطان محمد الثاني بن إسماعيل

بعد ذلك عَيَّنوا سلطاناً جديداً هو محمد الثاني بن إسماعيل وكان يقيم في سجلماسة، فجيء به إلى فاس ونصب سلطاناً عليها. وأيد هذا التنصيب الزنوج على أمل ان يضعوه هو وخزينة الدولة تحت رحمتهم.

وكان السلطان الأسبق عبد الله بن إسماعيل ما يزال لاجئاً لدىٰ قبائل الأطلس، ومن هناك شرع يغير مرة بعد الأُخرىٰ على جيش الزنوج المرابط في فاس مقر السلطان الجديد محمد الثاني المقلب «بابن عربي» وكان هذا يخرج على رأس زنوجه لملاقاة السلطان عبد الله. فلما هزم صاحب الزنج عاد إلى فاس بعد ان قطع رؤوس بعض الأبرياء ليزعم بأنه انتصر في المعركة الأخيرة.

ومرة أُخرىٰ سادت الفوضىٰ وتفاقمت عندما عجز السلطان محمد الثاني عن دفع رواتب الزنوج فخلعوه ونصبوا مكانه المستضيء بن إسماعيل كسلطان جديد سنة ١٧٣٨.

ولما لم يجد هذا السلطان ما يقدمه للزنوج سطا على الإهراءات التي

كان يخزن فيها والده إسماعيل الكبريت وملح البارود، فباعها ودفع رواتب الجنود، ولكنهم عادوا وثاروا مرة أُخرىٰ فباع الحديد الموجود في الاهراءات وسك نحاس المدافع عملات نحاسية، ولما نفدت العملة النحاسية، هاجم السود مدينة فاس وامعنوا فيها سلباً ونهباً، ثم هاجموا مدينة تطوان وفعلوا فيها مثل ما فعلوا في فاس، ومن ذلك التاريخ لم تعد تطوان تأمن جانب هؤلاء السلاطين ولا جيوشهم.

ولما انقلب السود على المستضيء لخلعه هرب إلى مراكش ولكن سكانها خذلوه لانهم كانوا يؤيدون السلطان عبد الله بن إسماعيل ثم عادوا وقبلوا به سلطاناً.

وجدد سكان فاس ومكناس له البيعة. ولكن السلطان عبد الله نقل مقره من وادي زم إلى مكناس تخلصاً من مضايقات الزنوج، فانقلبوا على سكان مدينة فاس وشرعوا يعتدون على أملاكهم ويصادرون بضائعهم ويخطفون بناتهم زاعمين بأن ما يقومون به من تلك الأعمال الوحشية إنما هو بأمر من السلطان عبد الله.

وكان الزنوج يشعرون بان السلطان عبد الله يعمل سراً من أجل ان يفتك بهم، لذلك كانت ثقتهم به ضعيفة فراحوا يبحثون عن سلطان جديد، فحاول باشا طنجة إعادة المستضيء إلى الحكم عندما كان السلطان عبد الله يصادر محاصيل فاس الزراعية، وسنحت الفرصة للزنوج فجاؤوا بزين العابدين وعينوه سلطاناً وهو يدعىٰ زيدان بن إسماعيل ويلقب بزين العابدين. سنة ١٧٤١. وخلعوا السلطان عبد الله فهرب إلى جبال الأطلس.

ولما شح المال بيدي السلطان زيدان، اغتنم السلطان عبد الله الفرصة فدخل مدينة فاس بمساعدة قوات البربر الأطلسية. وكان سكان فاس وجيش

الودايا قد تخلفا عن بيعة السلطان زيدان الذي ما كان يملك سوىٰ القليل من المال، فلما نفد ولىٰ هارباً فاستتب الأمر للسلطان عبد الله.

الزنوج يستدعون المستضيء

ولكن الزنوج كانوا يخافون منه لذلك استعدوا السلطان المستضيء لاعادته إلى العرش فنشب القتال بين قوات المستضيء المسنود بقبائل الريف وباشا طنجة وقوات السلطان عبد الله المسنودة بقبائل الأطلس، ومع ان قوات السلطان عبد الله كانت المتغلبة إلا ان القتال عاد وتجدد في وادي لوكوس قرب القصر الكبير، وهناك انتصر السلطان عبد الله انتصاراً حاسماً فدخلت قواته طنجة ظافرةً، وفر السلطان المستضيء ليجمع قوات جديدة ليخوض بها معركته الثالثة مع السلطان عبد الله، ولكنه خسرها فولىٰ الأدبار، والسلطان عبد الله في أثره يطارده من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، ولما استقر المستضيء في طنجة للمرة الأخيرة أعلن بانه لن يعود إلى القتال.

وعاد السلطان عبد الله إلى قصره، «بأبي فكران» فعين ابنه محمداً خليفة له في مراكش، وأخاه الأكبر أحمد خليفة له في الرباط.

وهكذا تخضب عهد السلطان عبد الله بحروبه مع إخوته بالدماء ـ دماء المغاربة التي سالت أنهاراً، فقد كانوا هم ضحايا تلك الحروب التي مزقتهم تمزيقاً وأكلت الأخضر واليابس.

وبالرغم من وقف القتال ظلت خزينة الدولة خاوية، والسلطان خاوي الوفاض، والزنوج وغير الزنوج من سائر القوات كانوا ينتظرون الرواتب والهبات والعطايا، لذلك بقيت الأجواء متوترة، ولا بد ان شيطاناً مريداً من شياطين بطانة السوء أوحىٰ للسلطان بأن يضرب الكبش

الأسود»[١] . بالكبش الأبيض[٢] . ولكن هؤلاء اكتشفوا «اللعبة» فتحالفوا مع اخوانهم أهالي فاس، فاتصلوا بالسود وحرضوهم على السلطان ـ فأسفر الأمر عن وحدة جديدة للصفوف، وعلى أثرها قرروا خلع السلطان عبد الله، بعد ثلاثين عاماً من الثورة والمعاناة وتنصيب ابنه محمد سلطاناً على البلاد. ولما عرض قرار الخلع على السلطان عبد الله رفضه، كما رفضه ابنه محمد براً بأبيه، وقام محمد بمسعىٰ لدىٰ الزنوج حملهم به على تجديد البيعة لوالده عبد الله . . فبايعوه، ولكن سكان الأطلس رفضوا المبايعة . . وبعد لأي حسم الموت كل الخلافات فمات السلطان عبد الله عام ١٧٥٧ وبويع ابنه محمد بن عبد الله، وهو محمد الثالث بن عبد الله بن إسماعيل.

الحروب الأهلية أخرت المغرب وأعاقت تقدمه

إذا القينا نظرة إجمالية على الوضع في المغرب خلال هذه الحقبة الدموية، نجد انه تأخر كثيراً عن أوروبا ـ بعد ان كان متقدماً عليها بسبب تلك الحروب الأهلية ـ التي دمرت العديد من مدنه وقراه، وأفسدت مزارعه ومصانعه، وقضت على تجارته التي كان يستمد منها الدخل القومي كما ان تعدد الحروب واجتياح الكوارث انفد ما لديه من احتياطي المال والسلاح والذخائر، فلم يعد يغطيه أمام أنظار المراقبين في أوروبا سوىٰ ورقة التوت. أجل كان عُرْيُه ظاهراً لكل ذي عينين طامعتين.

التقدم الصناعي الأوروبي

أما أوروبا التي كانت مغتبطة لما يجري في المغرب، فقد ظلت تسير قُدُماً على طريق الحضارة، بعد ان خلت لها الأجواء فانتقلت من عهد

---

(١) الكبشي الأسود: يعني الزنوج.
(٢) الكبش الأبيض أي البربر والعرب.

الاعتماد على الزراعة والفلاحين الذين كانوا يعملون في مزارع الاقطاعيين والملوك والنُّبَلاء ـ إلى عهد الصناعة والتصنيع ـ وبذلك تشكلت الطبقة الوسطىٰ في الدول الأوروبية التي نهض منها رجال الصناعة، ورجال الفكر والاختراع.

حيث أصبح جل اعتماد تلك الدولة على المجهودات الخاصة التي شرع يقوم بها المثقَّفون من أبناء الطبقة الوسطىٰ خير قيام وبذلك أيضاً بدأ في أوروبا عصر التفوق والنهضة في حين ظل المغرب متقهقراًمُنتكساً، ومجمداً في مكانه.

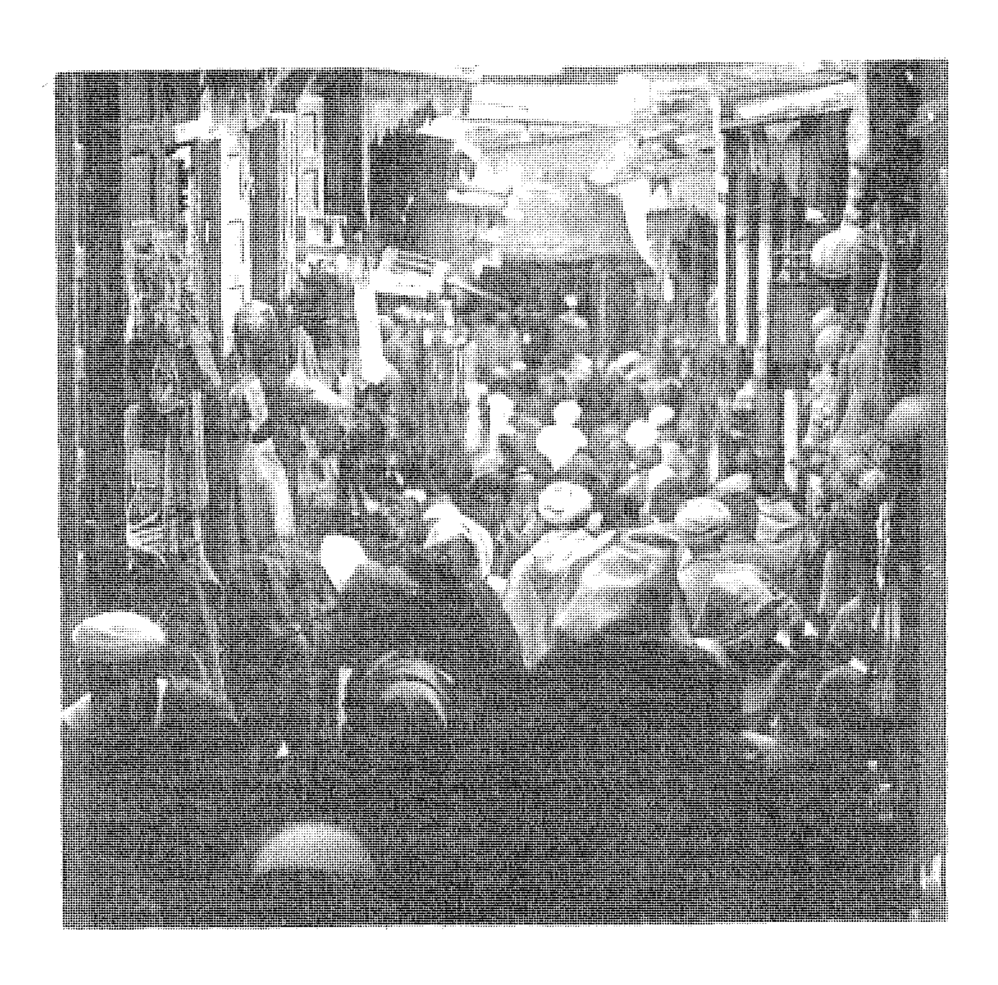
فاكتشفت بريطانيا البخار كمولد للطاقة، والمحرك البخاري الذي يُسير قطارات سكة الحديد على الأرض والبواخر في البحر. وهكذا حل المحرك البخاري محل الحيوانات والعضلات والأيدى.

ثم صنع المكوك الطائر فحل في صناعة النسيج محل المكوك اليدوي واستخدمت أوروبا المحرك البخاري في أعمالها التجارية والاقتصادية والمواصلات فحلت الباخرة محل المركب الشراعي ذي المجاديف. وبذلك أيضاً وأيضاً.. تفوقت السفن البخارية الأوروبية على المراكب المغربية، وبالتالي تفوقت البوارج الحربية التي تسير بالبخار، على المراكب الحربية المغربية التي تسير بالرياح والعضلات.

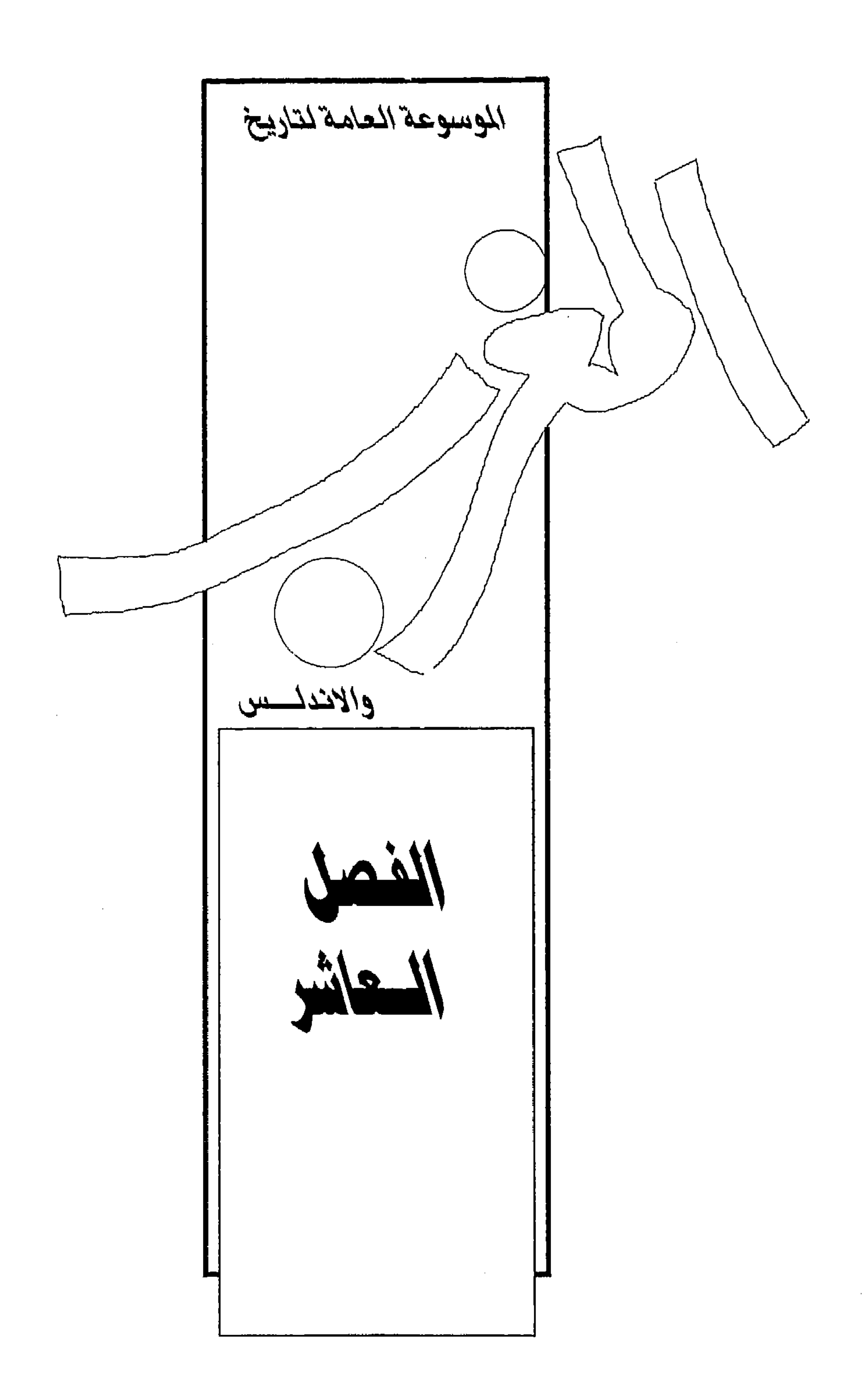
أما في داخل المدن الأوروبية فقد حل قطار سكة الحديد محل العربات التي تقودها الخيول والبغال، فساعد ذلك بلدان أوروبا على إنعاش طرق المواصلات التجارية وصار نقل البضائع والمنتوجات الصناعية والزراعية يتم بواسطة قطر سكة الحديد، بحيث لا تستغرق عملية النقل سوىٰ بضع دقائق بين القرىٰ والمدن وبضع ساعات بين مدن الشمال ومدن

الجنوب ومدن الشرق والمدن المرفئية على الشاطىء ـ هذه التسهيلات وطَّدت أركان الاقتصاد الأوروبي وصارت أوروبا تستعمل الفحم الحجري وقوداً لتوليد الطاقة بدلاً من الخشب وهكذا خطت أوروبا خمسين سنة إلى الأمام، في حين ظل المغرب متجمداً خلال هذه الفترة ناهيك عن أنه قضىٰ منها ثلاثين سنة غارقاً في حروب السلاطين.

وفيما كانت أوروبا تتجدد بكل شيء في العلوم والأفكار والفنون وبالثورة الصناعيَّة، ظل المغرب مشلولاً تحت رحمة الحروب الدموية في بلاده.



أحد أحياء مدينة فاس الشعبية


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
العاشر

السلطان محمد الثالث بن عبد الله بن إسماعيل

١٧٥٧

استغرقت عمليات تجديد الجيش واصلاح الإدارة وانقضاء مدة سبع سنوات من الثلاث والثلاين سنة التي قضاها السلطان محمد الثالث في الحكم. وقد استهل اصلاحاته بإبعاد الجيش عن السياسة فراح يطعمه بأبناء العرب حرصاً على إيجاد توازن بين عناصره، ثم حرر الجيش من المشاغبين ومثيري الفتن، ولكن هؤلاء الزنوج اندسوا بين صفوف السكان في مكناس، فأمر السلطان محمد بتوزيعهم على أقاليم المغرب فنقل ألف عائلة منهم إلى طنجة، وكانت تلك غلطة جديدة منه، لأنهم ثاروا في طنجة بسبب كثرتهم، فأرسل إليهم حملة بقيادة ابنه يزيد، ولكن غلطته تلك سرعان ما انتشرت منها جراثيم الفتنة، لأن الزنوج استمالوا ابنه يزيد إليهم وبايعوه سلطاناً جديداً. فاضطر السلطان إلى الخروج بنفسه على رأس قوة كبيرة من العرب والبربر لإصلاح غلطته فغادر مراكش حتى إذا وصل إلى مشارف مكناس هرب يزيد واحتمىٰ بضريح «سيدي إدريس» في حين اعترف الزنوج بخطيئتهم وناشدوا السلطان ان يعفو عنهم. فاشترط عليهم الانصياع إلى

أوامره. فلما استجابوا وزعهم على مدن طنجة والعرائش والرباط وبلاد السوس وبقي بعضهم في مراكش أما قادتهم المشاغبون وكان يجب عليه أن يعدمهم ولكنه برَّ بوعده فعفا عنهم وبعث بهم إلى مدينة المنصورة.

ويلاحظ ان حركة التهجير اتبع فيها إرسالهم إلى المدن والمرافىء الشاطئيَّة ولا نعلم ما هو وجه الصواب في هذه الغلطة الفاحشة.

الانفتاح على الغرب

لما انتهى من تهجير الزنوج وبعض القبائل البربرية وربما العربية أيضاً التفت إلى تحقيق برنامجه الاصلاحي، مستهلاً إياه بتوثيق علاقاته السياسة والتجارية مع الدول الأوروبية، فعقد سلسلة من المعاهدات والاتفاقات التجارية مع الدانمارك عام ١٧٥٧، ومع بريطانيا عام ١٧٦٠، ومع السويد عام ١٧٦٣ ومع البندقية «فينيس» عام ١٧٦٥، ومع فرنسا واسبانيا عام ١٧٦٧ ومع صقلية والولايات المتحدة عام ١٨٧٦.

المغرب يعترف باستقلال الولايات المتحدة

كان السلطان محمد الثالث أول سلطان مغربي اعترف باستقلال الولايات المتحدة بعد ان تحررت من الاستعمار البريطاني، فأرسل إليه رئيس الولايات المتحدة «جورج واشنطن» كتاب شكر واعترافاً ببادرة المغرب النبيلة.

المعاهدات تحسن العائدات

هذه المعاهدات التجارية تضمنت بنوداً تفرض ضرائب على الدول الأجنبية للسماح لبواخرها التجارية بالمرور عبر المياه المغربية، وبعض تلك الضرائب لم تكن أموالاً نقدية بل أسلحة حديثة لشدة حاجة المغرب بعد

حروبه وثوارته للسلاح الحديث، فكانت ترسل إليه الدانمارك ٦٠ مدفعاً و٦٥٠٠ ريالاً بينما كانت السويد تدفع ٢٠ ألف ريال.

وبعد ان اطمأن السلطان إلى توثيق علاقاته مع الخارج قرر ان يعمل على تحرير مرافئه المحتلة فطرد البرتغاليين من «الجديدة» عام ١٧٦٩، ولما طلب من اسبانيا الجلاء عن سبتة ومليلة اعلنت عليه الحرب ففرض على المرفأين المحتلين الحصار الذي دام سنتين، ولكنه لم ينجح، لأن اسبانيا منعت قافلة بريطانية من تسليم السلاح إلى المغرب، وكان يحتاج إليه لمواصلة الحصار. وكان الغزال كاتب السلطان قد وقع اتفاقية بالخطأ «هكذا قيل في تعليل الخطأ» يقضي برفع الحصار عن سبتة ومليلة فعاقبه السلطان.. ولكن ما الفائدة؟

ولما ارتكب حاكم جبل طارق البريطاني خطأ من أخطاء عدم الكياسة واللياقة أثناء الحصار المفروض على صخرة جبل طارق من عام ١٧٧٩ إلى عام ١٨٧٣ اغتاظ منه السلطان فأمر بطرد القنصل البريطاني من طنجة كما طرد الرعايا البريطانيين من طنجة وتطوان.

باكورة النزاع المغربي الفرنسي

ولكن ما لبثت العلاقات بينه وبين فرنسا أن تدهورت لأن الأسطول الفرنسي ضرب مينائي العرائش وسلا انتقاماً لاختطاف سفينة فرنسية من قبل قرصان قيل بانه مغربي... وكانت أعمال القرصنة هي السائدة في ذلك العصر، فأجابت مدفعية الشواطىء المغربية على النار بالنار، كما هاجمت القبائل المغربية خمس عشرة سفينة فرنسية كانت تطارد الأسطول المغربي حتى نهر لوكوس، وظفرت القبائل المغربية بإحدى عشرة سفينة منها عندما حاولت الرجوع إلى مدخل الميناء، وقتلت وأسرت ٢٣٠ بحاراً فرنسياً و ٣٠

ضابطاً من البحارة. . والبادىء أظلم ـ وهم الفرنسيون. . لهذا كله توترت العلاقات بين الدولتين زهاء عامين، وأخيراً وقع بينهما اتفاق على تنظيم دخول بواخر كل من الدولتين إلى مرافيء الأخرىٰ وافتدي الأسرى الفرنسيون. بعد أن نال المغرب قيمة الفدية معداتٍ لأسطوله.

المغرب رائد التضامن الإسلامي

لما رأىٰ السلطان ان المغرب لا يستطيع وحده الوقوف والصمود أمام الدول الأوروبية. التي كانت تتسابق وتتنافس على فرض استعمارها على الدول الضعيفة وغير الضعيفة، قرر ولأول مرة في تاريخ المغرب ان يحقق فكرة التضامن الإسلامي التي خطرت على باله فراح يوفد الوفود تلو الوفود إلى السَّلْطَنَة العثمانية محملة بالهدايا لتعزيز ذلك التضامن. وثابر على إرسال الوفود بعدما تولىٰ السلطة العثمانية عبد الحميد الأول، فأرسل إليه هدايا نفيسه على أمل استمرار التضامن بينهما حياً ولو بالظاهر لإخافة الدول الأوروبية الاستعمارية.

وبالفعل فقد نجحت بادرته مع السلطان عبد الحميد الأول لأنه أرسل إليه هدية ثمينة جداً وهي «فرقاطة» أي طراد بحري مجهزة بالمدافع والمهاريس بالإضافة إلى ثلاثين رجلاً اختصاصياً بصناعة البوارج الحربية والمدفعية لأن السلطان محمد كان مهتماً بإعادة بناء أسطول مغربي على الطراز الحديث. وهكذا نجح في أقامة توازن شبه معقول في إتجاه المستعمرين بتحالفه مع الدولة العثمانية التي لم تكن في ذلك الوقت ـ كما كانت من قبل ـ أقوىٰ دولة في البز والبحر.

وتعزيزاً لذلك التضامن أصهر السلطان محمد إلى شريف مكة وهما من أصل شريف واحد. وقد حمَّل كريمته هدايا كثيرة لتقدمها إلى أمراء

الدول العربية مثل أمراء طرابلس ومصر وبلاد الشام والحجاز واليمن والعراق.

هذا الفيض الزاخر من الهدايا ينبىء بأن المغرب استرد عافيته من الوجهة الاقتصادية.

بعض مآثر السلطان محمد الثالث

فكر السلطان بأنه قد حان الوقت لتحرير الأسرىٰ المغاربة والمسلمين قاطبة الموجودين لدىٰ اسبانيا. فأجرىٰ مفاوضات بهذا الشأن مع ملك اسبانيا فتلقىٰ إستجابة محمودة فأطلق الاسبان سراح الأسرىٰ.

وفي مقابل ذلك المسعىٰ الحميد، كلف ملك اسبانيا ملك المغرب ان يسعىٰ لتحرير الأسرىٰ الاسبان لدىٰ الجزائر فتكللت مساعيه مع الدولة العثمانية وحرر الأسرىٰ من الطرفين وعادت كل فئة إلى بلادها[1] .

ثم بدأ السلطان بتطبيق التعرفة الجمركية على الواردات إلى المغرب بأخذ العشر من أثمان تلك الواردات، وأبدىٰ اهتماماً بتقديم العون إلى الولايات المغربية المتضررة بسبب الجفاف وانحباس الأمطار، كما عمل على تقديم القروض للمزارعين من أجل تحسين وسائلهم الزراعية وتنشيطاً لأعمال تربية الماشية وأمثال ذلك. ولم ينس ان يقدم قروضاً للتجار وأن يسقط الضرائب عن كواهل الفلاحين في سني القحط.

وقام بعملية تطهير في أجهزة الدولة. واهتم بالتعمير فأنشأ مرافىء جديدة على ساحل الأطلنطي ومنها ميناء أنفا «الدار البيضاء اليوم» وميناء فضالة «المحمدية اليوم» وميناء الصويرة عام ١٧٦٥ ومن أهميته أنه حل محل ميناء أغادير الذي كان القراصنة يتداولونه ويستخدمونه للتهريب وبذلك أتاح

(١) تجدر الإشارة إلى ان الجزائر كانت لا تزال يومها منضمة إلى الدولة العثمانية.

لميناء الصويرة ان يصدر محاصيل وادي نون، ووادي درعة، والواحات الصحراوية، ومحاصيل افريقية الغربية، حتى أصبح من أعظم موانىء المغرب، فاجتذب إليه العديد من التجار الانكليز والفرنسيين وغيرهم من الأجانب.

أما في مجال الاستيراد فقد أصبح ميناء الصويرة يستورد الأقشمة والشاي والمصابيح من بريطانيا والسكر والحرير من فرنسا ولكن هذا الميناء بدأ يفقد أهميته بعد ان احتل الفرنسيون افريقية الغربية، فانقطع عن المغرب مورده من العاج وريش النعام والتِّبْر «أي مسحوق الذهب».

ولكن عهد الاستقلال عاد ونهض بهذا الميناء إذ جعل منه المرفأ الأول في المغرب لصيد الأسماك وأقام فيه معامل لحفظ الأسماك وتعليبها حتى صار ينافس السمك البرتغالي في الأسواق العالمية.

وأشرف السلطان محمد بنفسه على تحصين الثغور بالمدافع وكذلك الأبراج.

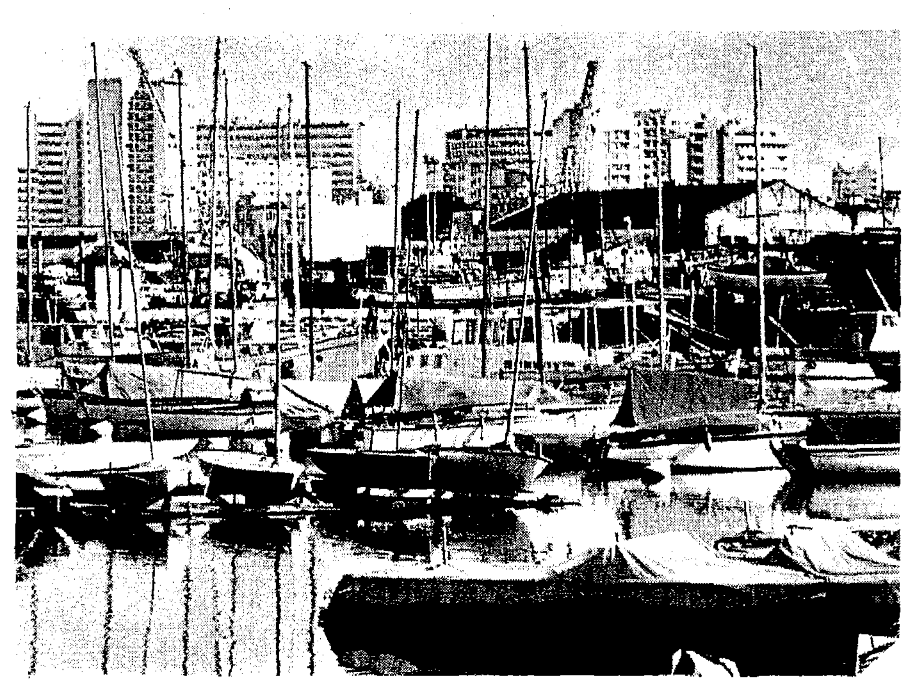
ولكن السلطان لم يحاول تجديد العلوم والفنون بالاقتباس من العلوم الحديثة وكان كل ما فعله انه نشَّط العلوم الماضية أي علوم الدين واللغة والأدب، فظلت الدولة متأخرة في حين كانت أوروبا والعقول الأوروبية تقفز قفزاً من اختراع إلى آخر ومن ثورة صناعية خلاقة إلى ثورة صناعية باهرة الانتاج.. ولم تكن هذه غلطة المغرب فحسب بل غلطة الدولة العثمانية والأنظمة التي كانت تحتل معظم دول الشرق الأوسط.

وفي حين كان يجب ان يبنىٰ إلى جانب كل زاوية ومسجد، مدرسة أو جامعة لنشر العلوم وتثقيف السكان، كان قصارى جهد سلاطين المسلمين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بناء المساجد والزوايا والتكايا وتعليم

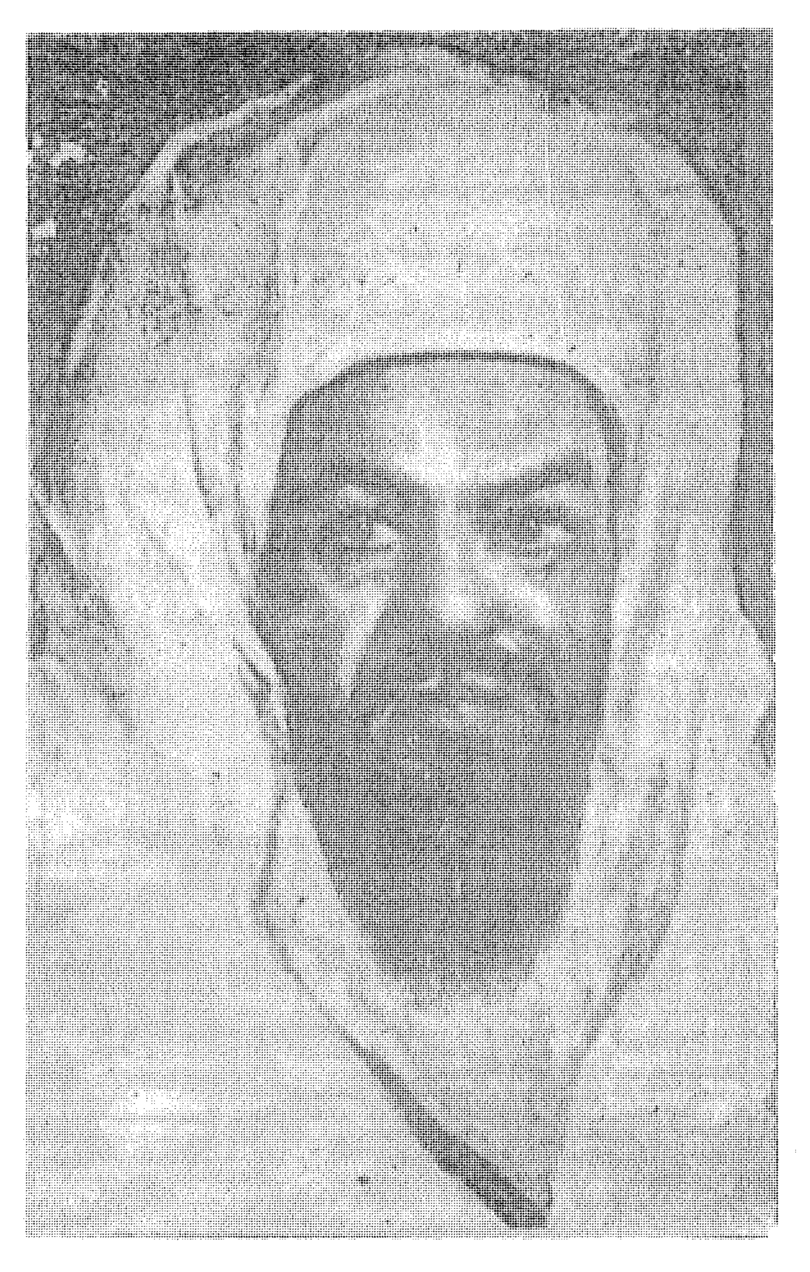
الناشئة ان تكثر من التسبيح والحَمْدَلَة والحوقلة والتعويذ فقط لكي يدخلوا «الجنّة» من أوسع أبواب الجهل . .

والذين اهتموا بتاريخ هذه الحقبة من حياة السلطان محمد قالوا: بأنه اهتم بجلب المؤلفات من الغرب وحث على حفظ أشعار العرب مع صحيح البخاري وغيره وإحياء المذاهب السلفية وانفردت أوروبا بالعلوم والفنون . . وغرق المشرق والمغرب في ظلام الجهل . . ولكن مآثره الكثيرة ومنها تحرير مازاغان عام ١٧٦٩ ، جعله من أعظم ملوك العلويين في القرن التاسع عشر بعد إسماعيل .

وبعد موت السلطان محمد خلفه ابنه يزيد وهذه أبشع غلطات هذا السلطان الكثير الحسنات والفوائد .



أحد شواطىء الدار البيضاء



السلطان سليمان بن محمد الثالث



الفصل الحادي عشر

السلطان يزيد بن محمد بن عبد لله بن إسماعيل

١٧٨٩

بدأ عهده بإصدار عفو عام عن الزنوج ـ أصحابه القدماء الذين حرضوه على الثورة ضد والده ـ فسمح لهم أي الودايا الزنوج بالعودة إلى فاس والزنوج إلى مكناس وعادت بعودتهم الفتن والحروب.

ومن مآثره القليلة انه بنىٰ ست عشرة قلعة مزودة بالمدافع لاستعادة سبتة ومليلة ولكنه لم ينجح، وفيما كان يحاصر سبتة والقبائل المغربية تسانده في ذلك العمل الوطني تحركت الفتنة من جديد، وكانت هذه المرة يقودها أخوه هشام. فدارت بين الاخوين معركة ضارية قتل أثناءها يزيد بعد حكم دام سنتين فقط.

وبعد مصرعه ثار ثلاثة من أبناء السلطان محمد الثالث بن عبد الله وهم: هشام وأنصاره في الجنوب، «ومسلمة» وأنصاره في الشمال، وثالثهم سليمان وكان يناصره أهل فاس.

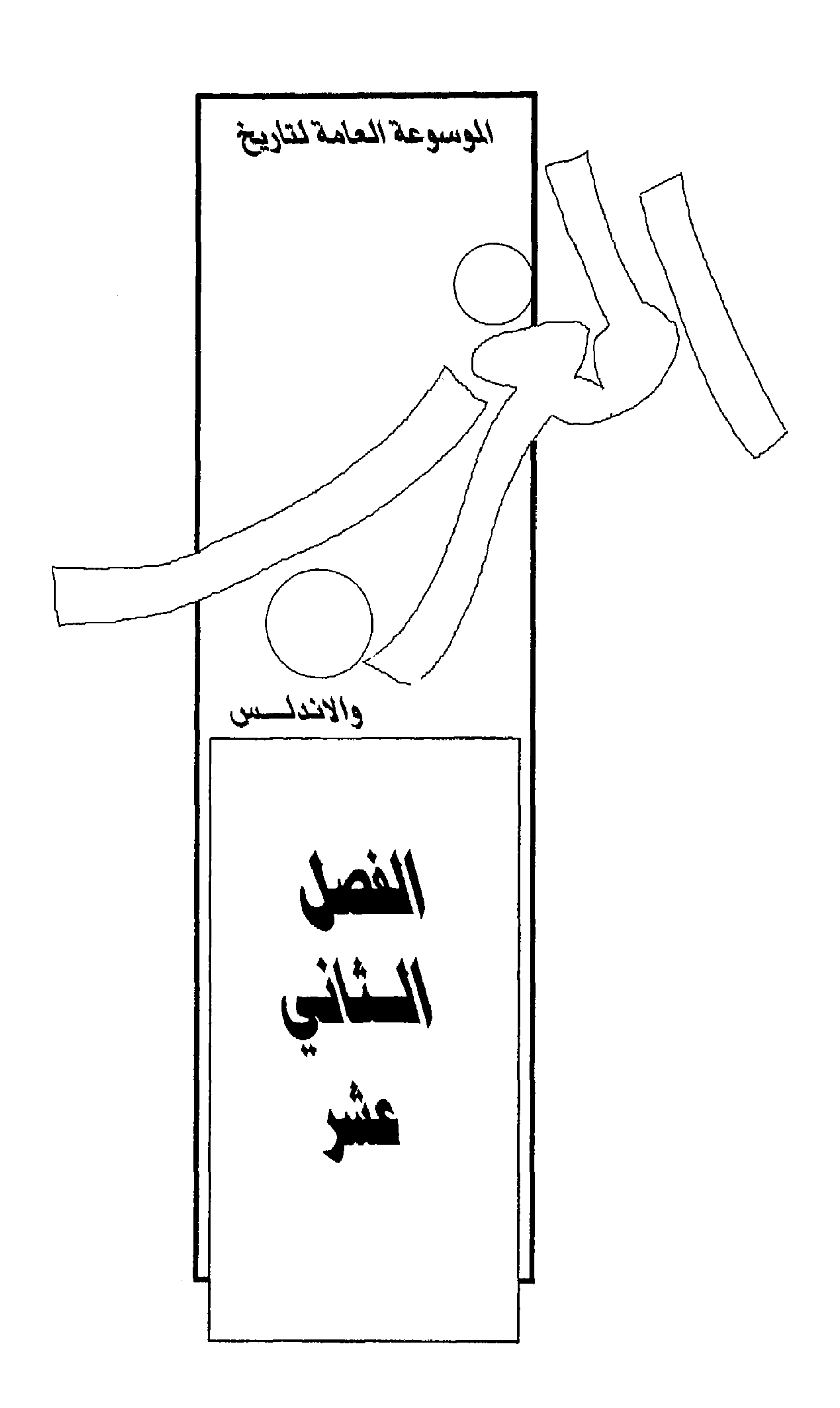
وأخيراً فاز بها سليمان بن محمد السلطان المتعلم الراسخ في العلم

والثقافة ـ كما قيل ـ

ولكن قبل ان يفوز بالسلطة نهائياً حكم أخوه هشام بن محمد من عام ١٧٩١ إلى عام ١٧٩٥ ، ولكننا لم نعثر على تفاصيل حكمه وان كان يبدو ان المغرب غرق في منازعات الاخوة الثلاثة أكثر من ثلاث سنوات. ومع ذلك فلم يكن السلطان سليمان رجل الساعة المنشود لتجديد حياة المغرب، وحمايته والذود عنه.



المولى هشام بن محمد بن عبدالله



الفصل الثاني عشر

السلطان سليمان بن محمد الثالث

١٧٩٢ ـ ١٨٢٢

حكم السلطان سليمان المغرب ثلاثين سنة، قضىٰ خمس سنوات منها في مطاردة خصومه والإجهاز عليهم. وفي أثناء ذلك استرد مدينة وجدة من يد العثمانيين الذين كانوا يحتلون الجزائر، ومع ذلك فقد عاد وعقد إتفاقاً معهم للحفاظ على التضامن الإسلامي ضد المطامع الأوروبية الاستعمارية، وعندما ثارت مدينة تلمسان التي كانت ما تزال في أيدي العثمانيين أرسلت إلى السلطان المغربي تبايعه وتطالب بأن تُسترد لأنها مدينة مغربية، فرفض السلطان الاستجابة إلى سكان المدينة، ولكنه بعث وفداً إلى الجزائر لمصالحة سكان تلمسان مع السلطات العثمانية المحتلة. حفاظاً على اتفاقية التضامن المعقودة بين المغرب والعثمانيين. ولكن العديد من سكان تلمسان هجروا مدينتهم وقصدوا إلى المغرب للعيش أحراراً في ربوعه فاستقبلهم المغرب وأحسن إليهم وعاملهم معاملة أبنائه.

وتابع السلطان سليمان دعوته إلى التضامن الإسلامي فأوفد ابنه

إبراهيم إلى بلاد المشرق ليوثق علاثات المغرب مع مصر والشام والعراق وشبه الجزيرة العربية، مبرهناً على تمسكه بالدين الإسلامي الصحيح مبتعداً عن الطرق الصوفية وشبه الصوفية التي تنادي بالتجسيد والمغالاة في مدح الرسول وشيوخ الطرق الصوفية، معتمدة على طقوس قريبة من الطقوس الوثنية، مبتعدة عن العلم والدين السليم وروح العصر.

وفي هذه المرحلة التقىٰ الوفد المغربي بأتباع محمدبن عبد الوهاب في الحرمين الشَّريفين وهو «مؤسس الحركة الوهابية».

أثر سياسة التسامح والارتجال على الوضع في المغرب

قلنا ان السلطان سليمان كان متعلماً ولكنه العلم البدائي المعروف والمحصور في كتب الدين واللغة والفقة والأدب وليس العلم في السياسة الدولية. وسنترك للأحداث القادمة ان تمتحنه لنأخذ الجواب من النتائج التالية:

أولاً: عقد اتفاقاً مع الحكومة الاسبانية فكان أكثر تسامحاً من الاتفاق الذي عقده والده معهم، يعني انه غض النظر عن مدينتي سبتة ومليلة وإبقاهما تحت الاحتلال الاسباني.

ثانياً: آثر انتهاج العزلة عن أوروبا عندما رأىٰ نابليون بونابرت يحقق انتصارات متوالية على أوروبا، ثم زحف على مصر واحتلها عام ١٧٩٨. وقد قيل في تعليل انتهاجه سياسة العزلة عن أوروبا ليحافظ على استقلال المغرب، فمنع التجار المغاربة من التعامل مع البلدان الأوروبية، وحصر إقامة القناصل الأوروبيين في طنجة، والتجار الأوروبيين في المرافىء المغربية، ودفع بالأسطول المغربي إلى عرض البحر بحجة.. حتى لا يصطدم مع الأساطيل الأوروبية.

ثالثاً: أذعن لطلب فرنسا عندما ألحت عليه باستئصال القرصنة من موانيء المغرب.

رابعاً: قابل بالبرود طلب نابليون بونابرت الاعتراف بأخيه جوزيف بونابرت ملكاً على اسبانيا.. وكان جوزيف المذكور قد عرض عليه إعادة سبتة ومليلة إلى المغرب مقابل اعترافه به، لأن اعترافاً كهذا في «ذمة» السلطان سليمان يتنافىٰ مع الاتفاقات التي عقدها سليمان مع اسبانيا.. «فرصة ضاعت سدىٰ» بتوجيه من الانكليز أصدقاء السلطان. أما فيما يتعلق بالاتفاقيَّة التي عقدها مع الحكومة الاسبانية فقد برهن على قصور وجهل في المبادرات السياسية وكان ينبغي عليه ألا يعقد أي اتفاق مع اسبانيا إلا إذا جلت عن سبتة ومليلة وبذلك يسترد المرفأين الهامين اللذين طال عليهما الزمن وهما خاضعان لذلك الاحتلال المقيت.

ويبدو انه وقع الاتفاقية وهو خائف من اسبانيا..

أما السياسة البدائية التي آثر انتهاج العزلة فيها فقد دلت على انه قليل الطموح، محدود الذكاء، عديم الحيلة، فأوروبا كانت في حالة تقهقر واندحار أمام الجيش الفرنسي، وكان ينبغي ان يغتنم الفرصة لتعزيز مكانة بلاده.. وتقويتها.. فالتضامن الإسلامي الذي جرىٰ وراءه لم يحم استقلال مصر من نابليون بونابرت ولم يمكن الدولة العثمانية من التدخل لحماية مصر العربية من الاحتلال الفرنسي، كذلك لم يحم الجزائر من الاحتلال الفرنسي.

والأدهى من ذلك وأمرّ انه رفض الاعتراف بجوزيف بونابرت ملكاً على اسبانيا وهو يحتلها مقابل استعادة سبتة ومليلة، وماذا كان ينتظر أكثر من هكذا فرصة عظيمة سانحة لاستردادهما. فبرهن بتصرفه ذاك على انه

سلطان ضعيف وضعيف جداً . .

أو ليس عجيباً، ان تحتل فرنسا اسبانيا مع ان والده وجده ومن ارتقىٰ العرش المغربي من قبلهما عجزوا بالتتابع عن تحرير سبتة ومليلة. . ثم ما هي قيمة الاتفاقيّة التي عقدها مع ملك اسبانيا وهي لم تحقق أي مكسب للمغرب.

لقد أتاحت الحروب البونابرتية في أوروبا، للسلطان سليمان كل فرصة ممكنة لتحرير مدينتي سبتة ومليلة وتقوية الأسطول المغربي وتعزيز جيشه ولكنه ترك تلك الفرص تفلت من بين أصابعه . .

بعد سقوط نابليون ـ عقدت الدول الأوروبية على أثر انتهاج المغرب العزلة حيالها عندما كانت منهزمة أمام نابليون ـ مؤتمراً في عام ١٨١٥ تحت شعار منع القرصنة وتحريم الرق. . ثم تبين ان ذلك المؤتمر إنما كان موجهاً ضد المغرب والجزائر وتونس. لأن هذه الدول الإسلاميّة هي التي تملك أساطيل لحماية بلادها من غارات القراصنة الأوروبيين. ومن المعلوم ان هذه الأساطيل قويت جداً حتى كانت تفرض وجودها في البحر المتوسط.

فلما أجمعت دول مؤتمر فينا عام ١٨١٥ على تحريم القرصنة والرق والدول الأوروبية هي التي خلقت وابتدعت تاريخ القرصنة من أوله إلى آخره ـ أبلغ القرار إلى أقطار المغرب الثلاثة.

ثم توالىٰ الضغط على السلطان سليمان حتى أرغم على التخلي عن أسطول المغرب وعدد قطعاته ٤٧ قطعة بحريّة مجهزة بالمدافع وستة آلاف بحار مدربين.

تُرىٰ لو أن هذا الضغط تعرض له السلطان إسماعيل جد هذه الأسرة فهل كان يرضخ له. . ؟

طبعاً لا . . وألف لا . . ولكن السلطان سليمان رضخ لأوامر الغرب فكشف لهم عن مكامن الضعف في دولته والتخاذل في سياسته ولما أرادت الدول الغربية ان تزداد يقيناً من ضعفه وتخاذله فرضت عليه تصدير القمح إلى أوروبا رغم معارضة قبائل الريف، مما جعل السلطان يجرد حملة على تلك القبائل لإخضاعها . .

وعندئذ أيقنت أوروبا ان المغرب في عهد سليمان ليس كما كان في عهد جده السلطان إسماعيل القوي الذي كان يفرض إحترامه واحترام بلاده على الدول الأوروبية .

واكتشف الشعب من تنازلات السلطان بأنه ضعيف لا يصلح للسلطنة فبدأت الانتفاضات والاضطرابات الدامية فحاول السلطان معالجتها تارة بالعنف وأُخرىٰ بالملاينة ولكن الشعب نفر من سلطانه ولم يعد يحتمل بقاءه على عرش المغرب . عندئذ تنازل سليمان لابن أخيه عبد الرحمن بن هشام، مؤثراً إياه على أولاده لأنه أدرك بأنه أقدر على تحمل أعباء الملك من أبنائه . . ثم توفي بعد ذلك بأمد قصير .

ترىٰ هل كان سلاطين المغرب في الفترة الأخيرة يجهلون قوة رجال الريف ورجال الأطلس ورجال القبائل في الجنوب؟ وكان من المفروض ان يستخدم السلطان هؤلاء الرجال على شكل تعبئة عامة ويعد منهم جيشاً قوياً لأنهم في الحقيقة عمالقة الحروب وأسياد الجبال بدلاً من استخدام الزنوج وتجنيد أشباه الرجال من أبناء المدن، والمتطوعين القادمين من كل حدب وصوب حتى من قدماء الجيش الاسباني والصقلي والايطاليين وأمثالهم . ويبدو ان سلاطين المغرب أما انهم كانوا يخافون على عروشهم من بربر الجبال والريف أو الجنوب، أو انهم كانوا لا يميزون بين الأقوياء والضعفاء .

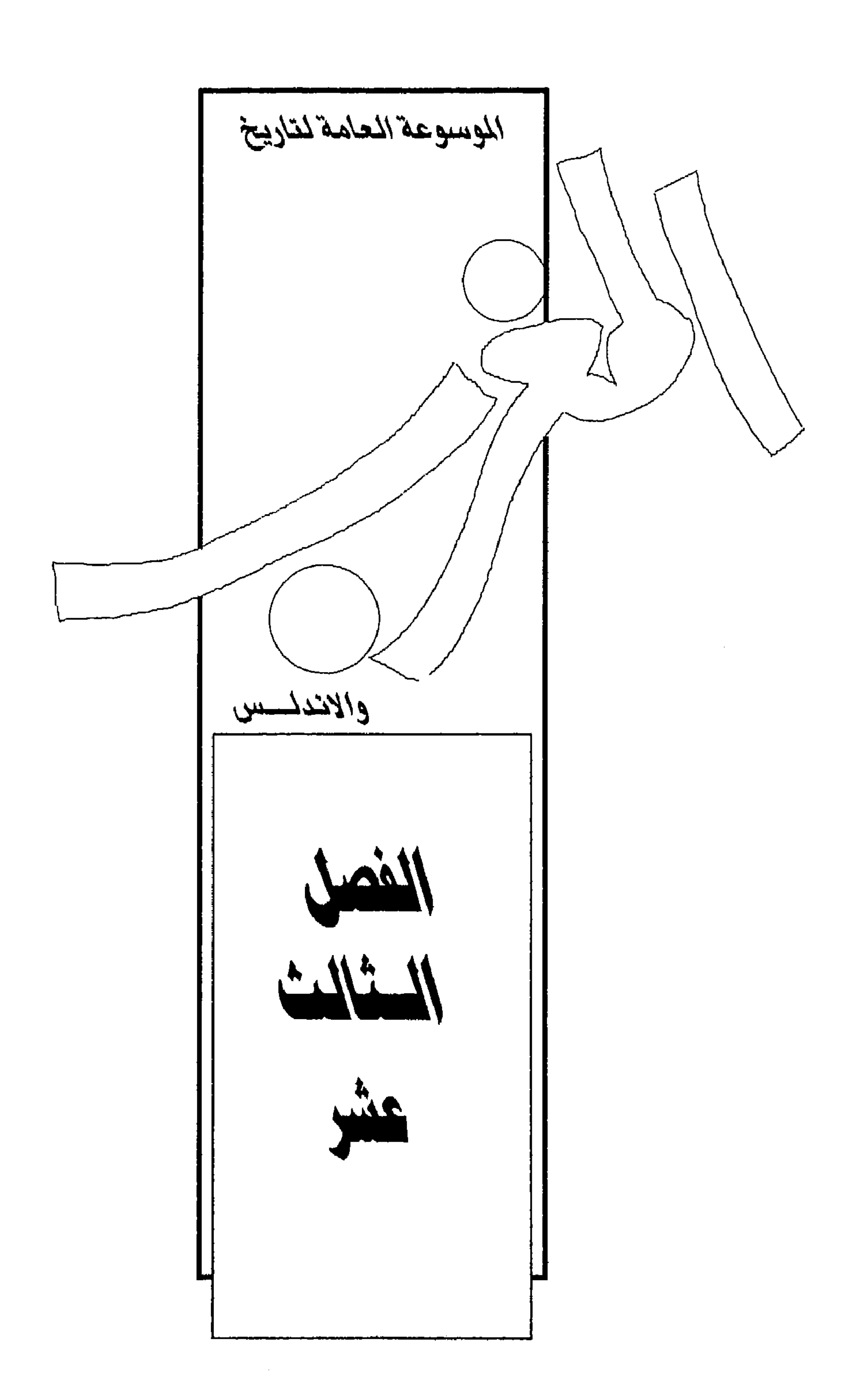
لقد استطاع المرابطون وهم الصنهاجيون سكان الجنوب من احتلال المغرب والأندلس بمدة وجيزة، كما تمكن الموحدون من بعدهم من احتلال المغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط، وان يجعلوا هذا البحر بحيرة مغربية كذلك في مدة وجيزة. ومن بعد ذلك عمت الفوضىٰ وكثرت الانقلابات مما أدّىٰ إلى اضعاف الجيش ـ والقضاء على الأسطول المغربي.

لقد كان عمالقة الجبال والريف والجنوب في المغرب يقدسون سلاطينهم إذا كانوا أقوياء يتحلون بالذكاء والعلم والدهاء السياسي. بالإضافة إلى نسبهم وقرابتهم من الرسول الأعظم (ص).

والشواهد على ذلك كثيرة وإننا نذكِّر القراء الكرام بالحادثة التي جرت مع السلطان علي الأعرج بن إسماعيل قبل اعتزاله الحكم يوم كان هذا السلطان يخوض معركة قاسية مع أبطال الريف فانهزم جيشه ووقع السلطان في أيديهم أسيراً ومع ذلك فقد عامله البربر بصفته أميراً للمؤمنين معاملة إنسانية كريمة تدل على ان البربر من أنقىٰ العناصر البشرية وأكثرها طيبة وإنسانية ولشدة تعلق البربر بالسلطان فقد تجمع نساؤهم حوله وجعلن يقبلن أطراف ثوبه بخشوع ومحبة. ثم تقدم رجالهن من بعدهن فقدموا اعتذاراتهم للمولىٰ، وناشدوه العفو ـ وهو أسيرهم ـ وقدموا له كتيبةً من الفرسان، واكبت موكبه حتى عاد إلى عاصمته في مكناس محاطاً بالحفاوة والتبجيل والإكرام.

أين مثل هذه الأخلاق في عالمنا الفاجر؟

لقد كان السلطان هو المعتدي بحملته الجائرة على سكان الريف، فعاملوه بعد أسره وكأنهم هم الأسرىٰ فناشدوه العفو وطيبوا خاطره وأعادوه إلى عاصمته معززاً مكرماً سالماً غانماً. فهل بعد هذا التسامح فضل؟



الفصل الثالث عشر

السلطان عبد الرحمن بن هشام بن عبد الله

١٨٢٢ ـ ١٨٥٥

ورث المولىٰ عبد الرحمن بن هشام تركة مثقلة بالاضطرابات والتخلف والمنازعات القبلية، ومع ذلك فقد كان محتماً عليه ان يكون شديد الحذر من التحركات الداخلية التي كان يقودها أبناء السلطان سليمان وهو الذي آثره واختاره ليكون وريثه على العرش المغربي، وان يكون يقظاً واعياً من الدول الأجنبية وفي مقدمتها فرنسا.

وفي أثناء تجوله في ولايات المغرب اختار عمالاً «ولاة» من أبناء الولايات ليكونوا ولاة عليها، واضطر إلى ان يقمع تحركات زاوية «الشرادي» وعصيانها. وحركة الودايا المتطرفة كما كان عليه ان يستعمل الجيش لقمع كل حركة فساد وإفساد في طول البلاد وعرضها بعد ان جرت عملية غربلة في الجيش لتنقيته وتطهيره من العناصر الفاسد والمتمردة، وبعد ان أصبحت نقاوته مقتصرة على أبناء المغاربة فقط.

أعمال القرصنة وأسبابها

وكان المغرب ما زال يعاني معاناة شديدة من قراصنة البحار، وهم من جنسيات متعددة ومنهم الأندلسيون الناقمون على الاسبان الذين أخرجوهم من بلادهم عنوة في زمان الضعف وانحلال الدولة الأندلسية، ومنهم المغاربة من سكان المدن الشاطئية في الشمال التي يحتلها الأعداء الاسبان وغيرهم وهذه الحركات لا يمكن أن تُسَمَّىٰ هدامة لأنها منبثقة من ثورات نفسية ضد أعداء غربيين أجانب يحتلون الأندلس وعدداً من مدن المغرب. ولذلك لم يمتثل الثائرون المغاربة الذين يطلق عليهم الغربيون اسم قراصنة لأوامر السلطان العاجز عن استرداد بلادهم ومدنهم، أما القول بأن الغربيين توقفوا عن أعمال القرصنة في البحر المتوسط فهو قول مردود لأن الغربيين كانوا يستعدون لشن حروب صليبية جديدة ولكنها تستهدف في هذه المرة بلدان شمال افريقية كلها، وبمعنىٰ أصح دولة المغرب الكبير.

لذلك لم يكن في وسع السلطان ولا في طاقته وقوته وقف أعمال القرصنة المضادة، وصادف ان تعرض أحد القراصنة الناقمين إلى سفن النمسا ونابولي، فوجهت هاتان الدولتان حملتين بحريتين إلى شمال المغرب، فقصفتا باسطوليهما ميناء العرائش المغربي، فردت عليهما الحاميات الشاطئية بمدافعها المنصوبة فوق القلاع والأبراج.

أما الأسطول المغربي المتخلف في القوة والتجهيز فكان عاجزاً عن مجابهة الأساطيل الحديثة ذات الأشرعة والمجاذيف لذلك أمر السلطان بتجميده، وصب جل اعتماده على الحاميات في القلاع والأبراج، وابتنىٰ أبراجاً جديدة في «الصخيرات» وأبي زنيقة.

وكانت فرنسا قد خرجت من معركة واترلو مضعضعة واستقر نابليون بونابرت في منفاه بجزيرة سانت هيلانة، في حين راحت حكومة فرنسا

تبحث مع قادتها عن امبراطورية جديدة تحلها محل امبراطورية بونابرت المتقوضة.

وكانت كل من الجزائر وتونس في حماية السلطنة العثمانية التي كانت هي الأُخرىٰ في عهد احتضارها ولكنهما لم تصبحا ايالة عثمانية إلا بعد أربعين سنة، حين أخضع سنان باشا العثماني عصياناً اندلع في أحداهما ـ وكان سنان باشا من أصل الباني، وكان قد أخضع أيضاً اليمن وأضافها إلى السلطة العثمانية عام ١٥٦٨ [1] . وكان ذلك في مصلحة الجزائر وتونس ولولا الحماية العثمانية لاحتلهما الاسبان وغيرهم منذ زمن طويل.. انها لكلمة حق لا بد من الاعتراف بها شئنا أم أبينا.

وكان أمير البحر التركي المذكور قد احتل من قبل عدن في جنوبي اليمن سنة ١٥٤٧ فأصبحت تركيا تسيطر على بوغاز باب المندب، ثم احتل مسقط في عمان سنة ١٥٥١، حتى رأس الخليج العربي.

وطرد سنان باشا فرسان القديس يوحنا «الاسبتارية» من طرابلس الغرب، وهكذا أصبحت الجزائر وتونس وطرابلس دولاً شبه مستقلة أو محكومة ذاتياً، تابعة «للباب العالي» ويحكم كل واحدة منها حاكم من أهل البلاد، وينتقل الحكم بطريق الوراثة إلى ذريته.

وكان كل حاكم من هؤلاء الدايات والبايات يرسل جزية سنوية على شكل هدية. إلا ان أعمال القرصنة كانت الطابع المميز لهذه الدول الثلاث لأن العصر كان لا يزال عصر القرصنة الأوروبية والقرصنة الإسلامية المضادة.

---

(١) انظر في ذلك كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني لقطب الدين المكي ترجمة سلفستروي ساسي.

ولكن ثمة دولة غربية واحدة من ذوات الأساطيل الصغيرة، كانت يومها بريئة من تهمة القرصنة وهي الولايات المتحدة، لأنها دولة بعيدة عن شواطىء البحر الأبيض المتوسط، وناشئة في الوقت ذاته، وكدولة ناشئة حررت نفسها من الاستعمار البريطاني وكانت ما تزال تعتنق مُثُلاً أخلاقية سامية لا وجود لها في أوروبا قلعة الاستعمار الشاهقة.

لهذا كانت الولايات المتحدة تدفع جزية إلى الجزائر لتحمي سفنها من القراصنة، إلى ان طفح الكيل، فاضطرت إلى مهاجمة الجزائر بالأسطول الامريكي الناشىء لتضع حداً للجزية التي كانت تفرض عليها.

وكانت في الوقت نفسه تدفع جزية لحكومة طرابلس الغرب، وكان داي طرابلس وهو من أسرة القرمانللي، قد طلب من الحكومة الامريكية رفع قيمة الجزية التي تدفعها عادة ومقادرها ٨٣ ألف دولار، على مدىٰ أربع سنوات، لذلك نشبت الحرب بين الولايات المتحدة وطرابلس عام ١٧٩٦، ولكنها لم تكن حاسمة إذ اضطرت الولايات المتحدة إلى دفع الجزية مجدداً عام ١٨١٥. وكان دفع الجزية من الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة تعمل على تقوية أسطولها في البحار.

بدء الغزو الفرنسي للجزائر

وفي عام ١٨٣٠ غزت فرنسا الجزائر ووهران لأن الحاكم الجزائري الداي حسين أهان القنصل الفرنسي وذلك عندما صفعه على وجهه بالمذبَّة رداً على جواب وقح قذفه القنصل في وجه الداي حسين عندما طالب فرنسا بتسديد ديونها للجزائر ويبدو ان التحرش الفرنسي كان متعمداً.

لهذا كانت الجزائر أول ايالة عثمانية انسخلت عن الامبراطورية العثمانية بعد هجوم الأسطول الفرنسي على أراضيها. وباحتلال الجزائر

انكشف ضعف وتخاذل الدولة العثمانية لكل ذي عينين في الشرق والغرب معاً.

كان السلطان عبد الرحمن ضعيفاً في السياسة محدود الطموح بدا منه التقصير واضحاً عندما عجز عن اللحاق بالركب الحضاري الأوروبي وكان ما يزال في أول الشوط، كما قصر عن مواكبة النهضة الصناعية، لذلك اعتمد أَوْ على الأصح صب اعتماده كلياً على الخبراء والمستشارين الانجلز من رجال المخابرات الذين كانوا يتزيون بزيّ التجار في بلاده أو بزي رجال السياسة النصوحين.

وفي هذه الآونة تحرش الأسطول الفرنسي بالشواطىء المغربية فقصف بعض المواني بحجة تحطيم سفينتين فرنسيتين على الشاطىء القريب من مرفأ سلا. لذلك عمد السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى عقد اتفاقية مع بريطانيا عام ١٨٥٦ تعهدت بموجبها بدعم استقلال المغرب، لقاء حصولها على امتيازات تجارية، بالإضافة إلى إعطاء بريطانيا حقاً بحماية رعاياها الانجليز وبعض المغاربة المتعاونين مع الانجليز ـ في المغرب، ففتح بذلك أمام الأطماع الأوروبية باباً لا يسد، خصوصاً الاطماع الفرنسية والاسبانية للحصول على امتيازات مماثلة، وكان ممثل بريطانيا في المغرب يقوم بدور المستشار للسلطان الضعيف عبد الرحمن بن هشام.

الجيش الفرنسي يدخل الجزائر

لما تعقدت الأزمة بين الداي في الجزائر والحكومة الفرنسية ـ على الشكل الذي رسمته فرنسا، هاجمت جيوشها المؤلفة من ٣٧ ألف جندي فرنسي في الجزائر واستطاعت بسهولة التغلُّب على ستة آلاف من «الأوجاق» الذين كانوا أشباه جنود، مما اضطر الجزائر إلى فتح أبوابها أمام الغزاة

الفرنسيين، بعد ان انسحب الداي تاركاً المدينة للغازي الفرنسي المنتصر. حدث ذلك والسلطنة العثمانية تتظاهر بأنها لم تسمع ولم تر. . وكذلك ما كان يسمىٰ بالتضامن الإسلامي الذي لم يثبت وجوده في أي موقع.

وراح الفرنسيون يبحثون عن زعماء جزائريين يتعاونون معهم ولكنهم في أول الأمر فشلوا.

الزعيم عبد القادر الجزائري

قاد المقاومة الجزائرية زعيمان محليان هما الباي أحمد في قسنطينة، وعبد القادر الجزائري في أورانيا أي منطقة وهران كما كان يطلق عليها. وعبثاً حاولت فرنسا استدراج عبد القادر بن محي الدين وهو من أسرة صنهاجيَّة كريمة. على قبول مبدأ الاحتلال وأخيراً اتفق معه دي ميشيل القائد الفرنسي الجديد، على توقيع معاهدة تعترف فرنسا بموجبها باستقلال أقليم وهران تحت زعامة الأمير عبد القادر، ونُسّقت المعاهدة في نستختين أحداهما فرنسية والثانية بالعربية ويبدو ان فرنسا تركت أصابعها تلعب بالنص الفرنسي إذ كان يفرض على عبد القادر القبول واقعياً بسيادة فرنسا على جزء من التراب الجزائري. . ولكن المعاهدة الغيت من جانب عبد القادر عندما اطلع على محتوىٰ النص الفرنسي المخالف للنص العربي فوقعت الحرب. وفشلت فرنسا في معركتها الأولىٰ في «المقطع» بفضل مقاومة الأمير عبد القادر. ولكن «بوجو» القائد الفرنسي انتصر بعدها في معركة سيكاك.

فعادت فرنسا وطلبت التفاوض مع الأمير عبد القادر، فعقدت معه معاهدة «تافنا» في ٣٠ مايو ـ أيار ـ سنة ١٨٣٧، وكانت واضحة المعالم، ولكنها صعبة التطبيق، لأنها كانت تقضي بأن يعترف الأمير بوجود تعايش على أرض الجزائر بعد ان قسمت إلى قسمين مربوطين بذلك التعايش

والتعاون. ولكن المعاهدة فشلت أيضاً.

ومارست فرنسا لعبة التعاقد نفسها مرتين مع الباي أحمد فلما رفض هوجمت قسنطينة في الحملة الأولىٰ التي حدثت في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٣٦ ففشلت تلك الحملة فشلاً ذريعاً وتحطمت على صخرة المقاومة الجزائرية الباسلة ثم أعقبتها الحملة الثانية في اكتوبر ـ تشرين الأول سنة ١٨٣٧ وكانت أكبر من سابقتها حيث تم للفرنسيين الاستيلاء على قسنطينة. مما اضطر الأمير عبد القادر إلى رفض المعاهدة السابقة.

وتجددت الحرب في تشرين الأول سنة ١٨٣٩ ، بعد أن استعد الفرنسيون وجلبوا قوات إضافية فكانت الحرب سجالاً ، ثم عينت فرنسا القائد الفرنسي بوجو حاكماً عسكرياً عاماً للقسم المحتل من الجزائر في ٢٠ كانون الأول سنة ١٨٤٠ . ووضعت خطة عسكرية لمحاربة ما كانت تسميه فرنسا «بالعصابات الجزائرية» وكان ذلك أول المعزوفة الاستعمارية .

وفي عام ١٨٤٦ بلغ عدد القوات الفرنسية في الجزائر ١٠٨ آلاف جندي فرنسي مستعمر جيء بهم لتحطيم مقاومة الامير عبد القادر الجزائري في دولته الجزائرية . وتخلت فرنسا عن فكرة الاحتلال الجزئي للجزائر فصارت تريد احتلال الجزائر كلها .

وراح الامير عبد القادر الجزائري يحارب على جبهتين . في ميدان القتال ، وميدان الاصلاح الاجتماعي لتقويم وتقييم ما كان أفسده العثمانيون والدايات والبايات في البلاد من الأنظمة المتعلقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فأبطل نظام الضرائب العثماني الذي كان يمتص دماء الشعب ،دون أن يقدم له أي عمل اصلاحي لتطويره في مجالات الحضارة والاقتصاد ، واستبدل ذلك النظام ، بجباية العُشر على المحاصيل ، وأثار



الأمير عبد القادر الجزائري

النعرة الدينية والنعرة القومية في البلاد ، وحث رجال الدين على الدعوة للجهاد المقدس ضد الغزاة ووجه ضربة قاصمة لمخلفات العصور التركية ممن كانوال يتعاونون مع العثمانيين . وفعل كل ما بوسعه أن يفعله لاعداد

البلاد للمقاومة .

الفرنسيون يعلنون حرب الدعاية ضد عبد القادر الجزائري

وشرع المستعمر الصليبي يجابه اصلاحات عبد القادر بالدعاية الاستعمارية التقليدية ، مثل الطعن بالقومية الجزائرية ، ومهاجمة عبد القادر شخصياً على حد قولهم بانه ليس زعيماً قومياً لكل البلاد ، وانه لا يمثل إلا قبيلته . وفي بعض الأحيان ، لا يمثل إلا نفسه ، وهل يوجد حقاً شعب جزائري؟ وان نظام عبد القادر لا يمكن تطبيقه على القبائل ، وامثال ذلك من الأكاذيب التي كانت تروجها فرنسا في صحفها ومجتمعاتها التي كانت ما تزال تلوك وتجتر هزيمة واترلو .

وقد اصطدم عبد القادر بعقبات كثيرة اعترضت عمليات الجهاد والاصلاح وجمع الشمل ، وتوحيد الصفوف والقبائل لمنازلة العدو الجاثم على أرض الوطن . وكان من أهم تلك العقبات عدم توافر الأموال لشراء الاسلحة والمؤمن ودفع الرواتب ، والعدو الفرنسي الذي احتل اجزاء واسعة من البلاد التي خرجت سلطتها من يد عبد القادر .

وقوف المغرب إلى جانب الثورة الجزائرية على الفرنسيين

وراح الحاكم العام وكأنه يقرأ خواطر عبد القادر يعمل على إفشال واحباط مساعيه فأصدر أوامره بمنع العرب من الزرع والحصاد والرعي وهذه الضربة تعتبر قاصمة للظهور . وحاول بالدس أن يوقع بين عبد القادر وضباطه ، وبينه وبين القبائل الجزائرية .

وأدرك الحاكم الفرنسي بوجو أن عبد القادر يوجه كل اعتماده على المغرب حيث كان السلطان عبد الرحمن يزود الثورة الجزائرية بالسلاح والعتاد والمؤن عن طريق تلمسان وهي في المنطقة الشرقية التي وضعها

السلطان عبد الرحمن تحت تصرف الامير القائد عبد القادر الجزائري .

ولما فشل الحاكم بوجو بانجاح دسائسه شن هجوماً عاماً على تلمسان ضمن خطة حربية لمنع وصول الامدادات لقوات عبد القادر فاحتل المدينة . والمنطقة ثم معسكر عبد القادر نفسه في ١٦ أيار عام ١٨٤٣ ، وفي نوفمبر تشرين الثاني نجح الفرنسيون بقتل عدد كبير من ضباط عبد القادر ومعاونيه .

ولم يعد أمام عبد القادر إلا أن يعود إلى التاريخ يستنجد بالمغرب الكبير الذي كان يضم في الماضي الجزائر وتونس وطرابلس فاعترف بالسيادة المراكشية لمواصلة الحرب على مستوى دولة المغرب القائمة .

معركة إيلي وفشل ثورة عبد القادر

وتشجع السلطان عبد الرحمن فحشد جنوده على عجل وبدون اعداد وتنظيم مسبق ودفع بجيشه المرتجل إلى معركة إيلي قرب وجده في ١٤ اغسطس ـ آب ـ سنة ١٨٤٤ . فسحقه الجيش الفرنسي ، وكانت هزيمة شنيعة للجيش المغربي والقوات الجزائرية معاً .

وبمعاهدة طنجة في ١٠ سبتمبر ـ ايلول ـ سنة ١٨٤٤ ، نالت فرنسا اعترافاً شبه قانوني بوجودها في الجزائر واصبحت المقاومة الجزائرية تُحارب بالمنشورات والدعاية الفرنسية حيث يطلق عليها اسم تمرد وعصيان وعلى رجالها نعوت من امثال متمردين وعصاة . . والآتي أعظم . .

وكان استسلام الامير عبد القادر الجزائري في ٢٣ ديسمبر ـ كانون الأول ـ سنة ١٨٤٧ كارثة وطنية عمت شمال افريقية والعالم العربي بأسره . نقول العالم العربي ونحن نقصد الشعوب العربية الرازحة تحت الاحتلال العثماني ـ الذي كان لا يزال يباري أهل الكهف بالنوم والجمود .

وهكذا اعطى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ بعد هزيمة واترلو اولى ثمراته . فالدول الأوروبية عقدت مؤتمر فينا ، بقصد تحريم القرصنة . والمقصود بذلك أن يكون التحريم على نطاق واسع وبدون استثناءات . وطنطنت الدول الاوروبية بقرار تحريم القرصنة وابلغته رسمياً إلى السلطنة العثمانية والمغرب والجزائر وتونس وطرابلس ، وطالبت الدول المذكورة بالتقيد بحرفية قرار التحريم ولكن الدول الاوروبية المخادعة احتفظت لنفسها بحق انتهاك قرار تحريم القرصنة متى شاءت . .

وكانت فرنسا وهي واحدة من الدول التي وقعت على قرار مؤتمر فينا أول دولة سمحت لجنودها بأن يدوسوا بنعالهم الغليظة على قرار فينا العتيد عام ١٨٣٠ ، أي بعد ١٥ سنة فقط من توقيعها هذا القرار . وذلك عندما غزت الجزائر باسطولها وجيشها واحتلتها وفرضت استعمارها على البلاد . وبعملها الشائن هذا قضت على قرار مؤتمر فينا وجعلته مجرد كلام تافه لا قيمة له مطبوع على ورق اوروبي فرنسي أكثر تفاهة .

أوروبا تروج بضاعة الاستعمار

من سخرية القدر أن أوروبا التي تمثلها الدول الاستعمارية كانت تحشو كتبها ـ المطبوعة قبل استعمار الجزائر وتونس والاقطار العربية الأخرى بعد حرب الغدر والاكاذيب في عام ١٩١٤ ـ بتمجيد مؤتمر فينا والقرار الصادر عنه بتحريم القرصنة في البحار . وكانت تحشو بهذه الأكاذيب وامثالها رؤوس طلاب المدارس ، وكأن غزو الجزائر وتونس وطرابلس والمغرب والدول العربية في المشرق ليس عملاً من أعمال القرصنة . وهكذا وبهذه التلفيقات كانت أوروبا تروج بضاعة الاستعمار وتجعل العرب والمسلمين يستوعبونها على أنها حقائق وأعمال أوروبية

مجيدة .

المغرب في حداد على خسائره الفادحة في إيلي

في عهد السلطان عبد الرحمن أصبح المغرب تحت رحمة مخالب الاستعمار الغربي ، وبين أشداقه .

فقد خسر جيشه الذي جمعه من القبائل المتطوعة ومعنى ذلك أن تلك القبائل كانت قد غرقت في حزن طويل على رجالها الذين قتلهم المستعمرون في معركة «ايلى» وقد لف هذا الحزن جميع مدن المغرب وقراه وسهوله وجباله وصحاريه ولم يقتصر الحزن على ما فقد من الرجال والمال والعتاد بل وعلى ما يتوقع أن يقوم به الجيش الفرنسي المستعمر من هجوم على المغرب لتجزئته أو لتقطيعه وتشريحه لضم اجزاء منه إلى قطاع «الصّيد» الفرنسي الجديد في الجزائر .

ولكن سرعان ما غُطيت الهزيمة في معركة إيلي بانتفاضة في معاقل المغرب الجبلية التي هبت للذود عن حياضها والاستعداد لتلقين المستعمرين درساً لا ينسى . ولكن الجيش الفرنسي قنع بالغنيمة الآنية ، وصار بحاجة إلى وقت حتى يهضمها ويبتلعها في راحة وهدوء .

بريطانيا تتحرك

ولكن بريطانيا تحركت بسرعة لا حبّاً بالمغرب بل للدفاع عن مصالحها ومستقبلها في جبل طارق . وامتيازاتها التجارية في المغرب ، ومع ذلك فقد اتفقت الدولتان البريطانية والفرنسية على قص مخالب المغرب حتى لا يتسنى له الوثوب مرة اخرى فأرغم السلطان عبد الرحمن على قبول اتفاقين ، يمنع أولهما المغرب من أيواء الامير عبد القادر الجزائري ومن معه من فلول الثورة الجزائرية ، ويقضي ثانيهما بجعل الحدود بين المغرب

والجزائر تمتد من البحر إلى ثنية «ساسي» فالاطلس الصحراوي ومع أن القبائل لم تُحص بدقة ولكن اكتفي مبدئياً باحصاء القبائل التابعة لكل بلد على حده .

وانتهى التوسع الفرنسي شرقاً سنة ١٨٨١ باحتلال تونس حيث طبقت السياسة نفسها إلى حد كبير . وكان يُعَيّن لتونس مقيم عام فرنسي يحكم مع الباي . .

الدول الأوروبية المنتصرة تتوزع الغنائم

لقد بدأ الانهيار في المغرب في عهد السلاطين من ابناء اسماعيل وكانوا ابناء فاسدين فجعلوه مسرحاً لفسادهم واختلافاتهم وشقوا البلد وقسموه على نفسه واشركوا القبائل في السهول والجبال في صراعهم المستمر . . فلما تولى الحكم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الله ، لم يتح له المستعمرون الفرنسيون وقتاً للم الشعب وجمع الشمل ورص الصفوف وتوحيد الكلمة ، واغتنمت فرنسا فرصة تضعضع الدولة فانزلت قواتها في الجزائر مما اضطر السلطان إلى مدّ يد المساعدة إلى الثورة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر فخسر جيشه وفازت فرنسا ـ إلى حين ـ بالغنيمة الجزائرية كما فازت بريطانيا بالامتيازات التجارية والتحرك السياسي بفضل الممثل البريطاني الذي كان يقوم بدور المستشار للسلطان المغربي الساذج .

وجاءت كل هذه الأحداث بسبب خلافات أبناء اسماعيل ، فأوقفوا عجلة التقدم في البلاد ، وجمدوا الحضارة وقطعوا عليها مسيرتها ، فساعدوا من حيث لا يعلمون على تقدم أوروبا أشواطاً على المغرب في سباق التصنيع واختراع البخار ، والمدافع والبارود والبوارج الحربية التي تسير بالبخار ففقد المغرب اسطوله الشراعي كما فقد ميدان التنافس حيث

كان له في الماضي قصب السبق .

المغاربة يزيدون من نشاطهم الزراعي

ولكن جهود المغاربة لم تفتر ولم تهدأ فظلوا يمارسون اعمالهم الزراعية بالوسائل البدائية ، واعمالهم الصناعية التقليدية كالحرف الوطنية وامثالها ، واحتفظ المغرب بثروته الحيوانية وبشجاعة ابنائه خصوصاً ابناء الجبال الذين سيلعبون في ميادين القتال دوراً مميزاً ضد الفرنسيين والاسبان ، واستطاع المغرب أن يحرك نشاطه الاقتصادي قليلاً بعد أن اوقفت روسيا تصدير حبوبها لاوروبا فحلت محلها الحبوب المغربية مما ساعد على حماية الاقتصاد وميزان المدفوعات ، وان يكن قد غرقت أسواق المغرب ـ بواسطة بريطانيا ـ بالمصنوعات البريطانية وغيرها .

نهاية الرجل المريض ـ تركيا

لقد جرت هذه الأحداث كلها في المغرب والجزائر وتونس دون أن تحرك «الدولة العليّه العثمانية» ساكناً ، وكان على عرشها في ذلك الحين السلطان محمد الثاني وهو السلطان الثلاثون في سلسلة سلاطين بني عثمان . وقد حكم من سنة ١٨٠٨ إلى سنة ١٨٣٩ . حيث تولى بعده في نفس السنة السلطان عبد المجيد لغاية سنة ١٨٦١ ، ثم جاء بعده في السنة نفسها السلطان عبد العزيز ثم السلطان مراد الخامس سنة ١٨٧٦ ، فالسلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٨٧٦ ـ السنة ذاتها ـ فالسلطان محمد رشاد سنة ١٩٠٩ ، فالسلطان وحيد الدين من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٢ .

ولكن للحقيقة نقول أن الإنهيار العثماني البطيء بدأ في وقت مبكر منذ عهد خلفاء السلطان سليمان والسلطان سليم وتفاقم في عهد السلطان محمود الثاني وكان السلطان العثماني يلقب «بالرجل المريض» وهذا اللقب

كان يطلق على السلطنة العثمانية كلها التي عاشت بضع مئات من السنين خصوصاً في السنوات الأخيرة منها وهي في حال نزع وحشرجة إلى أن لفظت انفاسها الأخيرة ، فلم يأسف على موتها أحد ، وإن كان سكان الشرق الاوسط ومنهم العرب بصورة خاصة قد تقرحت عيونهم من البكاء على مدار اربعمائة عام أو يزيد على ابنائهم الذين كانت الدولة العثمانية تسوقهم كالخراف للقتل والذبح في حروبها في البلقان وغير البلقان من البلاد حيث كان الذاهب مفقوداً «وهم يشكلون الاكثرية ، والعائد مولوداً وهذا فيما ندر . . .

أسباب أخرى أدت إلى انهيار الرجل المريض

من المعروف أنه لم ينقض وقت طويل على موت السلطان سليمان القانوني حتى أصيبت الدولة العثمانية بأولى نكساتها ، عندما فشل الجيش العثماني الذي لا يقهر في حصار مدينة فينا والاستيلاء عليها عام ١٦٨٣ .

وقد اعتبر بعض المؤرخين من غير المسلمين أن ذلك الفشل كان بدء الانحطاط العثماني وأول النهاية خصوصاً بعد أن توقفت اعمال التوسع الحربية في أوروبا الشرقية ، واقتصر الحكم العثماني على الاحتفاظ بفتوحاته في البلقان واسيا .

وقد حاول السلطان سليم الثالث ـ ١٧٨٩ ـ وهو السلطان المفكر المجد أن يعيد تنظيم جيشه ، بادخال الاسلحة الجديدة التي ابتكرتها أوروبا ، فتصدى لمحاولته ويا للاسف رجال الدين المسلمون وعلى رأسهم المفتي العثماني «عطا الله افندي» فأصدر فتوى «بأن كل سلطان يدخل انظمة الافرنج وعوائدهم ، ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك» على اعتبار أن الاسلحة الجديدة وثياب الجند الحديثة تعد في حكم التشبه

بالنصارى . كما أن استعمال البنادق ذات الحراب من قبيل استعمال اسلحة الكفار وهذا إثم عظيم[1] .

وتوقفت على الفور جهود السلطان سليم الثالث. بعد أن كان قد استقدم خبراء من انحاء أوروبا لبناء الجيش العثماني الجديد ، وكان ذلك قبل اكثر من مئة سنة على حصار فيينا وفشل الجيش العثماني باسلحته القديمة ـ باحتلالها .

وقد عزل السلطان سليم الثالث بسبب محاولته هذه سنة ١٨٠٧ ، وكان الانكشارية قد بدأوا بالتمرد على طريقة الجيش الامبراطوري الروماني ولم ينجح بالقضاء عليه إلا السلطان محمود الثاني «١٨٠٨» في سنة ١٨٢٦ .

وهذا يعطينا فكره قيمة جديرة بالتأمل إذ لولا المفتي عطا الله افندي في الاستانة الذي تدخل باسم الدين الاسلامي لمنع تطوير الجيش العثماني ، والاستعانة بالخبراء الأجانب لبناء مصانع حديثة لانتاج الاسلحة ـ لما انهارت تدريجياً السلطنة العثمانية ولولا السفراء والقناصل الانجليز والفرنسيين الذين كانوا يسيطرون على شيوخ الاسلام في الاستانة واحداً بعد الآخر لاغراض استعمارية لما تنازلت الدولة العثمانية عن الاقطار التي افتتحتها في عهد المجد العثماني . ولما تمكن الفرنسيون من احتلال الجزائر وتونس .

فالعوامل الخارجية التي اخذت تظهر وتؤثر على الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر هي التي تسببت باضعاف السلاطين من بني عثمان . وكانت هذه العوامل الخارجية ممثلة بفرنسا وانكلترا والنمسا وروسيا ، وهي

---

(١) من مقال للاستاذ فهمي هويدي نشر في مجلة العربي عدد ٢٢٩ سنة ١٩٧٧م .

التي كانت تطالب الدولة العثمانية في عهد انحطاطها بمناطق نفوذ لها في «الممتلكات» العثمانية ، فراحت كل دولة من هذه الدول تستغل ضعف الجيش العثماني وضعف أسلحته ، للاستيلاء على بعض ممتلكات «الرجل المريض» غير أن التحاسد فيما بين الدول الاوروبية المتنافسة وعدم اتفاقها على عمل موحد أفسح في أجل «الرجل المريض» .

الغرب يفرض هيآتِه الدولية على الشرق

ان المعاهدات التي كان المستعمرون يروجون لها لا قيمة لها من الناحية القانونية الحقيقية ، لأنها معاهدات فرضها القوي على الضعيف . مستغلاً ضعفه ، فالقانون المدني كما هو معروف يحمي الضعيف عندما يدافع عن نفسه ويبرؤه ، ويدين المعتدي في الوقت نفسه ، ولكن الغربيين المستعمرين كانوا يستغلون الشعوب الضعيفة ويفرضون عليها معاهدات بقوّة الجيوش والاسلحة الفتاكة ، وكانوا هم الخصم والحكم لذلك فإن كل تلك المعاهدات تعتبر لاغيةً لا قيمة لها من الوجهة القانونية الصحيحة .

والشعوب العربية والاسلامية ما كانت تُدرِك ألاعيب المستعمرين من وجهة عملية لانها كانت تفتقر إلى وجود هيئات عربية اسلامية ضليعة بالقوانين الدولية .

والغرب ما يزال إلى يومنا هذا يخدع الشعوب العربية والاسلامية بالمنظمات والجمعيات الدولية التي يقيمها في بلاده مثل جمعية الأمم ، أو عصبة الأمم ـ التي اقامتها الدول المستعمرة عقب الحرب العالمية الأولى ، لتكريس الاحتلال الانجليزي والفرنسي للبلدان العربية ، وفرض الاحتلال أو الانتداب عليها ، أو الحماية في أحسن الظروف .

كذلك هيئة الأمم المتحدة التي انشئت بعد الحرب العالمية الثانية ،

من أجل تقسيم فلسطين وإقامة دولة اسرائيل . لأن قراراتها لا تحمل طابع الإلزام للتقيد بها لأنها أي قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن ذات طابع غربي استعماري بحت وحسب العرب ـ لو كانوا متضلعين بالقوانين أن يعلموا أن مجلس الأمن قد انشيء لتكون قراراته كلها في صالح الغرب . وعندما يضع ممثلو الدول العربية ، أو دول عدم الانحياز أو دول العالم الثالث قرارات تتعارض مع مصالح الدول الكبرى فانها تنقض «بالفيتو» . أضف إلى ذلك عشرات القرارت التي جاء فيها بعض الحق للعرب أو غيرهم من الشعوب الضعيفة فقد ظلت دون تنفيذ مهملة في ادراج مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة . كما هي حال القرار رقم ٤٢٥ القاضي بالانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان حيث لا يزال منذ صدوره في عام١٩٧٨ إلى يومنا هذا دون تنفيذ .

وقد تعوّد العرب والمسلمون أن يكونوا منقادين يقودهم الغربيون بالانظمة التي يضعونها ومنها محكمة العدل الدولية وهيئة الأمم المتحدة ومتفرعاتها .

وهكذا فإن كل قرار يتخذ في الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة لا ينفذ ولكنه مفيد للدعاية فقط أما القرارات التي تنفذ فهي تلك التي يصدرها مجلس الأمن . . وهذا المجلس تسيطر عليه الدول الكبرى ، الولايات المتحدة ، وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي سابقاً وروسيا حالياً والصين الشيوعية «الفيتو» سيف قوي مصلت على رؤوس الدول الضعيفة عندما يُصْدِر مجلس الأمن قرارات بصالحها .

لماذا لم تقم هيئة دولية عربية ـ اسلامية ؟ . . .

انه لمستغرب جداً أن نرى الدول العربية والاسلامية ترفض رفضاً أحكام العقل والقوانين السليمة . . وذلك لأن معظمها دول مُؤَيِّدَة للغرب

أو مواليه له .

وكان من المفروض أن يكون للدول العربية والاسلامية هيئة دولية أو جمعية عمومية، كذلك محكمة عدل دولية عربية ـ اسلامية.

وعندما تصل هذه الدول إلى هذا الحد من الادراك والوعي القومي والقانوني ومن القوة أيضاً ، فانها ستنسحب فوراً من هيئة الأمم المتحدة وعندئذ ، لا تصبح القرارات التي تصدرها المؤسسات الغربية المتواطئة ملزمة للعرب . . وحسبنا أن نعلم أن اسرائيل التي انشئت بقرار صادر عن مجلس الأمن ، ترفض التقيد بقبول أي قرار يصدر عن مجلس الأمن أو الجمعية العمومية ، إذا كان يتعارض مع مصالحها وقوانينها الاستعمارية التي تصدرها وتطبقها في فلسطين المحتلة . وذلك لسبب واحد هو انها تعرف وتدرك بأن المؤسسات الدولية ، انشئت لخدمة مصالح الغربيين المستعمرين القدماء وهي ربيبة الاستعمار الغربي ومحسوبة عليه . وعندما تمتنع الدول الغربية عن التصويت أو تعارض القرارات التي تصدر ضد اسرائيل ، فانها أي اسرائيل تعلم بأن الدول الغربية التي تساندها لا تقر ولا تعترف بتلك القرارات ، لذلك فهي تعتبرها قرارات شكلية وغير ملزمة وغير قابلة للتنفيذ والتطبيق ولكنها قرارات حتمية «للعبة السياسية» التي يمارسها الغرب فعندما تكون القرارات في صالحه أو في خدمة مصالحه فانه يعترف بها ويدلي باصواته إلى جانبها ، وإذا كانت ضد صالحه أو مصالحه فإنه يكتفي بالامتناع عن التصويت وهذا معناه انها قرارات شكلية غير نافذة .

والدول العربية والاسلامية معاً ما زالت تتخبط بالدوامة الغربية وتدور معها في حلقة مفرغة لسبب واحد هو أن هذه الدول لا يوجد فيها رجال قانون متضلعون بالقوانين «والألاعيب السياسة» التي يمارسها الغرب ، وأن معظم الدول العربية والاسلامية ذات انظمة مفروضة على شعوبها فرضاً أما

بالانقلابات العسكرية أو بالتقاليد التي تسمى انظمة .

ولنضرب مثلاً أن لصاً هاجم منزلاً لا ليسرق متاعه فحسب بل ليحتله ويقيم فيه ، فصاحب المنزل يرفع دعوى للقضاء وعندئذ يصدر القاضي حكماً ـ بموجب القانون ـ يقضي بالقبض ، على اللص والحكم عليه بعقوبة السجن القانونية ، ويعيد المنزل المغتصب لصاحبه .

هذا المثل ينطبق كل الانطباق على أية دولة تهاجم بلداً وتحتله بالقوة وتقيم فيه وعملها هذا بنظر القضاء والقوانين السليمة يشكل جرماً ، وعندما تعمد الدولة إلى فرض معاهدة على سكان البلد المغتصب لتنتزع منهم اعترافاً باحتلال بلدهم ، فان هذا العمل المستند إلى القوة الغاشمة يشكل جرماً ثانياً بحق الدولة المغتصبة :

وعندما يكون ثمة محكمة أو هيئة دولية موجودة ، فان القانون الدولي يحاكم الدولة المغتصبة على الجرم الأول والثاني بالأدانة . وكما أدين اللص الذي هاجم المنزل واحتله كذلك فان من واجب المحكمة الدولية أن تدين الدولة المعتدية التي استعملت سلاحاً غير مشروع لاحتلال البلد المغتصب ، وفرض ارادتها ومعاهداتها على سكانه فالدولة المغتصبة تعتبر في نظر القانون دولة معتدية .

وعندما ينعدم وجود محاكم دولية لمحاكمة الدولة المعتدية فإن الأمر يصبح منوطاً بسكان البلد المحتل لتحريره من اللص المغتصب ، وذلك حق مكتسب لكل الشعوب المستعبده التي تحتل بلادها دولٌ مغتصبة وهكذا فإن المقاومة تصبح عند هذا حقاً مشروعاً للدفاع عن الوطن ولطرد المحتل بقوة السلاح .

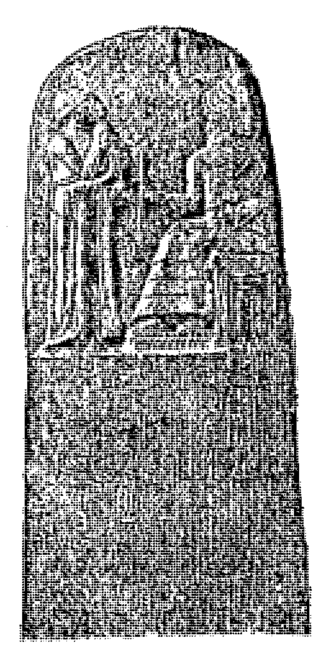
فرنسا تطبق القوانين الرومانية على مستعمراتها

لما ثبّتت فرنسا أقدامها فوق الأراضي الجزائرية وراحت تمارس سياسة انتزاع الاراضي من اصحابها لاعطائها للمستعمرين الذين جيء بهم من فرنسا أصدرت وبقوة السلاح قرارات في عام ١٨٤٤ وفي عام ١٨٤٦ ، بالاضافة إلى قرارات اصدرها مجلس الشيوخ الفرنسي في ٢٢ ابريل ـ نيسان ـ سنة ١٨٦٣ تقضي بانتزاع الاراضي من اصحابها الجزائريين . استندت فيها إلى قوانين رومانية قديمة ، فسرت «بالحق الروماني» لانتزاع الأراضي ، والرومان كانوا مستعمرين وقوانينهم استعمارية . وكلمة قوانين المستعملة افتآت وتعدٍ على الشرائع والقوانين السليمة ، لأن ما كان يصدره الرومان من اجراءات جائرة في عصورهم المظلمة ، إنما كانت قرارات جائرة تطبق بواسطة الفيالق الرومانية ، لذلك فهي ليست قوانين حتى ولا شبه قوانين انها قرارات استعمارية تطبق بالقمع والبطش والقتل والقوة القاهرة مثل البلاغات العسكرية الحربية ، انها قرارات جائرة وضعت لتطبيق المثل الروماني الاستعماري القائل: «الويل للمغلوب» ومن المؤسف حقاً أن معظم الجامعات في الدول العربية تشمل فيما تشمل مدارس للحقوق لا تزال حتى يومنا هذا تدرس القوانين الرومانية ، على اعتبار انها قوانين سليمة صالحة للدرس . في حين أنها قرارات صادرة عن إرادة غلابة متسلطة أرادت أن تفرض إرادتها بالقوة على شعوب البلدان التي احتلها الرومان بالجيوش الرومانية والأسلحة الرومانية هذا مع العلم بأن تلك الشعوب قاومت بارادتها المشروعة وقوانينها المشروعة ارادة الرومان المسلحة بالقوة الغاشمة ، ودافعت دفاع الأبطال عن بلادها ووجودها لذلك لا تعتبر هزيمة المقاومين المدافعين عن بلادهم إستسلاماً وقبولاً وخضوعاً للاحتلال كما لا يمكن على الاطلاق الاعتراف بارادة الرومان المغتصبين التي تحولت إلى قرارات يزعم بأنها قوانين شرعيه .

لقد كان في بيروت مدرسة رومانية تُدرس فيها ما كان يسمى «بالحقوق والتشريعات الرومانية» مع التأكيد على أن كلمة حقوق هنا وضعت في غير موضعها ، لأنه لا يمكن الاعتراف بأي شكل من الاشكال ، بأن احتلال بلد ما بالقوة والاغتصاب يعتبر «حقوقاً» وإلا فقد مسخ العدل ومسخت القوانين ، فالمدرسة الرومانية كانت تدرس قرارات الاغتصاب وتسميها «حقوقاً» والجهال كانوا يقبلون بهذه التسمية لأنهم كانوا عمياً . . والاعور في بلد العميان كان امبراطوراً رومانياً . .

إن مصائب الشرق منذ عهود احتلال بلدانه تنحصر في أبنائه الذين تربوا ونشأوا تحت ظلّ المستعمرين ، امبراطورية الاسكندر المقدوني والأمبراطورية الفارسيَّة ومن بعدها الأمبراطورية الرومانية «والأمبراطورية البيزنطية والامبراطورية العثمانية . ومن خلال هذه العهود لم يتح للشعوب العربية والاسلامية وبلدان الشرق قاطبة ان تحكم نفسها بموجب قوانين وتشريعات منبثقة من صميم الحياة الاجتماعية فيها ، فالإغارقة والرومان كانوا يصدرون قرارات لتثبيت الاحتلال ويطلقون عليها اسم قوانين وتشريعات وذلك خلافاً لحقوق السكان المحتلة بلادهم وخلافاً لتشريعات سابقة كانت موجودة مثل شريعة الكنعانيين . التي لا نعرف عنها إلا القليل ، باستثناء شرائع حمورابي .





شرائع حمورابي أقدم الشرائع الباقية (٢١٠٠ ق.م) اسطوانة من حجر الديوريت طولها ثماني أقدام تقريباً منقوشة عليها الشرائع في ثلاثة آلاف وست مئة سطر. وعلى رأسها صورة مجسَّمة للملك حمورابي وهو واقف الى اليسار يتناول الشرائع من الاله الشمس الجالس الى اليمين.

وشرائع حمورابي يمكن الاعتماد عليها كنصوص قانونية تاريخية بأنها كانت شرائع في صالح السكان . شريعة حقوق الانسان ، شريعة احتلال الأرض ، شريعة الزواج ، شريعة الاسرة ، شريعة الزراعة والعمل وامثالها كلها وضعت في صالح المجتمع العموري الكنعاني في شمال سوريا والعراق وهي شرائع نزيهة لا يوجد فيها تعدٍ على حقوق السكان ، لأنها أساساً وضعت لتقرير حياة السكان ، ومصائرهم فلا يوجد فيها اغتصاب ولا قمع ولا تهديد أو وعيد ولا تسلط في غير موضعه . . وكذلك الشرائع الإسلامية المستمدة من احكام القرآن الكريم التي لم تطبق تطبيقاً صارماً وإنما

أخضعت للاجتهادات والممالأة والتحيُّز وغض النظر في معظم الأحيان فالشاعر أبو دلامة الذي كان مدمناً على شرب الخمر المحرَّم حسب الشريعة الاسلامية طلب من الخليفة العباسي بصراحة أن (يحتال له) بمعنى أن يسوِّغ له شرب الخمر فأصدر الخليفة أمراً جاء فيه «من يقبض على ابي دلامة متهماً بشرب الخمر يحكم عليه بمئة جلدة. في حين يحكم على أبي دلامة نفسه بثمانين جلدة فصار رجال الشرطة يقولون من يشتري مئة جلدة بثمانين ؟ وقس على ذلك لأن الخلفاء بعد المنصور من العباسيين وقبله من الأمويين كانوا يتعاطون شرب الخمر ويبددون أموال الدولة على ملذاتهم وأهوائهم غير المشروعة .

حاجتنا إلى القوانين

ان افتقار الأمة العربية إلى رجال متخصصين بالتشريع أمر معروف ومشهور ، فالقوانين العربية حتى في عهود الاستقلال لا تزال مستمدة من القوانين الانجليزية والفرنسية وربما الايطالية والسويسرية وغيرها .

إذن ، لا يوجد قوانين عصرية مستمدة من الحياة الاجتماعية والتطور الاجتماعي والبيئة والوسط والاعراف السليمة ، والتقاليد الصحيحة ، والحركات الثورية إلى آخر ما هنالك .

والقوانين المقتبسة من القوانين الاوروبية اتخذت القشور ولم تغص إلى اللباب ، هذه القشور لحقها تحوير وتدوير وتغيير . فمثلاً : القوانين الانجليزية الثابتة المتعلقة بنظام الحكم ، تعترف بوجود الملك والملكه على رأس الحكم ولكنهما لا يحكمان .

وهذه القوانين تسري على الأحزاب وعلى مستوى المساواة ، فحزب المحافظين أو العمال يحكم في نطاق القوانين المشروعة ولا تغيير ولا

تبديل . وإذا ما أراد أحد الاحزاب أن يغير أو يبدل فإن ذلك يعرض على مجلس العموم «البرلمان» لا قراره .

أي أن الحزب الواحد لا يستطيع أن يفرض نفسه على جميع الأحزاب ولكن الامور في الاقطار العربية تجري على عكس ذلك تماماً . فحرية تعدد الأحزاب تكاد تكون مفقودة في دولة ما ولكنها موجودة في دولة أخرى .

والقوانين في الولايات المتحدة تفرض على الشعب حقوق انتخاب رئيس الجمهورية الأمريكية لمدة أربع سنوات وقد يجدد للمرة الثانية والشعب هو الذي ينتخب رئيس الجمهورية ، أما في الاقطار العربية فلا وجود لهذه الأشياء كلها وكم نحن في البلاد العربية بحاجة بعد كل هذا إلى وضع قوانين تنبع من ديننا وطبيعتنا وعاداتنا وتقاليدنا دون أي اقتباس أو ترجمة أو تَبَنٍّ لأفكار غريبة مستوردة أليس من العار أن يعيش العرب في نهاية القرن العشرين وهم مجزأون وليس لديهم قوانين تشريعية ثابتة لا تُحوَّر ولا تُدَوَّر وفقاً لمصالح هذا أو ذاك؟ . . ذلك أنه لا يمكن لأمة أيّاً كانت أن تعيش دون قوانين وشرائع ثابتة ولا يمكن لها بالتالي أن تحافظ على بقائها واستمرارها .

لقد ضاعت الأندلس وفلسطين بسبب التجزئة والضعف وضاعت الاسكندرون وانطاكية وعما قريب سيجتاح الزحف الصهيوني المؤيد بدول الغرب والمستظهر بها أقطاراً عربية أخرى والله أعلم ونسأله أن يجيرنا من الأعظم .

لماذا تميّز الدول الخمس الكبرى في مجلس الأمن؟

ونعود إلى مجلس الأمن. المفروض فيه أنه هيئة تشريعية مخولة المصادقة على القرارات التي تقدمها الشعوب المظلومة والمؤيدون لها أو

رفضها . . إن مجلس الأمن هذا لا يؤمن بالمساواة ولا بحقوق الإنسان ولا بحقوق الضعفاء المغلوبين .

والدليل على ذلك كما اشرنا سابقاً أن الدول الخمس الكبرى في مجلس الأمن يتمتع أعضاؤها بالبقاء السرمدي الدائم في حين تتبادل سائر الدول العالمية ما تبقى من مقاعد مجلس الأمن بالدور ولا تنال هذا المقعد إلا الدَّوْلَة التي تدور في فلك هذه الدول الخمس ، وقد أعطت هذه الدول الخمس نفسها حق الاعتراض على كل قرار لا يتفق مع اغراض ومقاصد ونوايا أي دولة من الدول الخمس الكبرى . هذا التمييز بين الدول في نظر الشرائع السليمة يعتبر مخالفاً للشرائع ، لأنه لا يؤمن بالمساواة بين الدول والشعوب وعندما لا تكون مساواة بين الدول والشعوب في مجلس الأمن فهو يصبح والحالة هذه هيئة سياسية عنصرية خاصة تتمتع بفرض إرادتها على الدول والشعوب الأضعف شأناً. ومن المعلوم أن بين الدول الخمس المذكورة دولتان شيوعيتان اشتراكيتان ، وافقتا على تلك الأجراءات والامتيازات العنصرية بمحض إرادتهما وهذا يعني أن الدول الشيوعية تلتقي مع الدول الامبريالية في كثير من وجهات النظر عندما تكون المواقف متطابقة ومتفاهماً عليها . . فإذا كانت حقوق الشعوب ضائعة في مجلس الأمن ، فإن الحق المنفرد الباقي والمعروف باسم حقوق الإنسان يصبح «لعبة سياسية» في يد الدول الكبرى . مثل جائزة نوبل التي منحت منذ سنوات للارهابي القاتل بيغن رئيس حكومة العدو اليهودي المغتصب .

والولايات المتحدة تطنطن بحقوق الانسان وهي من جهة أخرى تقدم اسلحتها الحديثة الفتاكه للدولة اليهودية المغتصبة وتَمُدُّها بالهبات والعطايا . وعندما كان الرئيس الامريكي كارتر يطالب الاتحاد السوفياتي [١]

(١) كان الاتحاد السوفييتي يومها دولة عظمى قبل ان يفكك .

بتطبيق شريعة حقوق الإنسان في بلاده كانت الاسلحة الاميريكية تلعب دور القمع والقتل في جنوب لبنان وفي فلسطين وفي عدد من دول امريكا اللاتينية . . ولعل هذه المهزلة الامريكية ينطبق عليها قول أبي العلاء المعري :

هـذا كـلام لـه خبيءٌ معناه ليس لنا عقول

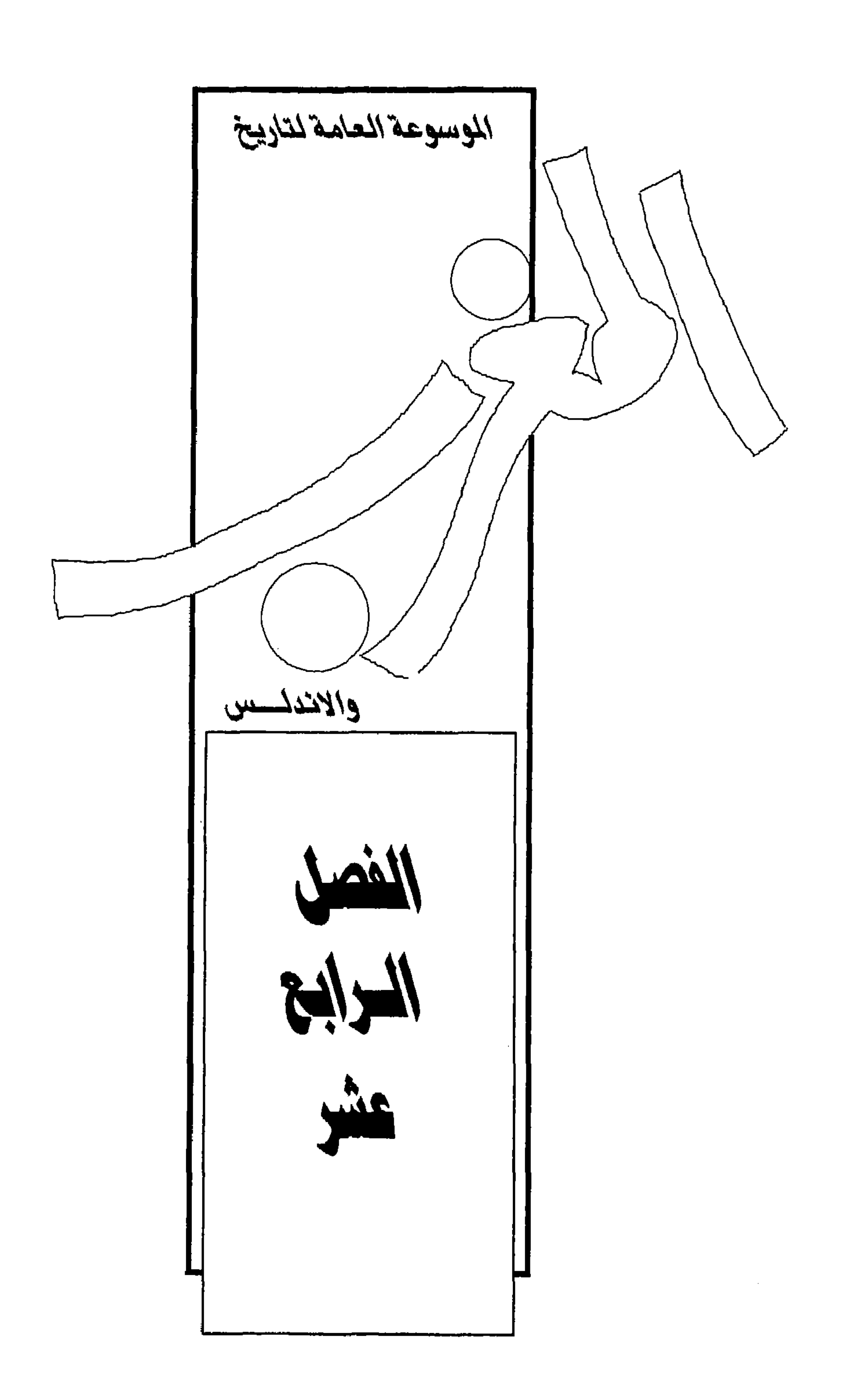
ألم تكن وجهات النظر متطابقة بين الاتحاد السوفياتي والدول الاوروبية كبيرها وصغيرها على تقسيم فلسطين وطرد سكانها من بلادهم لحساب اليهود؟

الجواب على هذا السؤال تقدمه فلسطين نفسها منذ عام ١٩٤٧ إلى يومنا هذا . . هل بقي شيء من فلسطين بايدي سكانها لقد اصبحت فلسطين مستعمرة يحتلها اليهود الاوروبيون بعد أن طردتهم الدول الاوروبية من بلادها ، واليهود الروس يشكلون نسبة مرتفعة في فلسطين المحتلة ورحم الله الشاعر الذي قال :

وكل أناء بالذي فيه ينضح



المولى يزيد بن محمد بن عبدالله



الفصل الرابع عشر

السلطان محمد الرابع

١٨٥٩ ـ ١٨٧٣م

بعد سقوط الجزائر في أيدي الفرنسيين وضع سكان تلمسان مدينتهم تحت حماية السلطان عبد الرحمن وبعد وفاته تولى الحكم ابنه محمد باسم محمد الرابع . وكان متعلماً يحسن التحدث باللغة الفرنسية متزن العقل راجحه ، ملماً باحوال بلاده مطلعاً على السياسات الأوروبية المختلفة . وقد استقبل الشعب المغربي عهده الجديد بأمل كبير لكي يحفظ استقلال البلاد ويصونها من التوسع الاوروبي ـ الذي تحول من قرصنة بحرية لمهاجمة السفن التجارية والحربية ـ إلى قرصنة استعمارية توسعية ترمي إلى احتلال شمال افريقية على الرغم من أن مؤتمر فيينا قد حظّر القرصنة ولكنه لم يحدد في ذلك «الحظر» نوع القرصنة المطلوب فرض الحظر عليها .

دول الغرب ومؤتمر فيينا

ومن البديهي أن مؤتمر فيينا لحظر القرصنة وتحريم الرق إنما حضره ووضع بنوده الاوروبيون ، لذلك فهو من وجهة قانونية لا يسري مفعوله إلا

على الدول غير الاوروبية . ولكن هذه الدول أباحت لنفسها القرصنة على الشواطىء الامريكية والجزر الواقعة قبالة خليج تكساس ، وعلى شواطىء كندا ، كما أباحت لدولها حق خطف العبيد من القارة الافريقية وبيعهم في الولايات المتحدة للمزارعين الامريكيين البيض . هذا بالاضافة إلى أن بريطانيا كانت تستعبد سكان المستعمرات التي تحتلها وكانت كل مزرعة يملكها انكليزي تستخدم سوداً مستعبدين إلى الأبد كمستعمرة جامايكا وغيرها من المستعمرات .

ولكن الدول الاوروبية اتخذت من مقرارات مؤتمر فيينا وسيلة للتحرش بالمغرب والجزائر وتونس وطرابلس ، مع أن قرارات المؤتمر لا تسري إلا على الدول الأوروبية فقط على اعتبار أن أحداً من مُمَثِّلي دول شمال افريقية لم يدع لحضور مؤتمر فيينا . . لذلك قرر المؤتمرون أن يفرضوا قراراتهم على الدول الاسلامية فقط ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة . ولو كانت الجزائر وتونس وطرابلس دولاً قويه في البر والبحر لما تجرأت الدول الاوروبية على فرض مقرراتها عليها . . ويقال مثل هذا بالنسبة لكل مؤتمر أوروبي أو امريكي يعقد ولا يحضره مندوبون أو ممثلون عن الدول العربية ، فإن مقرراته تكون ملزمة للدول الغربية فحسب وبوسع كل دولة لم تدع إلى المؤتمر ولم تحضره أَنْ لا تعترف به ولا بمقرراته .

ويبدو أنها اصبحت بدعة تتخذ طابع العرف أو التقليد عند موت السلطان القديم واعتلاء السلطان الجديد عرشه أن يثور عليه واحد من أفراد الاسرة الملكية ، فالسلطان محمد الرابع واجه انتفاضة من هذا القبيل قادها عبد الرحمن بن السلطان سليمان الاسبق ، وبما أن الانتفاضة سويت باللتي هي أحسن أو بالتي هي أسوأ إن صح التعبير فقد واجه السلطان تحركاً اسبانياً جديداً هدفه التوسع . . بعد ما ادركت اسبانيا أن فرنسا التي استولت على

جزء من الجزائر تستعد ـ مع الوقت ـ وبعد أن تصفي حساباتها مع الأمير عبد القادر الجزائري ، أن تصفي كذلك حساباتها مع المغرب ، أما مسألة انخفاض سعر النقد المغربي بالنسبة للعملة الاوروبية فكان حادثاً طارئاً من تدبير الدول الاوروبية لإضعاف الاقتصاد المغربي حتى لا يتسنى له إعادة تشكيل جيش جديد ليحل محل الجيش الذي أفناه الفرنسيون في معركة «إيلي» المذكورة آنفاً .

تحققت كل التوقعات دفعة واحدة إذ ما لبثت أن شنت أسبانيا هجومها على زفارين واحتلت الجزر الجعفرية في الشمال ثم استبدلت الاكواخ الخشبية التي بنوها على حدود مدينة سبته بمبانٍ عالية ومحصنة تحدياً للسلطان . وتذرع الأسبان بحادثة بسيطة لاحتلال مدينة تطوان وهي أن قبيلة «أنجرة» المغربية بصقت على العلم الاسباني ومزقته فأرسل الأسبان انذاراً إلى الملك بوجوب تسليم زعماء تلك القبيلة وإلا زحفوا على تطوان .

وراح السلطان محمد الرابع يهيب بالقبائل الجبلية وغيرها لمساعدته على جهاد العدو الذي يهدد بتوسع جديد على حساب أراضي المغرب ، ويبدو أنه تمكن من حشد ٦٥٠٠ مقاتل نظامي في حين أخذت قبائل أخرى تهاجم الاسبانيين وتعيق تقدمهم .

وكان الانجليز ما يزالون محتفظين بمقاعدهم في قصر السلطان كمستشارين. لذلك نصحوه لا بل غشوه على الأصح . بأن يلجأ إلى التفاوض والمساومة ، وازاء هذا العجز من جانب «المخزن» ثار السكان بممثّليه . وهاجموا مدينة تطوان[1] فأسرعت هذه وفتحت أبوابها للأسبان عام ١٨٦٠ الذين أخذوا يستعدون للزحف منها على طنجة .

---

(١) راجع في هذا تاريخ تطوان لمحمد داود ١٩٦٤ ص٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

شروط الصلح مع اسبانيا

ولكن بريطانيا الماكرة ـ التي كانت تتخلى عن السلطان في الازمات ثم تبادر إلى مساعدته عند انتهائها لصالح الأسبان ـ لكي تضعه تحت رحمة الشروط التي ستفرضها عليه ـ فتدخلت بحجة أن وجود قوات اسبانية قريبة من جبل طارق يضر بمصالحها ، وعرضت على السلطان أن تقوم بمبادرة للمصالحة ، فتم الصلح بين الذئب والحمل بشروط وافق عليها الثعلب الانكليزي وهي تقضي: بأن يتعهد المغرب بدفع عشرين مليون ريال لاسبانيا تعويضاً لها عن خسائرها في حرب تطوان . . وتوسيع المنطقة المحتلة حول سبته مع تعهد المغرب باعطاء اسبانيا قاعدة لصيد الاسماك على شاطىء الاطلنطي تعويضاً لها عن مصيدةٍ للأسماك ادعت انها كانت تملكها في القرن الخامس عشر الميلادي . كما تعهد المغرب باعطاء امتيازات للرعايا الاسبان على غرار الإمتيازات التي منحها المغرب للبريطانيين .

ان فرض مثل هذا المبلغ الكبير على المغرب باتفاق اسبانيا وبريطانيا كان اكثر من أن تتحمله المالية المغربية وأنَّى لها مبلغ العشرين مليون ريال لتدفعها إلى اسبانيا التي تحرشت بها وهاجمتها واحتلت اجزاء من أراضيها .

وأصرت المغرب على أنها ستظل مالكة لمدينتها تطوان وتعهدت بالدفع . . وهنا تقدمت بريطانيا باقتراح لاقراض الدولة المغربية نصف الغرامة المذكورة ـ ويا لها من كارثة ـ لأن السلطان بقبوله الدفع والاقتراض من الانكليز يعني أنه قد فتح أول دفتر للاقتراض من المستعمرين . ثم اضطر إلى القبول بمرابطة مندوبين أسبان في الموانىء المغربية لاستيفاء باقي الغرامة من مداخيل المغرب على البضائع المستوردة وهذه كارثة أخرى جعلت الجلاء عن تطوان يتأخر ١٧ شهراً .

وبعد مضي سنتين ونصف استوفى الذئب الاسباني ديونه وقبض الغرامة المزعومة . ولكن مسألة انشاء قاعدة لصيد الأسماك تأجلت ثمانين عاماً ، ولم تتحقق إلا عام ١٩٣٤ وهي التي أصبحت فيما بعد مسمار جحا الاسباني . أي بعد أن استولت أسبانيا على «إفْنِي» التي حررها فيما بعد الملك الحسن الثاني على أثر عقد اتفاقية مع الجنرال فرانكو .

السلطان محمد الرابع ينشيء جيشاً نظامياً

بعد هذه العاصفة الاسبانية انطلق السلطان محمد في مسيرته الاصلاحية فأنشأ جيشاً نظامياً تتمثل فيه كل قبيلة بفيلق يتراوح تعداده بين ٥٠٠ و٣٠٠٠ مقاتل وفقاً لعدد نفوس القبيلة . وربطت الفيالق بقيادة عامة ـ السلطان على رأسها ـ هذا في البوادي . أما في المدن والثغور فقد قسمت الوحدات ، والفيالق إلى مشاة وسلاح فرسان ، ووزع الفرسان على القلاع والبروج ، كما خصص لكل قلعة ٤٠٠ فارس لمساعدة سلاح المدفعية الذي عزز بمدافع جديدة وبأسلحة تقليدية مثل المنجنيقات والمهاريس .

كما استحدث السلطان فيلقين نظاميين متحركين زودهما بالاسلحة الحديثة وطعمهما بضباط من رفاق الأمر عبد القادر الجزائري الذين اكتسبوا خبرةً قيادية في الحرب ضد الفرنسيين واحرزوا انتصارات باهرة على القوات الفرنسية .

انطلاق عجلة التقدم

أما في الحقل الزراعي فقد اهتم السلطان محمد بزيادة مساحة الأراضي الزراعية المرويَّة عن طريق تجديد قنوات الري واستغلال المياه الجوفية . كما عني بادخال ما أمكن من الماكينات الزراعية واستعان بخبير فرنسي في الزراعة بعد أن تقرر ادخال زراعة القطن حتى اصبحت «دكالة»

تنتج من القطن ما تبلغ قيمته مئة الف فرنك ذهبي كما جلب معملاً أو اكثر لتكرير السكر خصوصاً وأن معمل «اكدال» في مراكش كان يعمل بصورة منتظمة في تكرير السكر .

كما اهتم بناحية العلم وتدريس اللغات الاجنبية واستقدم علماء من بلجيكا لهذه الغاية ، وأقام مراصد فلكية في فاس ومراكش ، كما انصبَّ اهتمامه على تخصيص دروس للعلوم والرياضيات وفقاً للمناهج الاوروبية .

وبالرغم من كل هذا فإن مسألة إقامة مصانع حربية لم تتوفر . فلم يذكر أن ميكانيكيا تمكن من صناعة مدفع أو بندقية أو أي أداة من أدوات الحرب المتطورة .

وكل ما تمكنوا من صنعه وعمله لخصه المؤرخ الناصري بقوله : «تأنقوا في البنيان وطعموه بالزليج والرخام ، والنقش البديع لاسيما في فاس ، ورباط الفتح ، ولاحت على الناس سمات الحضارة الأجنبية» كما هي الحال الآن ، في بلدان الشرق الأوسط ، حيث يوجد تأنق بالملبس الافرنجي وشقشقة لسان باللغات الأجنبية ، والدول العربية تنفق المليارات على شراء الأسلحة من أوروبا والولايات المتحدة .

في ذلك العصر من أواخر القرن الثامن عشر كانت العلوم في مختلف مدارس وجامعات البلاد العربية مقتصرة على دراسة القرآن وعلوم الحديث والفقه والاجتهادات المذهبية وعلوم اللغة المعقدة . . . وبهذه العلوم كانوا ينهكون عقول الطلبة ويميتون مواهبهم فلا يتخرج منهم سوى المقرئين ومشايخ المساجد وكتاب الدولة وهذا كل شيء . . وهذا هو أساس العلل والتأخر والانحطاط لأن التعليم العصري المتطور والحضاري الذي يقود إلى الاختراعات والتقدم والتجديد كان معدوماً والأكثر من ذلك هو أن التلامذة

كانوا منذ الصغر يتعودون على الكسل والتواكل وعدم البحث والتحصيل .

رفع التَّمثيل الدبلوماسي مع المغرب

وبعد حرب تطوان رفعت الدول الاجنبية تمثيلها في المغرب من درجة قنصلية إلى درجة مفوضية ومعنى ذلك مضاعفة عدد الجواسيس والعملاء وشراء الضمائر والذمم . وعهد بالشؤون الخارجية إلى وزير البحر وهو باشا طنجة .

واعطى السلطان امتيازاً دولياً لإقامة برج المنار في طنجة . عام ١٨٦٥ ليرشد السفن في عرض البحر ، ولسنا ندري لماذا أعطي ذلك الامتياز للدول ، بينما كان في وسع البنائين الذين يشيدون منارات المساجد أن يشيدوا منارة لارشاد السفن .

كما أقر في عام ١٨٧٢ إنشاء مجلس صحي تمثل فيه البعثات الديبلوماسية للعناية بالحالة الصحية العامة ، ولا ندري أيضاً ما هو الدور الذي سيلعبه الديبلوماسيون في هذا المجال غير أننا عرفنا أنه بعد مرور حوالي ٣٢ سنة على ذلك التدبير غدت تلك الامتيازات نواة للنظام الدولي الذي فرض على طنجة في عهد الحماية على المغرب .

وهكذا كان السلطان محمد الرابع يقع في المطبّات والاشراك التي ينصبها له الديبلوماسيون الأجانب لإيقاعه في حبائلها . . ومع ذلك فقد قال احد المؤرخين عنه بأنه أي السلطان: «كان معروفاً منذ أيام أبيه برجاحة العقل وسعة الاطلاع . . »

وفي أثناء عملية الاستغفال هذه واصلت الحكومة الفرنسية ضغطها على المغرب ـ حتى اقر للمؤسسات والمحلات التجارية الفرنسية بتأسيس فروع لها في الأراضي المغربية ، لقتل الصِّنَاعة الوطنية وللحيلولة دون إقامة

صناعة حديثة تغني البلاد عن المستوردات الأجنبية ، وما أن اقيمت تلك الفروع الاقتصادية والتجارية واستخدم فيها موظفون مغاربة ـ حتى منح كل هؤلاء حصانة ديبلوماسية . وبذلك صار محظوراً على دوائر العدل والقضاء التحقيق مع أي منهم أو محاكمته دون الحصول على موافقة مسبقة من المفوضية الفرنسية في طنجة .

وهكذا استغفل السلطان ومنحت الحصانة الاجنبية لكل شخص فرنسي أو عميل لفرنسا .

وقيل في تعليل إعطاء كل تلك التنازلات للأجانب ـ لكي يحول السلطان دون احتلال المغرب . . مع العلم بأن فرنسا كانت تنتهج سياسة بطيئة للسيطرة على مرافق الدولة في المغرب بدون حرب أو قتال حتى لا تثير الرأي العام العالمي ضدها .

ترى هل كان في ذلك العصر رأي عام عالمي له أهميته واحترامه؟ . . . وأخيراً توفي السلطان في عام ١٨٧٣ دون أن يحقق شيئاً يذكر ـ بعد أن حكم اكثر من ١٣ عاماً .

حذار التقليد

تجدر الإشارة هنا إلى أن كتابة التاريخ في عصرنا الحديث تتطلب المزيد من الوعي والفهم والإدراك والإحاطة بالأحداث حتى لا يقع المؤرخ الحديث في حبائل المؤرخين الماضين وتمويهاتهم وإلباس الباطل ثوب الحق ، والحق ثوب الباطل . . فالمؤرخ الذي يلجأ إلى التمويه والخداع والتضليل بغية نوال الأجر ، يضر بالدولة التي يكتب تاريخها ويضلل القراء الذين سيقرأون كتابه ويبعدهم عن الحقائق بالتزوير والتزييف والخداع ويكون في عمله هذا يتستَّر على الاخطاء والعيوب بينما الهدف الاسمى من

كتابة التاريخ هو تحديد العيوب والأخطاء والإشارة إليها بوضوح وصراحة لمنع تكرارها في المستقبل .

بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

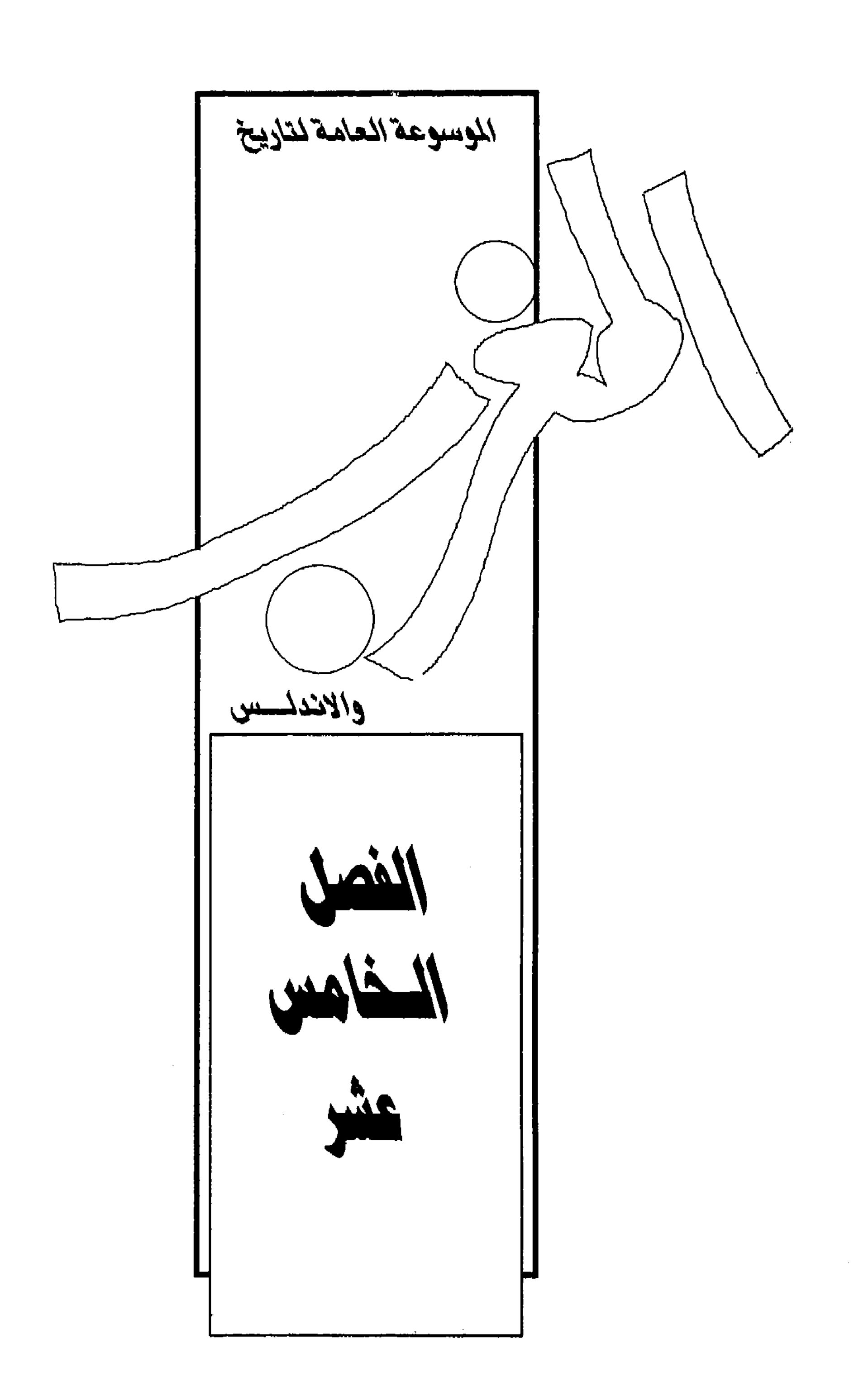
وكتب عبد الله محمد اليزيد المهدي الحسني لطف الله به آمين

كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره يستقر بيد الحامل له الباشدور الوارد من عند عظيم إصبانية الري كارلوس لحضرتنا العالية بالله تعالى يتعرف منه بحول الله وقوته أنه ومن قدم معه ممن وجههم الري كارلوس عندنا في أمن وأمان في قدومهم ومقامهم عندنا ورجوعهم ولا يرون منا إلا الأمان التام وفي الرابع والعشرين من المحرم عام ستة ومايتين والف

LAM. V. — Reproducción del salvoconducto expedido por Mawlāy al-Yazīd a favor del embajador de España (núm. 19).

عن مقابل الصفحة ١٣٤ من كتاب :
" Cartas Arabes de marruecos "
المطبوع في تطوان سنة ١٩٦١

مؤتمر الدار البيضاء لعام ١٩٦١ ويرى جلالة الملك محمد الخامس في الوسط والى يمينه
ولي العهد مولاي الحسن وإلى يساره الرئيس جمال عبد الناصر


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل
الــخامس
عشر

السلطان الحسن الأول
بن محمد الرابع بن عبد الرحمن

١٨٧٣ ـ ١٨٩٤

في ذلك الوقت كان العمل السياسي شبه معدوم في شمال افريقيا وبدائياً في الدولة العثمانية وبلاد العرب «مصر وسوريا وفلسطين» لأن علم السياسة لم يكن يلقن في الأزهر ولا في جامعة القرويين ولا في المدارس الأميريَّة أو في الكتاتيب وبفقدان رجال السياسة المحنكين في الشرق وشمال افريقية ، راح المستعمرون يرسمون خرائطهم على الطبيعة للاجهاز على دولة «الرجل المريض» في دولة بني عثمان .

وكانت بريطانيا بالرغم من تظاهرها بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في أكثر من مناسبة ، تعمل من وراء الستار على تحقيق خارطتها التي رسمتها لحماية طريق الهند ، ابتداءً من مصر . التي كان يحكمها الخديوي اسماعيل باشا من اسرة محمد علي الألبانية ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ .

انشاء قناة السويس

بدأت اعمال الحفر في قناة السويس في عهد محمد سعيد اصغر أبناء محمد علي باشا والي مصر. وقد حظي مشروع الحفر بموافقة الدولة العثمانية وقام مهندس هذا المشروع قنصل فرنسا في مصر الكونت فرديناند دي لسپس (De Lesseps) بعد أن نال امتيازاً لشق القناة مدته ٩٩ عاماً بدءاً من تدشين الملاحة فيها على أن تكون حصة مصر من أرباحه ١٥٪ فقط . افتتح دي لسپس اكتتاباً في أسهم الشركة التي ستتولى الأعمال وبدأت اعمال الحفر عام ١٨٥٩ واستمر العمل في شق القناة حتى عام ١٨٦٩ ولما توفي محمد سعيد عام ١٨٦٢ خلفه الخديوي اسماعيل وكان مسرفاً مبذراً اغراق البلاد بضائقة مالية كبيرة . وتضخمت ديونه فرأت بريطانية أن الفرصة سانحة للتدخل وأخذت تمد الخديوي اسماعيل بالمال . وكانت الجمعية العامة لحملة أسهم القناة المنعقدة عام ١٨٧١ قد أقرت حرمان مصر من حق التصويت لأن أرباح الأسهم المصرية قد خصصت لدفع التعويضات المستحقة للشركة بموجب التعديلات التي طرأت على الامتياز عام ١٨٦٤ وكانت بريطانية هي المسؤولة عن هذا التعديل وبالتالي عن فقدان مصر حق التصويت فصوت دلسپس عنها .

واشتد الضغط على مصر فباع الخديوي حصته عام ١٨٧٥ إلى بريطانية بمبلغ أربعة ملايين جنيه فاستمات دسرائيلي رئيس الوزارة البريطانية آنذاك في الحصول عليها وكان الانجليز والفرنسيون معاً قد زينوا لإسماعيل باشا بأن شق القناة سوف يدر عليه أموالاً كثيرة تساعده على تسديد ديون مصر والحصول على مداخيل طائلة ستكون له خير معين على اكمال برنامجه التغييري الإصلاحي هذا مع العلم بأن الخديوي لم يتوقف عن الاقتراض خلال السنوات الخمس عشرة التي استغرق العمل فيها بشق القناة . . كان

يقترض ليبني القصور الفخمة ويشق الطرق والشوارع في القاهرة والاسكندرية .

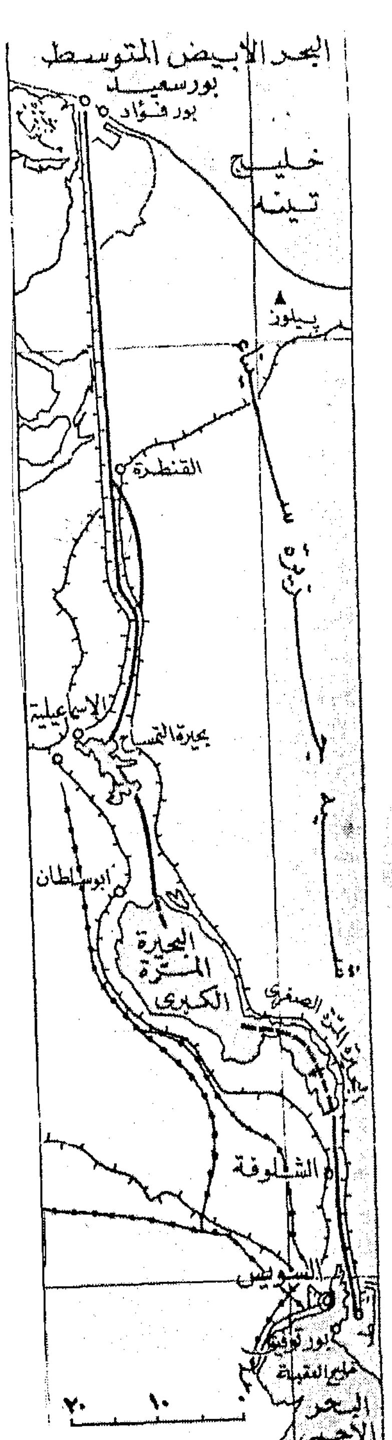
ولكن حساب الحقل لم ينطبق على حساب البيدر لأن مداخيل قناة السويس لم تمكّنه من تسديد ديونه وبذلك تكون المؤامرة البريطانية ـ الفرنسية قد نجحت في القسم الأول منها .

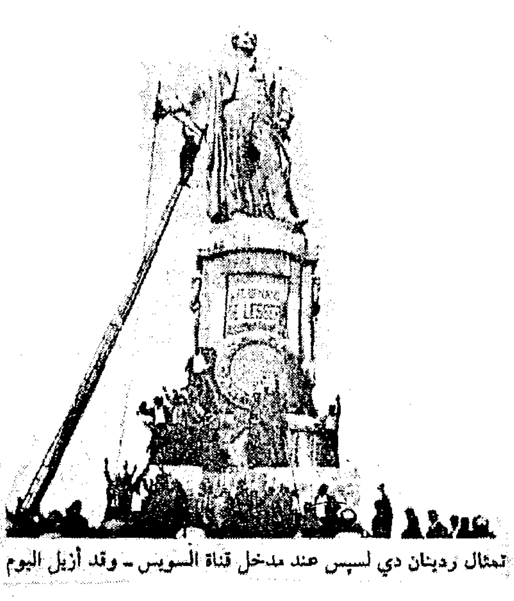
ثم بوشر في تنفيذ القسم الثاني من المؤامرة عندما أخذ الدائنون يطالبون باموالهم المستحقة ـ حتى الآن فان الخديوي يدفع قيمة الفوائد السنوية ـ ثم بدأ الضغط على مصر يأخذ طابعه الديبلوماسي ، وهنا سنحت الفرصة لبريطانيا لكي تقوم بدور المنقذ ، فعرضت على الخديوي أن يبيع القناة وأبدت استعدادها لشرائها بأربعة ملايين جنيه استرليني ـ.

«يا أُمةً ضحكت من جهلها الأمم» .

وعلى هذا تم الاتفاق فاقترضت الحكومة البريطانية ، الأموال المتفق عليها من اسرة روتشيلد اليهودية ودفعتها للخديوي .

وبهذه الحيلة السياسية تمكنت من السيطرة على قناة السويس ومن اجل إحكام تلك السيطرة لم تكفّ عن التدخل في السياسة المصرية حتى يوم الجلاء سنة ١٩٥٦ .




تمثال رديناند دي لسبس عند مدخل قناة السويس ـ وقد أزيل اليوم

الثورة العرابية في مصر

في عام ١٨٧٩ خلع اسماعيل باشا وتولى بعده ابنه الخديوي توفيق الضعيف الواهن ـ فأعار أذنيه الاثْنَتَيْن للقنصل البريطاني «هالت» فاندلعت الثورة العرابية بقيادة أحمد عرابي باشا وصحبه فرسان الجيش . وبذلك تكون بريطانيا قد باشرت في تنفيذ القسم الثالث من المؤامرة ، وهو الخاص باحتلال مصر عام ١٨٨٢ أي بعد أن تولى الحسن الأول سلطان المغرب مقاليد الحكم في بلاده بتسع سنوات . وبذلك ضمنت بريطانيا لنفسها احتلال القواعد الاستراتيجية الهامة للاجهاز على السلطنة العثمانية في عام ١٩١٧ وذلك هو القسم الرابع من المؤامرة البريطانية على مصر ودولة بني عثمان معاً .

اسبانيا تزاحم فرنسا وبريطانيا على احتلال المغرب

أما في اسبانيا ، فإن هذه الدولة كانت قد فقدت امبراطوريتها في العالم الجديد منذ عهد فرناندو السابع ملك اسبانيا ١٨١٤ ـ ١٨٣٢ وهذا ما حملها على التكالب على احتلال الثغور المغربية ، حتى لا تستأثر فرنسا بالدجاجة المغربية كلِّها .

وكما هي العادة فقد ورث السلطان الحسن الأول تركة مثقلة بالمتاعب الداخلية والخارجية فصار حتماً عليه أن يعمل ليلاً ونهاراً لإنقاذ البلاد من التدخل الاجنبي الباسط جناحيه على الثغور المغربية .

وكان قد تولى العرش المغربي بعد وفاة والده محمد الرابع وتمت بيعته في عام ١٨٧٣ عندما كانت بريطانيا تلعب الاعيبها في مصر . وبعد ثلاثين سنة من الاجهاز على مقاومة الامير عبد القادر الجزائري في وهران .

في ١٦ أيار «مايو» عام ١٨٤٣ ، والقضاء على الجيش المغربي في معركة «إيلي» في ١٤ آب سنة ١٨٤٤ ، وأبرام معاهدة طنجة في ١٠ أيلول «سبتمر عام ١٨٤٤ أي في العام نفسه وهي المعاهدة التي قضت بوضع طنجة تحت رعاية بريطانيا . وفي الوقت ذاته نالت فرنسا اعترافاً قانونياً بوجودها في الجزائر ، ولكن مقاومة عبد القادر الجزائري ظلت مستمرة . وظل الفرنسيون يطلقون على مقاومته الكلمات الاستعمارية التقليدية «العصاة والمتمردون ـ واخيراً استسلم الأمير عبد القادر في كانون الأول عام ١٨٤٧ . بعد أن سجل اسمه في قائمة ابطال الاسلام كمحارب ضليع وقائد عظيم انتصر على الفرنسيين في كثير من المعارك . وبعد استسلامه بدأت فرنسا بتحطيم المجتمع الجزائري لتقيم على انقاضه مجتمعاً فرنسياً مؤلفاً من المستوطنين الفرنسيين الذي سنحوا الأراضي والممتلكات الواسعة في الجزائر حتى بلغ تعداد الفرنسيين المستوطنين ٢٥٠ الف فرنسي في عام ١٨٧٠ احتلوا واستولوا على كل مرافق الجزائر الاقتصادية والعمرانية والسياسية وكل شيء غدا في أيديهم بعد ضمها رسمياً إليهم .

الحسن الأول يعيد تنظيم الجيش المغربي

وفيما كانت فرنسا تكشّر عن أنيابها استعداداً للإنقضاض على المغرب لتمزيقه قبل أن تبتلعه بريطانيا بواسطة مستشاريها وامتيازاتها وتجارتها المسيطرة على البلاد ، بدأ السلطان الحسن الأول العمل على تجديد الجيش المبعثر ولم شمله بعد أن حُرم المغرب من اسطوله القديم . فأدخل نظام التجنيد الاجباري على المدن ريثما يتسنى له جمع المتطوعين من القبائل الريفية والجبلية التي لم تستسغ بعد نظام التجنيد الاجباري .

ولكنه وقع في خطأ مُدبّر : عندما لم يشكل قيادة مغربية عليا للإشراف على تنظيم الجيش ، وبدلاً من ذلك اختار ضابطاً انجليزياً وسلمه قيادة

كتائب الجيش النظامي تماماً كما فعل الملك عبد الله عندما اختار كلوب باشا لقيادة الجيش الاردني[1] واستقدم بعثة عسكرية فرنسية لتدريب الجيش ، ثم انشأ مصنعاً للأسلحة في مدينة فاس أناط إدارته بضابط إيطالي ، لصنع خمس بنادق في اليوم الواحد فقط ، وقيل في تبرير هذه العملية التي وضعت الجيش النظامي المغربي وَمَصْنعَهُ بين مخالب المستعمرين ، انها تهدف إلى ايجاد توازن تعاوني مع الدول الاوروبية لمنع وجود فعل التفضيل بينها وبين الدول الاخرى ، لئلا ينقلب ذلك التفضيل إلى نفوذ يخل بالاستقلال .

[يا أمّةً ضحكت من جهلها الأمم]

خيال واهن وتدبير عاجز لافتقاره إلى الذكاء والوعي السياسي الناضج والتفكير السليم وراح السلطان يشرف على استعراضات الجيش فخصص لذلك يوماً في الاسبوع هو يوم الاثنين ـ للاشراف على التدريبات يوم الاربعاء للاستعراض واشترك السلطان شخصياً بالدروس النظرية وقيل التطبيقية أيضاً في سلاح المدفعية ، كما دأب على تفقد الحصون والقلاع والمخافر .

وزوّد القبائل المحاربة بما تحتاج إليه من أسلحة وأعتده عسكرية وأظهر اهتماماً يحمد عليه بالاشراف على مصنع البارود الذي أنشأه والده في مراكش .

وقام بـ ١٩ رحلة تفقدية في جميع أنحاء المغرب لمعالجة أسباب التمرد والفتن السابقة ، فزار منطقة السوس في الجنوب لأن الأسبان كانوا يطمحون باحتلال «افنى» بمقتضى معاهدة الصلح التي عقدها والده مع الأسبان بعد هزيمة «تطوان» وبهذه الرحلة جعل مدينة «تيزنيت» عاصمة

---

(١) كان يومها السرهاري ماكلين الإيكوسّي .

للسوس . وبذلك أصبحت مقراً لجيش الجنوب .

ثم زار تافيلالت عام ١٨٩٣ ، والواحات الصحراوية ووطد الأمن في «الملويه» العليا ، والأطلس الأوسط ، وقصر السوق ، ووادي زيز وقضى على حركة عصيان صغيرة هناك ثم عاد عن طريق جبال الأطلس إلى سهوله الواسعة .

وكان مستشاروه الأوروبيون قد أشاروا عليه بادخال نظام السكك الحديدية ليحل محل الجمال والبغال واحداث نظام الهاتف والبرق لتحل محل الحمام الزاجل . ثم اعتنى بالبحث عن المعادن واستثمار ما يكتشف منها .

وكان من البديهي أن كل تلك الاصلاحات كانت تجد من يعترض سبيلها ، ويحتج عليها من قبل المتدينين والمتزمتين ، بسبب إناطتها بالأجانب المكروهين في المغرب ، من اصحاب الامتيازات الذين كانوا يعتبرون المواطن المغربي في وطنه مخلوقاً ثانوياً ، وينظرون إليه على أنه من درجة أدنى بالنسبة للاوروبيين .

البعثات الطلابية في عهد الحسن الأول

أرسل السلطان الحسن الأول بعثات طلابية إلى أسبانيا وفرنسا وإيطاليا والمانيا والولايات المتحدة . فدرس بعضهم الهندسة في معاهد بريطانيا والمانيا وايطاليا ، وتخرج قسم منهم كمعاونين من مدرسة الهندسة العسكرية في مونبيليه الفرنسية ـ وبعد كل هذا الجهد فإن الحكومة المغربية لم تستفد من علوم بعثاتها الطلابية بعد عودتهم إلى الوطن ، فعينوا في دوائر الدولة برواتب ضئيلة ولم يُمكنوا من ممارسة اختصاصاتهم الأمر الذي جعل كل تلك الجهود تضيع . ولا تأتي بثمارها .

اصلاح المخزن

وباشر السلطان بتطبيق الاصلاح الآخر الذي كان يُراود مخيلته وهو اصلاح «المخزن» أي جهاز الحكم . ويتألف من دوائر مركزيه تابعة للسلطان ، واخرى محليه يوزعها السلطان على المدن والقبائل . وتجدر الاشارة هنا إلى أن دولة الموحدين هي التي أنشأت نظام «المخزن» بعد أن اقتبست اسمه ومهامه من الاندلسيين ، ولكن السلطان الحسن الأول طوَّره وجعله يتألف من خمسة وزراء : الوزير الصدر مكلف بممارسة الشؤون الداخلية والاشراف على الباشوات والقواد ، ووزير البحر مسؤول عن العلاقات الخارجية ، والعلاَّف الأكبر مسؤول عن تأمين لوازم الجيش ومرتباته وتموينه ، وامين الأُمناء المراقب لمداخيل بيت المال ونفقاتِه ، ووزير الشكايات مسؤول عن استلام شكايات القبائل والافراد ضد موظفي الدولة والمخزن .

اصلاحات الحسن الأول

من جملة الاصلاحات التي أدخلها السلطان الحسن الأول على البلاد منع الاسترقاق وتحريم الرقيق ، وتنظيم الجمارك ، وكانت تسمى «الديوانة» وتنظيم البريد ، وانشاء مصنع في فاس لسك النقود وانشاء مصنع آخر لصنع الاسلحة الحقيقية .

وانتهج الحسن الأول سياسة المرونة ضد المستعمرين لأنها بنظره تجنب البلاد الكثير من الازمات والحروب ومن الأمثلة على ذلك أن فرنسا التي تحتل الجزائر طلبت من السلطان الحسن إقامة بعثة لها في وجدة القريبة من الحدود الجزائرية لمعالجة حوادث الحدود بين المغرب والجزائر فوافق على طلبها حتى لا تقوم فرنسا باحتلال وجدة .

وفي عام ١٨٩٣ ارغم على دفع اربعة ملايين ريال إلى اسبانيا تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بها من جراء قبائل الريف العاصية التي كانت تهاجم التحصينات الاسبانية في ميناءي مليلة وسبته المحتلين من قبل الاسبان ، فدفع السلطان التعويض بعد أن انزلت أسبانيا قواتها على الشاطىء المغربي المحاذي للبحر المتوسط وبذلك انتهت الأزمة موقتاً . ولكن عملية الدفع كانت اعترافاً ضمنياً باحتلال المدينتين البائستين .

الحسن الأول يرفع الغطاء عن الامتيازات الاجنبية

وفي عهد الحسن الأول رُفع الغطاء عن الامتيازات السرية والعلنية التي اعطاها من سبقوه من السلاطين . ومنها نظام الحماية الفردية التي خصص بها بعض رعايا تلك الدول الاجنبية ، بالاضافة إلى الامتيازات التي كانت معطاة لليهود «بضغط من الحكومة الانجليزية» كل هذه الامتيازات حصلت عليها الدول الغربية في فترات تمتد من القرون الوسطى إلى أواخر القرن التاسع عشر . ومن الامتيازات الصغيرة المعطاة على أساس معاهدات تنص على تخويل القناصل الاجانب حق الفصل في المنازعات بين رعاياهم بقضايا الاحوال الشخصية وبعض المعاملات المدنية ما عدا الفصل في القضايا الجنائية مهما كانت جنسية الجاني أو المجني عليه .

تضاف إلى ذلك الامتيازات الكبيرة التي منحها السلاطين الضعفاء إلى بريطانيا عام ١٨٥٦ ، وإلى أسبانيا عام ١٨٦١ وإلى فرنسا عام ١٨٦٣ ، ومنها الامتيازات القضائية التي تعترف للاجنبي من رعايا الدول المذكورة اعلاه وغيرها بجنسيته ، وحقوقه المدنية والسياسية ، كما لو أنه مقيم في بلده الذي نزح عنه ، بمعنى أنه لا يخضع بأي حال من الاحوال للقوانين والانظمة المغربية ولا تسري عليه سوى قوانين بلده التي يطبقها القنصل

التابع له وفي ذلك ما فيه من انتقاص لسيادة المغرب باعتباره بلداً مضيفاً .

ومنها الامتيازات التشريعية والامتيازات الضريبية التي تعفي الاجنبي من دفع الضرائب والرسوم للمغرب وقد حصلت بريطانيا على هذا الامتياز المجحف بموجب معاهدة عام ١٨٥٦ وحصلت عليه أسبانيا بمعاهدة مماثلة عام ١٨٦١ .

ومنها أيضاً الامتيازات الادارية وهي التي اعطيت للقناصل فصاروا يتمتعون بحصانة مطلقة ، فلا يدفعون الرسوم الجمركية لقاء مستورداتهم كما صارت تخوّل القنصل الاجنبي حق ممارسة البوليس القضائي والاداري بالنسبة لرعاياه ، كما تخوّله أيضاً حق إنشاء قوة بوليس مصغرة تابعة له ، وسجن خاص يسجن به من أصدر عليهم «أحكاماً قضائية» كما اعطي الحق بابعاد من يشاء من رعاياه .

واخيراً امتيازات الحماية وهي تخوّل الدول الاجنبية حماية مواطنيها وعملائها من المغاربة سواء كانوا من التجار أو من رجال السياسة وسماسرة الاسواق والبوادي والمغاربة الخونة المتعاملين مع القناصل ودولهم في المدن والقبائل حتى أصبح ما لا يقل على مئتي شيخ ووجيه بارز مع عدد من القبائل تحت الحماية الأجنبية .

وقد اعطت معاهدة عام ١٨٦٣ مع فرنسا الفلاحين المغاربة .حق «التمتّع» بامتيازات الحماية مما أحدث خللاً في النظام المغربي ، لأن الحماية تحولت إلى شبه مستعمرات أجنبية داخل الوطن . . حتى أن الحماية الفردية كانت تشمل بعض الكبراء والاغنياء في المدن والبوادي والاسواق بالإضافة إلى بعض الفلاحين . فلما احتلت اسبانيا الصحراء المغربية طبقت على العديد من سكانها نظام الحمايه ومن هذه الحماية نشأت

بعض العصابات الخارجة على النظام فيما بعد .

هذه الامتيازات المخزيه المدمرة لسلطة الدولة المغربية وسيادتها كانت من جملة التركه التي ورثها السلطان الحسن الأول عن أبيه وجدوده . .

الحسن الأول ومؤتمر مدريد لعام ١٨٨٠

لذلك قرر السلطان الحسن الأول أن يخلص منها جملة وتفصيلاً فإذا تعذّر عليه الخلاص منها عمل على تخفيف مساوئها . لذلك سعى إلى عقد مؤتمر دولي في مدريد عام ١٨٨٠ حضره مندوب السلطان وممثلو دول الامتيازات الاجنبية التي تطبق في المغرب وهم: ممثلو بريطانيا واسبانيا وفرنسا ، كما حضره ممثلو المانيا وايطاليا والنمسا وبلجيكا وهولنده والدنمارك والسويد والنرويج البرتغال والولايات المتحدة .

وعرض المغرب في هذا المؤتمر مساويء الامتيازات التي تفرضها عليه بريطانيا واسبانيا وفرنسا بالتهديد وقوة السلاح ، وطالب بإلغائها جميعها أو التخفيف من مساوئها وقيودها . ولكن النتيجة جاءت في غير صالح المغرب ، لأن الدول الغربية تآمَرَتْ وتواطأت على المغرب ، عندما قررت تلك الدول الظالمة الابقاء على الامتيازات والحمايات لا بالنسبة للدول الثلاث فحسب بل لجميع الدول التي حضر ممثلوها مؤتمر مدريد .

وكان المطلب الايجابي الوحيد الذي اعطي للمغرب هو الاعتراف بالمغرب دولة حرّه تحت سيادة السلطان .

عندئذ طوى السلطان الحسن الأول جوانحه على ذلك الظلم الفاحش وقرر العمل وفقاً لما يوحيه اليه واجبه الوطني المقدس ، فأصدر أوامره سراً إلى القبائل الشرقية المتاخمة لحدود الجزائر بوقف التسلل الفرنسي إلى

المغرب .

الحسن الأول يستنجد بالعثمانيين

واهتدى السلطان الحسن الأول إلى فكرة رأى أنها قد تساعده على الخلاص من تعنت الدولة الغربية واستبدادها ، فقرر أن يستنجد بالدول العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني «١٨٧٦» . وكان هذا السلطان ويا للأسف خاضعاً لشيخ الاسلام «أبو الهدى» عميل الانجليز الأول في الاستانة «القسطنطينيَّة» كما اشرنا قبلاً .

فأوفد السلطان وفداً مغربياً يرأسه وزير إلى عبد الحميد المذكور فاستقبل بالحفاوه ثم اسفرت المفاوضات بين الجانبين على أن تدعم الدولة العثمانية استقلال المغرب وتُنَاوِىء خصومه . وان يقام تبادل ديبلوماسي بين البلدين الاسلاميين .

ولكن هذا الاتفاق لم تطلع عليه شمس التنفيذ لتحقيقه لأن أسبانيا وبتحريض من العدو فرنسا ابلغت الحسن الأول اعتراضها على تسرب دعوة الجامعة الاسلامية إلى المغرب وقالت: انها تنظر بعين القلق إلى ما يقوم به المغرب من توثيق علاقاته مع الدولة العثمانية .

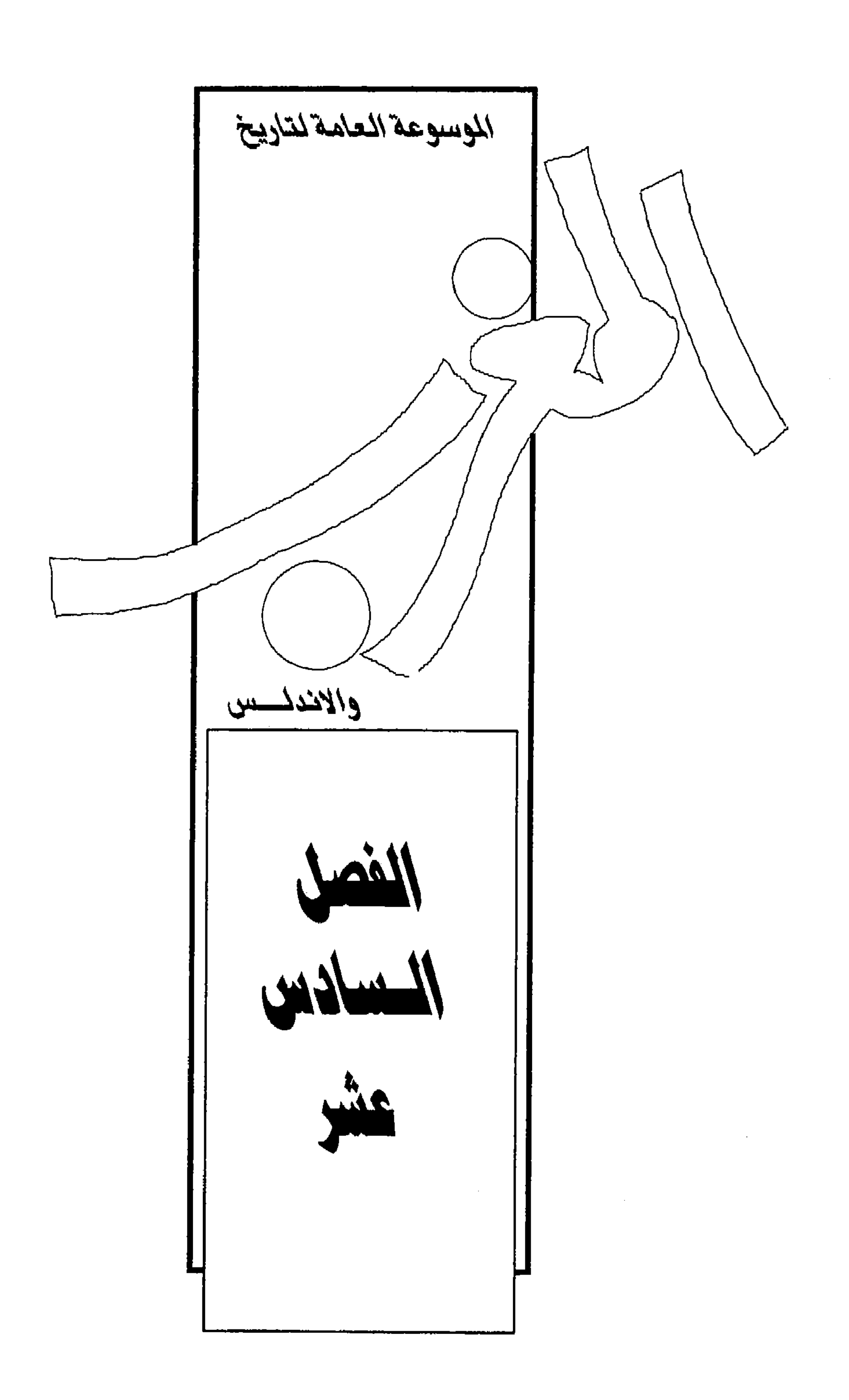
وهكذا جرت الأمور .

الفرنسيون يحتلون تونس

ولكن الموت انقذ الحسن الأول من آلامِه فتوفي في «تادلا» عام ١٨٩٤ عندما كان بطريقه إلى الريف لقمع فتنة استجدت هناك بعد أن حكم احدى وثلاثين سنة .

ولكنه قبل وفاته بمدة طويلة اعلم بأن الفرنسيين شنوا حملة عسكرية

على ميناء بنزرت التونسي سنة ١٨٨١ ، فاحتلته ثم تابعت الحملة هجومها فاحتلت مدينة تونس وحاصرت قصر «الباي» ثم قدمت له نصوص معاهدة فرنسية - تونسية لكي يوقعها في خلال خمس ساعات . وهكذا احتل الفرنسيون دولة تونس بعد أن كان البريطانيون قد احتلوا جزيرة قبرص .


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الــسادس
عشر

السلطان عبد العزيز بن الحسن الأول

١٨٩٤ ـ ١٩١٠

كان في مطلع الربيع الثالث عشر ، عندما ورث العرش المغربي عن والده الحسن الأول ، فتى طري العود لم تنضجه التجارب ، ولم تعجم عوده الشدائد ، رغم أنه ورث عن والده مسؤوليات جسام وتركةً مثقلة بالمتاعب وظروفاً حرجه ، وتهديداتٍ مباشرة من فرنسا بالاحتلال ـ بعد أن فرضت عدوانها على الجزائر وانتزعتها من براثن الدولة العثمانية ، وسلطانها الملقب بالرجل المريض ، كما عززت وصايتها على تونس ، وراحت تستعد للانقضاض على المغرب .

وكان السلطان عبد العزيز يتلقى النصح والارشاد من أمه التركية وهي من الآستانة وكانت تتمتع بذكاء ظاهر ، وشخصية قوية ، بينما انيطت مسؤوليات الحكم بحاجب السلطان القوي أبو أحمد ، الذي كان يقوم بدور المستشار للسلطان القاصر ، وهو ابن خادم اسود ، استطاع بمكره ودهائه أن يتسلط على «المخزن» والحكام المغاربة ، متخذاً من سيده المولى

عبد العزيز ستاراً يحكم من خلفه البلاد ومن عليها .

وبلغ من استبداد الحاجب المستشار أبو أحمد المذكور أنه أوغر قلب السلطان على وزرائه والكثير من الشخصيات المغربية المخلصة للعرش العلوي ، ومن هؤلاء عائلة الجامعي الفاسيه ، إذ كان من رجالاتها الكبار البارزين وزيران في «المخزن» «وهو اسم يطلق على حكومة البلاد» فاقصاهما السلطان المخدوع عن منصبيهما نزولاً عند اغراء وتحريض حاجبه أبو أحمد ، الذي اتهمهما بالتأمر على العرش لخلع السلطان عبد العزيز ، وتنصيب أمير علوي آخر مكانه ـ ثم تمادى أبو أحمد في طغيانه فأمر باعتقال الوزيرين ، ومصادرة قصرهما في فاس .

السلطان عبد العزيز يقع في قبضة المنحرفين

وبوفاة أبي أحمد عام ١٩٠٢ كان السلطان عبد العزيز قد بلغ الواحدة والعشرين من عمره ، وهو السن الذي يسمح له به أن يتقلد مهام الدولة ، كشاب بدأت تتفتح في رأسه بواكير الفهم والإدراك والمعرفة والرغبة في اصلاح شؤون البلاد . ولكن حاشيته تصدت له عندما شعرت بأن مناصبها ومراكزها في الدولة صارت مهددة بخطر الاصلاح ، لخوفهم من أن يكون السلطان عازماً حقاً على اجراء اصلاحات جذرية في المراكز الإدارية والاجتماعية قد تؤدي بهم وبنفوذهم ومصادر ثرواتهم إلى الضياع والدمار . ولكن السلطان سرعان ما تناسى ذلك ثم تخلى عنه وراح يركض وراء الملذات والافراح والليالي الملاح . ترى هل كان الوزراء وافراد الحاشية هم وحدهم الذين زينوا للسلطان الشاب أن يقصر اهتمامه على ادخال السرور إلى قلبه بالعكوف والانكباب على متع الدنيا الجالبة للسرور ، بحيث تستأثر بكل اهتمامه دون شؤون الدولة ؟ وهل هم الذين نصحوه بأن يقبل بوجهه على مدنيَّة أوروبا المزيفة والتمتع بقشورها المزخرفة البراقة

والتلهي بها عن الاصلاحات المنشودة ؟

أسئلة مطروحة سوف نعثر على اجوبتها فيما يلي :

منذ عام ١٩٠٠ بدأ العالم يشاهد فصول المأساة الجديدة ، وهي تعمل على تحطيم شخصية السلطان الشاب الذي لم يستطع أن يثبت أمام عوامل الاغراء ودوافعه ، وبالرغم مما قيل عن ذكائه وقوة عارضته فقد زين له الناصحون والمستشارون الانجليز وغيرهم من الاجانب الملتفين حوله أن يصرف عن سعة وألا يحرم نفسه مما تتوق إليه وتشتهيه ، وحثوه على الاستدانة حتى تكتمل فصول المأساة التي لا بد وأن تكون خاتمتها مفجعة .

وراح السلطان الغرير يزداد اقبالاً على مصاحبة رفقاء السوء من الاوروبيين على أمل أن يتمكن من ادخال أساليب الحياة الأوروبية إلى بلاده ولكن الأوروبيين أدخلوا إلى قصره زخارف المدنيَّة وقشورها التافهة كالدراجات وآلات قص الاعشاب ، والتصوير وولاعات السجائر ، وصناديق الموسيقى والمشدات والثياب الحريرية لنسائه ، والقبعات الباريسية لمحظياته»[1] هذا بالاضافة إلى عدد كبير من المغامرين والمحتالين الاوروبيين الذين كانوا يفدون تباعاً إلى القصر ومعظمهم من الدول التي تتمتع بامتيازات خاصة في المغرب . وكل واحد منهم يحمل معه بضاعة جديدة مشوقة ، وهدايا رخيصة مزخرفة ، طمعاً بالحصول على أموال السلطان وهداياه ، ناهيك عن الافكار المبتذلة التي كانت تعرض على مسامعه .

أما محظيات السلطان فقد ركضن وراء كل تلك المغريات برعونة وطيش فرحن يتبرجن بالثياب المنقشة ، ويمتطين الدراجات ، ويتسابقن في

(١) راجع روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين ترجمة نقولا زيادة .

حدائق القصر لإدخال السرور على قلوب المتفرجين من ضيوف السلطان . وكان يقال للسلطان المندهش ، بأن تلك الاساليب هي من مظاهر الرقي في الحياة الاوروبية .

ولكن هذه المفاسد ما لبثت أن احدثت هوة عميقة بين السلطان وشعبه . بين سلطان لاه عابث وشعب متدين يتحلى بالوقار والرزانة ، وبعد وفاة خادمه أبو أحمد عين مكانه المولى شريف فجاء تعيينه ضغثاً على إباله .

إذ راح يزين له ـ كالشيطان ـ الفوائد المرجوة من الاقتراض ويحثه على طلب المزيد منه من اموال الدول الغربية . في حين كان أبو أحمد ينهاه عن الاقتراض .

ولكن السلطان في هذه الغمرة التي كان يظنها «اصلاحاً» ويحسبها تحديثاً وتمديناً ، حاول اصلاح حالة بلاده المالية فاستبدل الضرائب المتنوعة بضريبة زراعية واحدة هي «الترتيب» ومع أن هذا الاجراء كان سليماً في المبدأ غير أن نتائجه عادت وبالاً على السلطان ، إذ أثار بعمله هذا غضب الاغنياء والفقراء على السواء وهكذا أخذت مكانة السلطان تتدهور .

وسيطرت الفوضى على الشؤون الداخلية والخارجية في البلاد مما حمله على التمادي بالاستدانة من الدول الأوروبية ، فصار الشعب يردد: «ان السلطان يبيع بلاده إلى الكفرة» .

اضطراب الوضع الداخلي واختطاف الاجانب (الريسوني)

وهكذا أخذت سمعة السلطان تتشوه بين ابناء الشعب ، وفي هذا الوقت جاء من المنطقة الاسبانية أحمد بن محمد الريسوني وهو شريف حسباً ونسباً ولكنه ملَّ منذ صغره حياة الوقار والاستقامة فانضم إلى جماعة من لصوص الماشية ـ الذين قبلوا زعامته معجبين بشبابه الغض ، ولم يلبث أن

اتقن أساليب الشر على نطاق واسع فراح يخطف ويقتل ، وكان كلما ازدادت قوته وثراؤه ، كثر اتباعه وعمت مصائبه ، حتى وقع في قبضته كل من فولتر هاريس مراسل التايمز اللندنية ، وصديق السلطان الحميم السرهاري مكلين الإيكوسي الذي كان قائداً للجيوش الشريفية ـ «انجليزي» .

وكان مكلين المذكور شخصية مرموقة في بلاطات السلاطين الثلاثة مولاى الحسن ومولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ ، وكان في الاصل ضابطاً صغيراً في الفرقة البريطانية المرابطة في جبل طارق ثم انتدب لمساعدة السلطان الحسن الأول فعينه قائداً للجيش المغربي .

فكان لحادث اختطاف هذين الأجنبيين أثر بالغ في نفوس السكان المغاربة كما أحدث ضجةً عالمية في الصحف وبلاطات ملوك أوروبا .

ولما خطف الريسوني برديكارس الثري الأمريكي . في طنجة عام ١٩٠٤ ارسلت الحكومة الامريكية اسطولها إلى طنجة وقد عبر الرئيس الامريكي ثيودور روزفلت عن سخطه في عبارته المشهورة «برديكارس حياً أو الريسوني ميتاً» .

وبعد خمسة اسابيع استعاد الرجلان المخطوفان حريتهما بعد أن ابتز الريسولي من الولايات المتحدة فدية قيمتها ٧٠ الف دولار ، كما انتزع من السلطان عبد العزيز قراراً بتعيينه حاكماً للمنطقة المحيطة بطنجة وهكذا أصبح الريسوني يتمتع بنفوذ أقوى مما كان عليه ، فضلاً عن أنه أصبح بطلاً بنظر بعض الناس من المغاربة .

وتمادىٰ الريسوني باقتراف الجرائم واعمال السلب والنهب حتى ضاق صدر السلطان فأصدر في عام ١٩٠٧ بلاغاً اعتبر فيه الريسوني خارجاً على القانون ، ولكن حياة الريسوني استمرت حتى بعد انتهاء حكم عبد العزيز

وكان وجوده من الاسباب التي عجلت بخلع ذلك السلطان العديم الحيلة .

أبو حمارة

ثم قام أبو «حمارة» وهو الجيلاني بن ادريس الزرهوني فادعى أنه الأمير الشريف محمد الأخ الاكبر للمولى عبد العزيز ، ثم راح يزعم بأنه من اصحاب الكرامات واجتراح المعجزات ، مستعيناً بأساليب السحر السخيفة التي تدل على مهارة يدي الساحر ، دون أن يكون لهذه المهارة أي خلفية من نبوغ أو عبقرية وهكذا وبهذه الاساليب السحرية راح يطوف بين القبائل ويسيطر على عقول البسطاء ويغريهم بالالتفاف حوله . . حتى تمكن أخيراً من قيادة جماعة أعلنت العصيان المسلح . . ولم يكتف بذلك بل احتل امارة صغيرة جعل عاصمتها مدينة «تازا» وراح يهدد مدينة فاس بالاحتلال . وكتب الوطني الجزائري المرحوم مصطفى بشير في كتابه «تقارير عن الوحدة العربية» الذي نشر في القاهرة عام ١٩٥٤ يقول: ان الفرنسيين هم الذين ايدوا «أبو حماره» وحرضوه على الثورة وامدوه بالمال في منطقة الحدود بين الجزائر ومراكش » .

ثم ثبت بعد احتلال فرنسا للجزائر بأن الجنرال ليوتي كان يتحدث بصراحة تامة في رسائله عن الفائدة المرجوة من استغلال «بو حماره» ويقال له أيضاً بو حمره ويقول (يجب مساعدته مالياً) .

وثمة إشارة طريفة إلى بوحمرة في الوثائق الديبلوماسية الألمانية التي تعود إلى هذه الفترة . عندما كان القيصر وليم الثاني يستعد لزيارة طنجة إذ زوده المستشار فون بلوف ـ وهو الرجل المسؤول عن هذه الزيارة ـ بتعليمات مفصلة عما يجب أن يقوله القيصر لممثلي السلطان عند تبادل التحيات . وعلى سبيل المثال «تقول لو سألتم جلالتكم: من أين لبو حمرة

العون الذي يُمَكِّنه من المقاومة طويلاً؟ وإذا جاء الجواب من المندوب: لعله من فرنسا ، فإن التعليق الصحيح لجلالتكم يكون: أنه من الصعب أن تُرمى فرنسا بمثل هذه التهمة الشائنة»(١) .

وهكذا يتضح أن فرنسا كانت تساند بو حمرة في اعتبار الدوائر الديبلوماسية الاوروبية . وقد ورد مثل هذا التأكيد في بعض رسائل المارشال ليوتي شيخ المستعمرين الفرنسيين .

ويختلف بو حمرة عن الريسوني بأنه بدأ اعماله كاتباً في مكناس ، ولما كان ضليعاً بالاجرام فقد راح يزوِّر توقيع السلطان ، واستخدم السحر وراح يؤثر في البسطاء عن طريق معرفته بالقرآن والمسائل الشرعية .

وقد تمكن بوحمرة من فرض سلطانه على شرقي المغرب ، وأما جنود السلطان الذين كانت رواتبهم دون ما يستحقون ، والذين لم يكونوا متحمسين لخدمة السلطان ، فقد انهزموا عدة مرات أمام قوات الريسوني وهذا سبب وجيه له قيمته من جملة الأسباب التي جعلت السلطان عبد العزيز عاجزاً عن توفير الامن في البلاد .

كيف احتالت بيوت المال الاوروبية على السلطان عبد العزيز

في عام ١٩٠٣ زين السياسيون الفرنسيون للسلطان عبد العزيز محاسن الاقتراض من البيوت المالية لفك ضائقته المالية ، وأبدت بيوت مالية فرنسية وبريطانية وأسبانية استعدادها لاقراضه ٨٠٠ الف جنيه استرليني . ثم أَقنعه الفرنسيون في السنة التالية أن يقترض مبلغاً جديداً أكبر من القرض السابق ليتمكن من تسديده . فاستدان مبلغ ٦٢ مليون و٥٠٠ الف فرنك

(١) البرنس فون بيلوف في كتاب Deutschland Und die Machte carl Reissner Verlag 1930 P249 .

وكانت فائدته خمسة في المائة وهذه فائدة مرتفعة جداً في زمن كانت فيه بيوت المال تعطي قروضاً عادية بفائدة اثنين في المئة واحياناً بواحد ونصف في المئة حسبما كان متبعاً في انظمة القروض الدولية . ولكنهم استغفلوا السلطان الذي يجهل مثل هذه الأمور ، هذا مع العلم بأن «الربا» محرم في الشريعة الاسلامية . والمصارف الفرنسية التي اقرضت السلطان يملكها يهود وفرنسيون .

ولنقرأ الأن بيان لجان جوريس الاشتراكي المشهور القاه في ١٤ أذار «مارس» سنة ١٩١١ في مجلس النواب الفرنسي وجاء فيه :

إن أصحاب البنوك الفرنسيين احتفظوا باثني عشر مليوناً ونصف على أنها عمولة على القرض البالغ ٦٢ مليون و٥٠٠ الف فرنك المشار إليها آنفاً وهذه العمولة هي غير الفائدة ، وكان كل ما قبضه السلطان من المبلغ المقترض ٤٨ مليون فرنك فقط .

ومن أجل ضمان دفع الفائدة على المبلغ بكامله أرغم السلطان على تخصيص ٦٠ في المئة من جميع الواردات الجمركية ووضعها تحت الاشراف الفرنسي . وفي سنتي ١٩٠٥ و١٩٠٦ أغري السلطان بوجوب استدانة مبالغ صغيرة متعددة من فرنسا لشراء اسلحة وذخيرة ، وقد اشترطت فرنسا أن يبتاع المغرب هذه الأسلحة من الشركة الفرنسية «كروزو» لا من السوق العالمية .

فرنسا تحرض القبائل على السلطان عبد العزيز

وتشير المعلومات التي نشرت في ذلك العصر أن فرنسا لم يكن باستطاعتها أن تتصرف تصرفاً كهذا دون أن تستعمل وسائل الرياء ، ولكن حسبما يرى أحد المؤرخين: «أن هناك صلة وثيقة بين رغبة فرنسا بتزويد

السلطان عبد العزيز بالمال وارضاء شركة كروزو من جهة ، واستعداد القبائل المجاورة تماماً للحدود الجزائرية المغربية أن تلعب اللعبة التي كانت تديرها المالية الفرنسية وشركة كروزو معاً» وليس غريباً في مثل هذه الاحوال أن يكثر عدد المدعين للعرش المغربي . وبذلك تتضعضع سلطة العرش وتنهار ، ويضيف المؤلف نفسه قائلاً : لقد ثبت غير مرة من مصادر بريطانية حَرِيَّة بالثقة ان إثارة القبائل على الحدود الجزائرية كان آخذاً بالتمادي وقد استمر إلى حين ، وكان ذلك جزءاً من سياسة السلطات الفرنسية في الجزائر[1] .

مخاوف السلطان وتوسطه لدى بريطانيا

في عام ١٩٠٠ كتب السلطان عبد العزيز رسالة شخصية إلى الملكة فكتوريا وطلب من الوزير البريطاني المفوض أن يسلمها شخصياً إلى الملكة العجوز . وقد اقترح عبد العزيز في رسالته على الملكة: أن تقنع الحكومة الفرنسية بوجوب تعيين الحد النهائي بين المغرب والجزائر بحيث تتعهد الحكومة الفرنسية ألا تتعداه» .

وقد نقل طلب السلطان إلى الحكومة الفرنسية ، فأكد دلكاسه وزير الخارجية الفرنسي للسفير البريطاني بأن «الحكومة الفرنسية لا تنوي مهاجمة المغرب ونفى كل الاشاعات حول وجود خطط سرية أو غير قانونية» .

وبالرغم من كل هذه التأكيدات فقد استمرت الغارات والغارات المضادة على الحدود المغربية الجزائرية ، وكان السيد جان جوريس يقول: «ان دلكاسه قد خلق المسألة المغربية» لأن حوادث الحدود المصطنعة كان ممكناً تلافيها بفرض أقل قدر من المراقبة وبالصبر والحكمة ، وكان من

---

(١) انظر موريل: المغرب في السياسة الدولية ١٩١٢ ص٣٨ ـ ٤٨ .

الممكن إقامة علاقات سليمة ولكن سياسة الصبر والحكمة لم تكن تتلاءم مع الخطط الموضوعة لاحتلال المغرب .

وقد فسرت فرنسا ذلك بأن بريطانيا ، رغم انها لم تكن ذات مطامع في المغرب مصممة ـ وهي الدولة الثرية ـ على معارضة اولئك الذين لهم مطامع في المغرب . ولم تكن بريطانيا مستعدة للتساهل بأن تنشىء دولة قوية كفرنسا مكاناً لها على الشاطىء الذي يفصله مضيق ضَيِّق عن حصنها في جبل طارق ، وقد لخصت بريطانيا سياستها في جملة واحدة ارسلتها حكومة جلالتها إلى ممثلها في طنجة سنة ١٨٤٥ تقول : «يجب أن يكون هدفنا الدائم أن نبذل كل ما في وسعنا في سبيل دعم حكم السلطان ، وأن نحول دون كل حادثة قد تؤدي إلى تعريضه لخطر جديد» .

وفي هذه الجملة القصيرة تأكيد واصرار على أن يظل المغرب مستقلاً وهو أمر واضح جداً .

ازدياد الضغط الفرنسي على السلطان عبد العزيز

وكانت سياسة الولايات المتحدة تقول : «اتركوا المغرب وشأنه» لأن السلطان الذي كان يخشى من التوسع الفرنسي ، والاسباني عرض في سنة ١٨٧١ على القنصل الامريكي الجنرال فيلكس . ماثيوس أن يضع المغرب تحت الحماية الامريكية ، فكان جواب الخارجية الامريكية مؤكداً استعدادها للقيام بالمساعي الحميدة ، لكنه أوضح أن وزارة الخارجية مضطرة لأن ترفض عرض جلالته بمنح الولايات المتحدة حماية بلاده[1] .

---

(١) من أرشيف المفوضيّة الأميركية في طنجة «مجموعة الرسائل» ١٨٦٩ ـ ١٨٧٤ العدد ٣٠ في ٢٩ حزيران يونيو ١٨٧١ ـ والمجموعة من ١٨٦١ إلى ١٨٨٠ العدد ١٨ في ٢٢ آب/ أغسطس ١٨٧١ .

ومع أن فرنسا اعلنت أن نواياها سلمية ـ وكانت تكذب بالطبع ـ فقد كان السلطان عبد العزيز يزداد قلقاً ، كلما رأى إشارات ودلائل تدل على عكس ذلك . ولما تسلم دلكاسه وزارة الخارجية اخذت السياسة الفرنسية تسير بالاتجاه الخاطىء ، فذعرت الحكومة المغربية حتى اضطرت إلى أن تلجأ إلى حماية بريطانيا ، فقررت أن ترسل بعثة إلى لندن ، ولكن فرنسا «صادرت البعثة» في مكان ما وارسلت بدلاً منها بعثة للبحث في الأمور التجارية[1] . هذا مع العلم بأن عملية المصادرة هذه تعتبر عملاً من اعمال القرصنة المكشوفة .

أما البعثة المغربية المصادرة فقد ارغمت على عقد معاهدة سياسية جديدة مع فرنسا ، أعلنت فيها فرنسا «احترامها لوحدة الامبراطورية الشريفية»[2] . وكانت فرنسا تكذب وتخدع . .

ولكن دلكاسه وزير خارجية فرنسا كتب في ٢٧ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٩٠١ ، إلى الوزير الفرنسي المفوض في طنجة يقول: «يمكن لفرنسا أن تكون إمّا أقوى أصدقاء المغرب أو اشد أعوانه عنفاً»[3] .

وبعد مدة قصيرة لخصت فرنسا سياستها بوضوح أكثر حسماً وردت في وثيقة أعدها في السنة نفسها ممثل فرنسا في مدينة فاس ، للسيد دلكاسه ـ جاء فيها: أن خير سياسة هي احتلال وجدة «القريبة من الحدود الجزائرية» على أن تعلن فرنسا مسبقاً شروطها للانسحاب إلى قواعدها بالاضافة إلى ذلك ، فانني واثق من أن القيام بعمل في أوروبا ستكون له نتائج قوية لضمان سيطرة النفوذ الفرنسي على المخزن «أي الحكومة المغربية» .

---

(١) انظر موريل في مرجعه السابق ص١١ ـ ١٢ .

(٢) انظر موريل في مرجعه السابق ص١١ ـ ١٢ .

(٣) الكتاب الفرنسي الاصفر ١٩٠١ ـ ١٩٠٥ ص٢٠ .

فرنسا تمهد لاعلان الحماية على المغرب

وفي الفترة التالية قامت فرنسا بعمل ديبلوماسي في أوروبة كان من أنشط أعمالها لإقامة حمايتها على المغرب . وقد سارت إلى هدفها بوضوح ومهارة ديبلوماسية جعلت محاولات المفاوضين الآخرين تبدو وكأنها حركات هواة لا قيمة لها .

لقد عبثت فرنسا بأمن المغرب لتبرر تدخلها أمام الدول الاوروبية والمجتمع والصحف الاوروبية فكانت على الشكل التالي :

منذ مطلع القرن العشرين بدأت أحوال المغرب بالتأخر وفقاً لسياسة فرنسيَّة مرسومة ، لأنه بدون هذا التدهور كان من العسير على فرنسا أن تفرض سيطرتها على المغرب ، وأن تمارس تلك السيطرة بشكل علني فاضح فراحت البرتغال واسبانيا في أول الأمر تحتلان مرافئه ـ الأمر الذي أدى إلى انعدام الأمن في الداخل ، فاندلعت الثورات القبلية ضد السلاطين المتخاذلين ، ثم شاعت اللصوصية في البلاد ، وتلاها العصاة المتمردون الذين كانت تقوم بتوجيههم مرة أسبانيا واخرى فرنسا .

ومع ذلك فقد كانت التجارة مع المغرب أمراً بالغ الأهمية بالنسبة إلى بريطانيا وفرنسا واسبانيا معاً ، لأن المغرب كان يصدر الحبوب والخيول والجلود والفلين ويستورد الشاي والسكر مع أنه كان في القرون الوسطى مُصَدّراً للسكر خصوصاً إلى بلاد الانجليز ، وكان يستورد أيضاً المصنوعات القطنية .

وكان السلطان عبد العزيز يخشى من مجرد السماح لأي دولة اجنبية منفردة بالاشراف على اصلاح البلاد ويعتقد بأن مسألة الاصلاحات الأجنبية تشبه «حصان طرواده» ولكنه لم يكن يمانع بادخال تحسينات على الاوضاع

يسهم فيها عدد من الدول الأوروبية .

وقد أوضح السلطان عبد العزيز إلى دلكاسه وزير الخارجية الفرنسي في ٢٧ أيار سنة ١٩٠٥ إذ قال : ان اعيان المغرب لا يمكن أن يرضوا أن تقوم فرنسا بالاصلاحات في المغرب .

ولما احتاج السلطان عبد الحفيظ خليفة عبد العزيز إلى ضباط لتدريب جيشه لم يطلب ذلك من فرنسا بل وجه الطلب إلى المانيا لكي تبعث إليه بالمدربين .

كيف ضمنت فرنسا عدم معارضة الدول الأوروبية؟

أما وقد فطن المغرب وقدّر مطامع فرنسا تقديراً صحيحاً ، فإن الفرنسيين المتطرفين لم يضيعوا وقتهم في سبيل تخفيف مخاوف المغاربة ، بل أقدموا على العمل بجرأة ليربحوا إلى جانبهم الدول المفترض فيها أن تنافسهم ، وفي هذا الاتجاه صبت الديبلوماسية الفرنسية جهودها ونجحت لحدٍ ما في سبيل القضاء على معارضة تلك الدول الأوروبية على الشكل التالي :

في ١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٩٠١ ، وقعت فرنسا اتفاقية مع إيطاليا ، ضمنت بموجبها حرية العمل في المغرب لقاء اعطاء إيطاليا حرية العمل في ولاية طرابلس[١] . إلا أن عناد بريطانيا كان عقبة كأداء في طريق المطامع الفرنسية ، والواقع أن السياسي الفرنسي أندريه تارديو ، شكا ، حتى في سنة ١٩٠٨ واثناء انعقاد المؤتمر الوطني الافريقي في باريس «من أن بريطانيا قد ظلت عشرين سنة وهي أعنف مناوىء لفرنسا في المغرب» .

وقد كان من حسن حظ الوزير دلكاسه أن وجد في الملك ادوارد

(١) التقارير السرية في المعاهدة الفرنسية الايطالية حول ليبيا باريس ١٩٢١ .

السابع ـ المزواج ـ ملكاً يهمه تحسين العلاقات بين بريطانيا وفرنسا ، على أمل أن تخفف الصحف الفرنسية من حملاتها على الملك المزواج الذي كان يعدم زوجاته بقسوة بالغة .

المعاهدة الفرنسية ـ البريطانية

لذلك أسفرت المفاوضات بين فرنسا وادوارد السابع على عقد معاهدة سنة ١٩٠٤ التي اعتبرت أساساً لاتفاق ودي أما الجزء الخاص المتعلق بالمغرب في هذه المعاهدة ، فهو الاتفاق المتبادل الذي اطلقت بموجبه فرنسا لحليفتها الجديدة حرية العمل في مصر ، لقاء حرية مماثلة لفرنسا في المغرب . والمادة البالغة الدقة نصت على أن الحكومة البريطانية تعترف بأنه مما يطلب من فرنسا . . هو أن تحافظ على النظام في المغرب ، وأن تقدم المساعدة التي تلزم لتحقيق جميع الاصلاحات الإدارية والمالية والعسكرية(١) .

ولم يكن السلطان عبد العزيز الوحيد الذي اكتشف التصريحات المصوغة ديبلوماسياً ، بعد توقيع المعاهدة الفرنسية البريطانية ، فقد كتب هارولد نيكسون يقول: «ان توقيت الاتفاق الانجليزي الفرنسي أثار غضب السلطان والحكومة المغربية والتجار البريطانيين ـ الذين آلمهم التخلي عن المغرب والغدر به» .

ثم كتب السلطان عبد العزيز كتاباً بعث به إلى الوزير البريطاني المفوض في طنجة قال فيه: إن المساعدة الفرنسية يمكن أن تقبل فقط فيما لو تعهدت بريطانيا بأن يغادر المستشارون الفرنسيون البلاد بعد اجراء

---

(١) الأوراق البرلمانية ١٩٠٥ الفصل الثالث (c - 2348 لندن ـ المكتبة الملكية) .

الاصلاحات المطلوبة[1] .

وقال موريل: «مع أن فرنسا أكدت للمغرب علناً في سنتي ١٩٠١ و١٩٠٢ في مناسبات عديدة ، أنه ليس لها أقل رغبة في تهديد استقلاله أو وحدة الدولة» «ومع أن فرنسا وبريطانيا كانتا قد وعدتا المغرب والعالم علناً أن تحافظا على استقلال المغرب ووحدته . . فقد وقعتا ـ في الواقع ، بشكل سري ، اتفاقاً ينص على هدم استقلال المغرب وتمزيق وحدته . . »[2] .

ولم تلق سياسة دلكاسه وزير الخارجية الفرنسية تأييداً عاماً في فرنسا ، ويؤكد ذلك خطاب القاه جان جوريس عام ١٩٠٦ جاء فيه: «أن دلكاسه خلق المسألة المغربية خلقاً مصطنعاً لم تكن له به حاجة ، إذ كان ثمة فئة مؤيدة لحملة عسكرية ، فثمة جنرالات فرنسيون يريدون التقدم والترقي ، وعقداء يريدون أن يصبحوا جنرالات ، ورؤساء يريدون أن يصبحوا عقداء ، وكان كل هؤلاء يفكرون بحرب صغيرة أو نزهة وراء الحدود . . . لاحتلال المغرب ـ هذه كانت بعثة المجد»[3] .

وفي بريطانيا حمل رئيس الوزارة السابق اللورد روز بري على المعاهدة البريطانية الفرنسية ، في خطاب القاه في ١٠ حزيران في كوينز هول «قاعة الملكة» في لندن مؤملاً «ألا تندم الدولة التي تسيطر على جبل طارق إذا ما سلمت المغرب إلى دولة حربية كبيرة» .

وقد وجه الكسندر باول سخرية لاذعة للذين وقعوا المعاهدة فقال: «ان الديبلوماسيين المهرجين في وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية

(١) هارولد نيكسون ـ سير آرثر نيكسون . بارت ١٩٣٠ ص١٤٧ .
(٢) موريل : المصدر الأسبق المذكور ص٦١ .
(٣) فقرة منقولة عن صحيفة الاستقلال المغربية العدد ٢٣ سنة ١٩٥٢ .

الذين رتبوا «عملية السطو الضخمة» لم يجدوا ثمة حاجة لاستطلاع آراء الشعوب التي يمكن أن تؤثر عليهم تأثيراً مباشراً» .

أما الحقيقة فهي أن المغاربة وجدوا من الصعب عليهم أن يهضموا «الغدر البريطاني» .

المخاوف الاسبانية من المعاهدة

وقد احتوت اتفاقية سنة ١٩٠٤ «بنوداً سرية»[1] انتقدها أولئك الذين غالوا في امتداح الارتباطات العامة . إذ أنه بينما اعلنت الحكومة الفرنسية في المادة الثانية من المعاهدة العلنية أنه «لم يكن لها نيّة في تبديل الحالة السياسية الراهنة في المغرب» فقد قدمت الحكومة الفرنسية نفسها في البنود السرية ، موانىء البحر المتوسط المغربي لأسبانيا . وقد أكدت فرنسا هذا في اتفاق فرنسي ـ اسباني وقع في ٣ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٩٠٤ ، ولم يعلن عن الاتفاق السري هذا إلا بعد مرور سبع سنوات عندما نشرته جريدة لوماتان الباريسية .

إن اهتمام اسبانيا بالمغرب ، كان ابعد مدىً من اهتمام بريطانيا وفرنسا ، لأن الاسبان كانوا يعتبرون المدينتين مليله وسبته ، المغربيتين ، جزءاً من الأرض الاسبانية ، كما كانوا يظنون أن المغرب منطقة نفوذ لهم .

ومع ذلك فإن المنافسة البريطانية ـ الفرنسية ، ملأت نفوسهم رعباً خصوصاً عندما عرفوا في سنة ١٩٠٤ ، أن بريطانيا وفرنسا كانتا تتفاوضان لعقد معاهدة بشأن المغرب ، خفية عن اسبانيا .

فلما اعلنت محتويات المعاهدة تحول رغب الاسبان إلى سرور ، فصرح انطونيو مورا رئيس وزراء اسبانيا قائلاً : «منذ سنة ١٦٠٨ كانت

(١) الاوراق البرلمانية سنة ١٩١١ الفصل الثالث (C.D - 5969) .

السياسة الاسبانية نحو افريقية تقوم على أساس العداء البريطاني الفرنسي ، وقد زال هذا العداء الآن ، وكل ما تبقى هو اقتسام اراضي الحماية في المغرب ، وهي الأراضي التي ضمتها فرنسا لنفسها وهذا الاقتسام هو الذي نصَّ عليه الإتفاق الفرنسي الاسباني سنة ١٩٠٤»[١] .

وقد وعدت الحكومتان الفرنسية والاسبانية في التصريح العلني بأن تحترما وتحافظا «على وحدة الامبراطورية المغربية في ظل سيادة السلطان» أما المادة الثالثة من الاتفاق السري فانها تنص على ما يلي : «إذا اصبح استمرار الوضع السياسي في المغرب والحكومة الشريفية متعذراً ، أو إذا لم يعد بالامكان الحفاظ على الحالة الراهنة ، إما بسبب ضعف الحكومة أو بسبب عجزها المستمر عن فرض القانون والنظام أو لأي سبب آخر يقبله الفريقان ـ ففي هذه الحالة يصبح من حق اسبانيا أن تتمتع بحرية حقها بالعمل في نطاق الأراضي التي حددتها المادة السابقة ، هذه الأراضي التي تتكون منها منطقة نفوذها[٢] .

وورود عبارة «لأي سبب آخر» اعطت فرنسا واسبانيا حق تغيير الحالة الراهنة . فقد جعلتا من نفسيهما الحكم الأوحد في مستقبل المغرب ، ومن ثم كان لهما أن تقررا الوقت الذي يمكن فيه أن يُقضى على استقلال المغرب» .

وهذه أمور مرعبة لم تخطر ببال الشياطين ـ أخوان المستعمرين !

ولم يكن برلمان بريطانيا والجمعية العمومية في فرنسا ، حتى ولا برلمان اسبانيا ولا شعوب الدول الاستعمارية الثلاث ، يعرفون شيئاً عن تلك

---

(١) انظر : البرت موسيه : (المحادثات الفرنسية ـ الاسبانية حول المغرب) صحيفة الموند (Le MONde) ١٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٤ .

(٢) وثائق دبلوماسية حول القضية المغربية (١٩٠١ ـ ١٩٠٥ رقم ١٨٧) .

الاتفاقات السرية التي خوَّلت كل من فرنسا وبريطانيا واسبانيا حق القضاء على الاستقلال المغربي ، وفي الواقع أنه لم يكن للجمهور ولا للبرلمانات أي سبب يدعوها إلى الشك بوجود قرارات سرية بعيدة الأثر . وحتى بعد عقد المعاهدتين السريتين مع بريطانيا واسبانيا أكد رئيس الوزراء روفيه للسفير الالماني في باريس ، في ٨ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٩٠٥ ، بأن حقوق فرنسا في المغرب ، متسقة تماماً مع مبادىء سياسة السلطان واستقلاله ووحدة امبراطوريته .

وهكذا كانوا يُعَهّرون سياساتهم بالنسبة للمغرب كقراصنة وليس كحكومات لدول لها مراكز دولية يُفترض أنها مراكز محترمة .

وقد استمرت الاسطورة القائلة بانعدام وجود خطة للاحتلال أو حتى إنشاء حماية عند أي إنسان ، حية طوال المدة التي ظلت فيها البنود السرية ـ سراً مُغلقاً .

المخاوف الآلمانية

وفي ٢٠ حزيران ـ يونيه ـ سنة ١٩٠٧ ، كان قيصر المانيا ووزير فرنسي سابق للحربية والداخلية ـ وهو عضو بارز في «لجنة المغرب» التجارية الفرنسية ، يتناولان طعام العشاء على يخت القيصر الآلماني قال السيد اتيان «ان المغرب المضطرب دوماً هو جار لا يحتمل للجزائر ، فسأل القيصر : إذن . . . احتلال؟» فأجاب الآخر لا ليس احتلال ، لأن ذلك يحتاج إلى ١٥٠ الف جندي على أقل تعديل . فسأل القيصر ثانية : «حماية إذن» فكان الجواب : لا ليس على غرار ما تم في تونس ، ولكنه مجرد نفوذ أدبي بحيث يمكن تقديم النصح اللازم»[١] .

---

(١) البرنس فون بيلوف ١٩٣٠ ـ مذكرات سياسية المانية ص٢٤٩ .

ولما فضحت الاتفاقات السرية أخيراً ، قامت بعض الجماعات حتى في فرنسا باتهام الحكومة الفرنسية بالخيانة والخداع ، فألقى الشيخ البارون دستورنل دوكونستان ، في اجتماع مجلس الشيوخ في ٦ شباط سنة ١٩١٢ البيان التالي :

«ان البرلمان الفرنسي ظل يجهل هذه السياسة على أساس لا يغتفر من الخداع الخُلقي ، إن لم نقل الخداع الدستوري . . . لماذا اعلن البرلمان الفرنسي نصف الحقيقة فقط؟ لماذا لم يتح له أن يرتاب في أن هذه الترتيبات التي كانت ذات بنود سرية تُكملها وتصححها؟ إن هذه اللعبة المزدوجة أمام البرلمان والعالم تجعل منها من الناحية الخلقية أساءة استعمال للثقة . . . إن الذي عرفه الجمهور وأيده هو معاهدة صداقة بيننا وبين انجلترا ، تعترف بحرية العمل السياسي في المغرب بالنسبة لنا وتصرح أيضاً ، بأننا نعتزم احترام وحدة تلك البلاد ، ولكن الجمهور كان يجهل أنه في الوقت نفسه ، وعلى أساس بنود مناقضة لذلك أُخفيت عنه ، قد دبر أمر تقسيم المغرب بين فرنسا وأسبانيا . المغرب نفسه الذي ضمنّا وحدته ، فقد كان ثمة سياسة عدل وانصاف وهي السياسة التي لم تتبع ، وسياسة تدابير سرية تفرض الحماية وتقسيم المغرب» .

هذا الخطاب الذي يدين الحكومات الفرنسية والبريطانية والاسبانية لا يحتاج إلى تعليق . . وبالرغم من أنه خطاب موجز ولكنه جامع للاتهام والنعوت البذيئة التي استحقتها تلك الحكومات الثلاث ـ التي كانت في الحقيقة حكومات قراصنة لا تشرف بلادها .

مؤتمر الجزيرة الخضراء

ان مؤتمر الجزيرة الخضراء ارتبط ارتباطاً وثيقاً بواحد من الأعمال

الديبلوماسية الشهيرة في مطلع هذا القرن ، وقد يكون السلطان عبد العزيز هو الذي دعا لعقده بايعاز من الرئيس ثيودور روزفلت ، ولكن الرجل الذي يرجع إليه أمر عقد المؤتمر فعلاً وإن يكن قد تم ذلك بقصد أو بدونه ـ فهو قيصر المانيا .

إذ لم تكد سنة ١٩٠٥ تحل ، حتى كان القيصر ومستشاره فون بيلوف يعملان على فرض أن فرنسا تعتزم اجراء تغيير في وضع المغرب . وان المصالح التجارية الالمانية ـ في المغرب ـ ستتعرض لخسائر لا تقدر ، وقد أراد فون بيلوف أن يوجه انذاراً إلى فرنسا فأقنع القيصر بزيارة طنجة .

قيصر المانيا في طنجة

في ٣١ أذار ـ مارس ـ سنة ١٩٠٥ ، نزل وليم الثاني قيصر المانيا إلى البر في طنجة ، وهناك استقبل رسول السلطان الخاص مولاي عبد الملك عمُّ السلطان عبد العزيز ، فحيَّاه القيصر قائلاً : «انني ازور سلطان المغرب ، الملك المستقل . وانني آمل أن يظل المغرب الحر بقيادته الحكيمة منفتحاً لتنافس سلمي بين الدول أجمع ، بدون احتكار أو ضم ، وعلى أساس المساواة التامة ، إن الغاية من زيارتي هي اعلان تصميمي على عمل كل ما بوسعي للمحافظة على مصالح المانيا في المغرب محافظة فعلية . إنني اعتبر السلطان ملكاً مستقلاً استقلالاً تاماً . وانني أرغب في الوصول إلى تفاهم معه بالذات حول خير الوسائل التي يمكن أن تحقق مثل هذه الغاية»[1] .

كان القيصر وليم الثاني متأكداً من وجود الاتفاقات السرية بين بريطانيا وفرنسا واسبانيا ، لذلك أراد أن يوبخ الدول الثلاث المتآمرة على المغرب

(١) هذه المخاطبة نقلها موريل في مرجعه السابق ص ١١٠ .

تـوبيخـاً قـاسيـاً وبصـورة علنيـة . وقـد سَـرّ هـذا التـوبيـخ المغـاربـة ، وبعـض السياسيين الفرنسيين الذين كانوا يرون رأي القيصر ، وكان يُغيظهم أن تُشوه سمعة فرنسا بمغامرات قرصنة استعمارية وقد عبر السيد أوغسطين برنار عن رأي هذه القلة من الفرنسيين ، عندما قال في مؤتمر شمال افريقية الذي عقد في بـاريس : «إننـا نـريـد مغـربـاً حـراً مستقـلاً كمـا قـال الامبـراطـور وليـم في طنجة . . . كما أننا معنيّون بألا توطد أي دولة أقدامها في المغرب . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوطد نحن أقدامنا في المغرب» «كتب ذلك موريل» .

إنَّ زيـارة القيصـر للمغـرب روعـت بـاريـس ولنـدن ومـدريـد ، وصـار الحديث المتداول في صالونات هذه المدن الثلاث ينم عن خشية الناس هناك من أن يصبح المغرب سبباً لنشوب حرب بين المانيا وفرنسا . . ويا ليتها نشبت . فقد كانت الأجواء السياسية مهيأة لذلك .

وكان رد الفعل العنيف في الرأي العام الفرنسي لزيارة القيصر لِطَنْجَة مـؤكـداً أن المـانيـا تستـريـب بـوجـود مطـامـع فـرنسيـة في المغـرب ، وكـان السلطـان عبـد العـزيـز يـؤيـد شكـوك القيصـر وتـأكيـداتـه ، وفـي هـذا الجـو المشحون بالحملات والتوقعات اقترحت المانيا على السلطان عبد العزيز العمل على عقد مؤتمر دولي لتُبحث فيه اصلاحات المغرب من قبل الدول المعنية بالأمر جميعها حتى لا تنفرد فرنسا بعمل عسكري .

ومن هنا يتضح أن فكرة عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء ، كانت سليمة في أول الأمر . . ولكن المفاوضات بين الدول الأوروبية عكست الأمور لغير صالح المغرب .

وكـانـت فـرنسـا لا تـرغـب في عقـد المـؤتمر لئلا يكـون في مقـرراتـه مـا يتعارض مع مقرراتها السرية ، لأن مؤتمراً جامعاً من هذا النوع سوف يشدد

على تثبيت استقلال المغرب . كما سيؤكد الحقوق المتساوية لجميع الدول فيه .

وقد رفض دلكاسه ذلك رفضاً باتاً ، ولما أُجبر دلكاسه على الاستقالة فإن دوفيه خليفته في وزارة الخارجية ، استعد لقبول المقترحات الألمانية ، ولكنه لم يكن متحمساً لوضع قضية المغرب بين يدي مؤتمر دولي[1] .

وجاء التأييد لرفض فرنسا فكرة عقد المؤتمر من بريطانيا ـ وقد عبرت عنه جريدة التايمز ـ وهي جريدة الاستعمار البريطاني ـ في ٩ حزيران ، فوصفت «التايمز» المؤتمر بأنه إهانة وتسليم ، وكلما أمكن التخلص من المسألة تخلصاً سلبياً كان ذلك أفضل» وبعد يومين كررت الصحيفة الاستعمارية نفسها قولها : «أن فكرة المؤتمر يجب ألا يفكر بها اطلاقاً» .

واستطاع القيصر أن يقنع الرئيس روزفلت بأن يسمع الناس صوته فأحب روزفلت أن يقوم بعمل لمنع نشوب حرب محتملة . فألح على فرنسا بقبول المؤتمر فقبل الفرنسيون بتردد .

وفي ٨ تموز تبادلت الدولتان المذكرات ، التي قبلتا بموجبها مبدأ انعقاد المؤتمر على أساس الاحتفاظ بسيادة المغرب واستقلاله[2] .

رؤساء الوفود في مؤتمر الجزيرة الخضراء

لذلك جاء اجتماع الجزيرة الخضراء مناسبة دولية رائعة ، فقد مثل الدول الاثنتي عشرة بالاضافة إلى المغرب ، جماعة من أبرز الدبلوماسيين فمثل أسبانيا دوق المافادور وزير خارجيتها ، ومثل فرنسا ديفوال وزيرها في المغرب ، وهو تمثيل ضعيف كما يلاحظ ، ومثل إيطاليا الفيكونت فينوستا

---

(١) جراهام ستيوارت.

(٢) «وثائق دبلوماسية عن المغرب ـ ١٩٠١ ـ ١٩٠٥ ، رقم ٢٨٧» .

وزير الخارجية في وزارة كافور ، ومثل المانيا البارون فون دا دوفيتز ، ومثل بريطانيا سير آرثر نيكولسون «اللورد كامروك فيما بعد» ومثل الولايات المتحدة سفيرها هنري هوايت .

وكان رئيس الوفد المغربي محمد الطريس ، وكان قد تجاوز الثمانين من عمره وكان متخوفاً ويشعر شعوراً داخلياً بأن كل مندوب يأمل أن ينال كسباً على حساب المغرب . لذلك كان يحس بأنه غريب في ذلك الجو وقد قال كارلو سفورزا أحد اعضاء الوفد الايطالي «ان محمد الطريس كان متقززاً لأنه اضطر إلى إضاعة وقته في صحبة هذا العدد الكبير من الكفرة» .

حياد الولايات المتحدة وروسيا

كانت الولايات المتحدة وروسيا الدولتين الوحيدتين اللتين يمكن اعتبارهما بعيدتين عن المطامع . وكان يقلق فرنسا أن تجري الرياح بما لا تشتهي سفنها ولكن المانيا كانت تدرك أن مكانتها وحقوقها الاقتصادية في المغرب معرضة لكثير من المتاعب ولم تكن بريطانيا محايدة ، إذ أعلن السر ادوارد جراي الذي تولى وزارة الخارجية حديثاً: أن الغاية الرئيسية هي مساعدة فرنسا على السير في خطتها[1] .

ويبدو لحدٍ ما أن المغرب نجا في هذا المؤتمر من بين اشداق المؤتمرين بأعجوبة ولكن دون أن يجني أي مكسب ، فقد تقرر أن تنشأ قوة بوليسية فرنسية ـ اسبانية ، وهذا تدخل مباشر في شؤون المغرب ، وبنك مغربي للدولة تحت اشراف دولي كما بحثت مشاكل الضرائب والجمارك ، وأقر مبدأ التجارة بالمساواة لجميع الدول الممثلة في المؤتمر ، والقرار الوحيد الهام هو التأكيد على سيادة السلطان واستقلاله ، ولكن اتفاقات سنة

(١) «هارولد نيكولسون ص١٧٥» .



أحد الأحياء الشعبية في مدينة طنجة المغربية

نتائج المؤتمر

لقد كان مؤتمر الجزيرة مظاهرة كبرى للدول الاوروبية للتدخل في شؤون المغرب ، وتقاسم المرابح الناتجة عن ذلك التدخل ، وفرض سيطرتها على الحياة الاقتصادية والمالية والجمركية في ذلك البيت المغربي

الذي أصبح في عهد السلطان عبد العزيز أوهى من خيوط العنكبوت .

وفي هذا المؤتمر العجيب الغريب أيضاً ازداد التقارب بين بريطانيا وفرنسا وروسيا ، بعد أن جروها إلى ذلك المستنقع الدولي الخبيث النتن ، وفي الوقت نفسه ضعف التحالف القديم بين المانيا والنمسا وايطاليا بسبب انحراف إيطاليا ، أما الدولتان اللتان انتصرتا فهما بريطانيا وفرنسا .

وقد لخّص اندريه تارديو الذي ولي رئاسة الوزارة الفرنسية فيما بعد اعمال المؤتمر بدهاء استعماري فقال: إذا رغب راغب في تحديد التغيير الذي حصل ، فيمكن القول أن الاتفاق الودي انتقل إلى مؤتمر الجزيرة الخضراء من حالة السكون إلى الحالة الديناميكية ، ولكن هارولد نيكسون وهو الخبير الأبعد نظراً في هذا الموضوع قال: ان نتائج المؤتمر كانت في غاية السوء لأوروبا والحقيقة أن المؤتمر لم يعد بأي نفع على المغرب ، لأن المغرب ـ كما ثبت فيما بعد ـ دفع جميع النفقات .

وقد تابع الرئيس ثيودور روزفلت المشاورات باهتمام بالغ طيلة انعقاد المؤتمر ، وقد تدخل شخصياً في مرات كثيرة ، ومع أن الكتّاب الفرنسيين قللوا من شأن الدور الذي لعبته الولايات المتحدة ، فليس بالامكان إنكار الواقع ـ وهو أن الولايات المتحدة كان لها القول الفصل فقد تدخلت لأول مرة في الشؤون الاوروبية إذ قال روزفلت لأحد أصدقائه مرة أنه في رأيه كان لموقف الولايات المتحدة الملطف الأثر الكبير في منع قيام الحرب بين المانيا وفرنسا بسبب المغرب .

وهذا معناه أن روزفلت كان يلطف المواقف بين الدولتين المتناحرتين على حساب المغرب .

قرارات المؤتمر وغاياته

إن قرارات مؤتمر الجزيرة التي وقعت في نيسان عام ١٩٠٦ كانت تقوم على مبدأ مؤلف من ثلاثة أسس: سيادة السلطان واستقلاله ، ووحدة ملكه ، والحرية الاقتصادية بدون تمييز .

ومع ذلك فقد تردد السلطان في بادىء الأمر فلم يرغب في التوقيع على المقررات ، ولكن رغبةً في اقناعه ، فقد ارسل وزير ايطاليا المفوض ، وهو عميد الهيئة الديبلوماسية يومذاك في طنجة ، يحمل إليه رسالةً خاصة من الملك فكتور عمانوئيل ـ ملك ايطاليا ـ أعلن فيها الملك الإيطالي باسم الدول الاثنتي عشرة المشتركة في المؤتمر ، «بأنَ تَبنِّي القرار العام بكامله يزيد في مقام جلالتكم رفعةً ومقاماً ويضيف خيراً لا يقدر إلى امبراطورية جلالتكم» وأخيراً صادق السلطان عبد العزيز على القرارات في ١٨ حزيران عام ١٩٠٦ .

وسواء كان الملك عمانوئيل الايطالي جاداً في نصيحته للسلطان عبد العزيز أو متخابثاً ، أو ساذجاً غير مطلع على نوايا فرنسا فإنه قد غش السلطان وخدعه .

لأن فرنسا أرادت من «سيادة السلطان» وهي فقرة خبيثة خداعة ، أن تبقى له هذه السيادة عندما تتمكن فرنسا من ضمه إليها ضد شعبه ، لتقول في المستقبل أنها تحمي السلطان ومقامه واستقلاله ـ أي استقلال السلطان وهذه كلمة مطاطة تعني عدم السماح بقيام أحزاب في الدولة المغربية ، أو حكومات حزبية للاشراف على تنفيذ سياسة الدولة الصحيحة بعيداً عن مؤامرات فرنسا وتدخلها .

أما فقرة «ووحدة ملكه»فإن فرنسا كانت تريد أن تمنع أي تدخل من

قبل الدول المنافسة لها لاقتطاع اجزاء من تلك «الوحدة» الخاضعة تحت اشرافها . وفقرة «الحرية الاقتصادية» تعني ابقاء الاقتصاد المغربي مفتوحاً للتجارة الفرنسية ، والدولية على حد سواء طالما كانت سياسة الانفتاح الاقتصادي تزيد في الدخل الجمركي «المرهون» لفرنسا .

أما بشأن القرارات السرية لعام ١٩٠٤ ، التي لم تكن الدول الموقعة على قرارات المؤتمر تعرف شيئاً عنها ـ باستثناء فرنسا واسبانيا وبريطانيا ـ فإن الضمانات التي اعطيت للمغرب في مؤتمر الجزيرة كانت تافهة قليلة القيمة . والشيء الوحيد الذي حال دون أن يكون للقرارات قيمة اطلاقاً هو أنها أصبحت على مدى خمسين عاماً تشكل براءة للمغرب بالنسبة للقانون الدولي ، حتى أن معاهدة الحماية المكتوبة عام ١٩١٢ لم تحلّ محل تلك القرارات ، ومع أن فرنسا واسبانيا قد سمح لهما بموجب القرارات بأن تزودا قوة البوليس المغربية المستحدثة بالمدربين الذين كان على رئيسهم أن يكون ضابطاً سويسرياً من الجيش السويسري النظامي ، فإن فرنسا لم تحصل على امتيازات خاصة ذلك أن الدول الموقعة جميعها على القرارات كانت تتمتع بحقوق متساوية في المغرب .

ولما وقع المندوبان الفرنسيان ديفولي وروجين القرارات بالنيابة عن رئيس الجمهورية الفرنسية ، وعدا بأن تحترم بلادهما سيادة المغرب ووحدته وأن تمتنع عن الادعاء بأي امتيازات خاصة .

ولكن الورقة التي كانت فرنسا متأكدة من أنها ستلعب بها في المستقبل الدور الأول في المغرب هي : الإشراف والهيمنة على السلطان فإذا تمكنت من وضعه تحت إرادتها وحمايتها ـ فيما لو ثار الشعب المغربي ضده ـ فانها عندئذ ستعمل على الانفراد بثروة المغرب ومقدراته الاقتصادية .

التدخل الفرنسي السافر
واحتلال الدار البيضاء

في السنة التالية لمؤتمر الجزيرة الخضراء تحركت الاصابع الفرنسية لإثارة الفتن والاضطرابات في البلاد لخلق مبررات التدخل العسكري ففي ٢٢ أذار ـ مارس ـ سنة ١٩٠٧ ، قتل الدكتور موشان في مراكش الواقعة في جنوبي البلاد ، فوجدت فرنسا في مصرعه سبباً يحثها على التدخل عسكرياً ، فاجتازت قواتها الحدود المغربية من الجزائر ، واحتلت مدينة «وجدة» في شمال شرقي المغرب .

وبنفس الطريقة الآنفة الذكر وقعت حادثة أخرى في مدينة الدار البيضاء الواقعة على شاطىء الأطلسي ، حيث كانت شركة فرنسية ـ اسبانية قد سبق لها أن نالت امتيازاً لأعمال انشائية تتعلق بالمرفأ والسكك الحديدية ، رغم معارضة الوطنيين من أبناء البلاد والذين يكرهون الأجانب ، فقتل الجمهور الغاضب تسعة من عمال الشركة . ثلاثة من الفرنسيين وثلاثة من الاسبان وثلاثة من الايطاليين ، هذه الجريمة «ذات الثلاثيات» لا يمكن بأي حال إلا أن تكون مدبرة لأن القتلى هم من رعايا الدول التي عقدت الاتفاقية السرية . وكانت غاية مصممي المؤامرة ، إثارة الدول الثلاث المعنية، فأخذت فرنسا عملية الانتقام على عاتقها فضربت الدار البيضاء بالقنابل من البحر، في عملية مرتبة اقتضت أن تكون البارجة الفرنسية «الجليل» موجودة قبالة الساحل، فأنزلت السلطات الفرنسية جنوداً فرنسيين احتلوا المدينة ومنطقة الشاويه الداخلية، وقد صرح السيد أوغسطين برنار في السنة التالية في مؤتمر افريقية الشمالية الذي عقد في باريس: «أن تهدئة الشاويه قد أدى إلى أسالة الكثير من الدماء» دماء المغاربة طبعاً !

ويذكر في هذه المناسبة أن السلطات المغربية كانت تجهل جهلاً تاماً

المؤامرة المدبرة لانزال الجنود الفرنسيين من البارجة الفرنسية «الجليل» لذلك نزلت القوات الفرنسية ، تحت حراسة الجنود المغاربة الذين ارسلهم حاكم الدار البيضاء مولاي الأمين ، ولما وعد مولاي الأمين بإعادة النظام ـ بعد الإنزال ـ اجابه الكونت دي سانت أولير الوزير الفرنسي المفوض بالوكالة في طنجة قائلاً : «لنفرض أن النظام يمكن أن يعود من تلقاء نفسه أو بفضل تدخل الحكومة المغربية ، فإن مثل هذا التدخل لا يضمن إنزال العقوبات اللازمة . . . لأن ردع المعتدين ـ أي المغاربة ـ لا يمكن أن يتم بفعالية إلا بوسائلنا الخاصة . حتى قبل الحصول على الترضيات»(1) وهكذا وقع حاكم الدار البيضاء في الفخ المنصوب وهو معصوب العينين .

وفيما بين عامي ١٩٠٤ و١٩٠٦ احتلت فرنسا مراكز بشار وقرطاسه وبركنت ، كما سيطرت على الهضاب العالية والمشرفة على مدينة «الملويه» وتذرعت لهذه الحملة بحجة أن عاملي وجدة وتافيلالت خرقا الحدود ، ولأن السلطان عبد العزيز استقبل زعيم ثورة الجنوب «ماء العينين» وغير ذلك من الاحداث التي جرت في طنجة والصويرة ضد الفرنسيين . ومقتل الدكتور موشان الفرنسي .

احتلال الرباط

وبعد حادث احتلال الدار البيضاء احتلت القوات الفرنسية مدينة الرباط ، وطلبت فرنسا من السلطان تعويضاً قدره ستون مليوناً من الفرنكات ، وأضافت إلى ذلك فاتورة بقيمة ١٣,٠٦٩,٦٠٠ فرنك تعويضاً على الاضرار التي لحقت بالتجار الفرنسيين أثناء الحملات التأديبية التي قامت بها القوات الفرنسية ضد المغاربة . .

---

(1) فكتور برتي: احداث الدار البيضاء في شهري اغسطس وسبتمبر صدر في عام ١٩٥٣ ص١٨ .

وفرض السلطان عبد العزيز ضرائب جديدة ثقيلة ليتمكن من جمع جزء من التعويض المطلوب ، وقد اعتبر الشعب المغربي تلك الضرائب مهينة وفاحشة ومحطة بالكرامة فاندلعت الثورة إثر ذلك مباشرة .

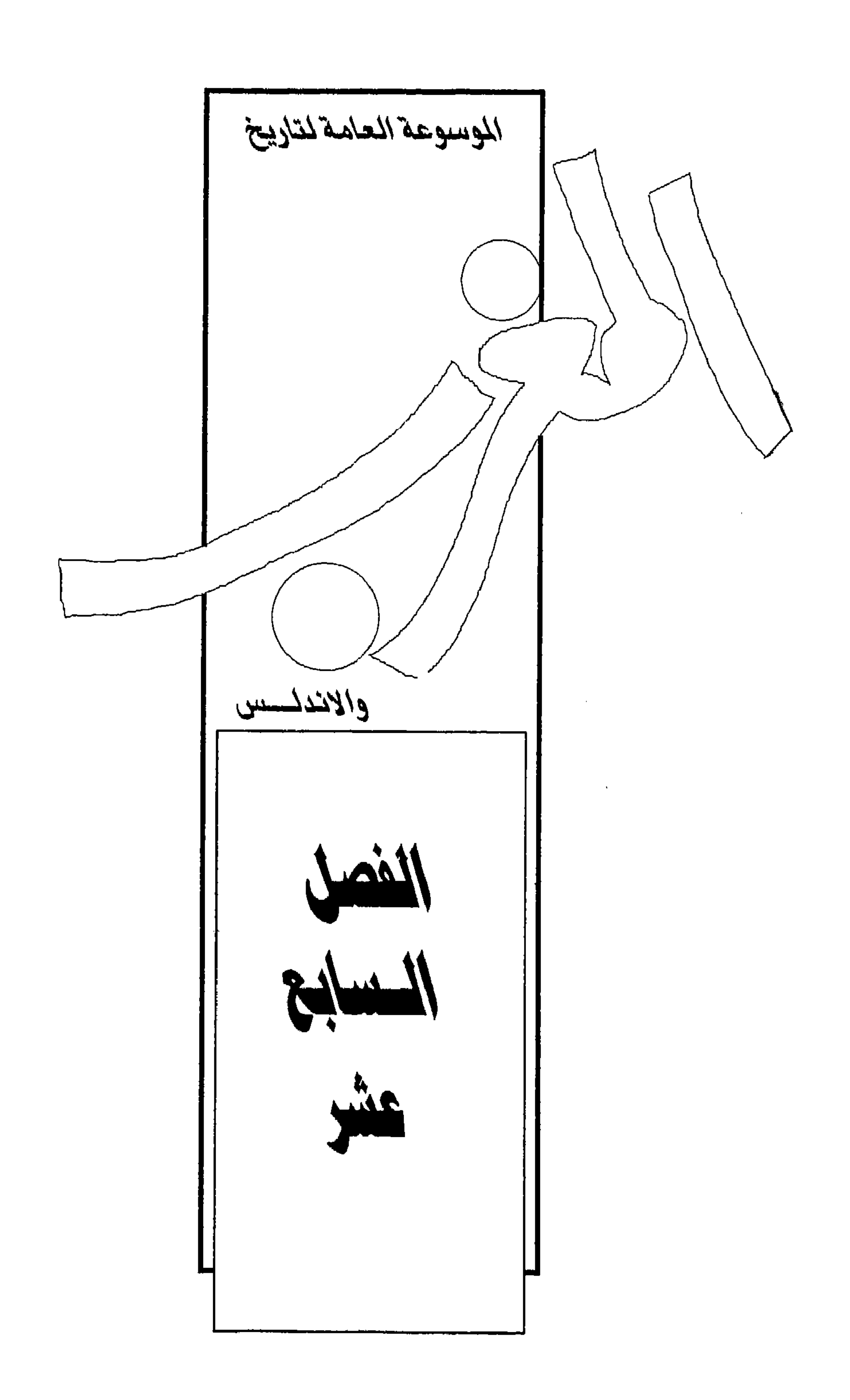
لقد سقط السلطان عبد العزيز ضحية للأوصياء والمستشارين الأجانب والحاشية الانتهازية التي كانت تعزف على قيثارة مصالحها الشخصية ، فخدعوه جميعاً بظواهر المدنية الاوروبية البراقة ، والإباحية الفرنسية المخلة بالاخلاق ، وزينوا له عقد القروض لاصلاح مرافق الدولة ، فوقع في اخطبوط المحتالين الفرنسيين من اصحاب البنوك الذين جعلوا من السلطان الشاب جسراً لابتزاز اموال الشعب المغربي ، حتى أوقعوه في شرك الديون ، ثم سلّت فرنسا عليه سيوفها لاحتلال بلاده العظيمة ، ففي عهد هذا السلطان المنكود الحظ الضعيف المتخاذل فرضت على المغرب معاهدة الجزيرة الخضراء القذرة ، التي أدت إلى احتلال فرنسا لاجزاء من أراضي ومدن المغرب . لذلك كان عهد عبد العزيز تتمة لعهود الانهيار المغربي السابقة . .



منظر عام لمدينة الرباط عاصمة المملكة



السلطان عبد الحفيظ


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الـسابع
عشر

السلطان عبد الحفيظ بن الحسن الأول

١٩١٠ ـ ١٩١٢

أثارت الهجمة الفرنسية الاستعمارية الشرسة على المغرب كوامن الشعور الوطني ـ ذلك الشعور ـ الذي التهب فجأة وراح يتصاعد منه لهيب الثورة المغربية الوطنية على المحتلين الفرنسيين وحلفائهم الاوروبيين اللدودين ، والسلطان عبد العزيز الضعيف الواهن ونسائه ومحظياته اللواتي تفرنجن قبل الأوان .

ولكن المهم هو السلطان عبد العزيز الذي برهن بعد تخاذله وسقوطه في شرك المؤامرات الدولية بأنه لم يكن صالحاً للملك ولا كفؤاً للمسؤولية العظمى التي القيت على كاهليه الواهنين ـ ولا سيما بعد الاتفاقات السرية والعلنية التي سبق أن عقدتها فرنسا مع بريطانيا وايطاليا ووزعت بموجبها مناطق الاحتلال والنفوذ في شمال افريقية من المغرب الأقصى إلى مصر .

ولم يكن شعور الاسرة العلوية المالكة بأقل من شعور الشعب المغربي ثورة وتأججاً . فالشعب المغربي أدرك بعد فوات الأوان أنه كان مخدوعاً ،

وأن السلطان عبد العزيز لم يكن يصارحه ويطلعه أولاً بأول على ما يقوم به ، وعلى ما يجري من أحداث نتيجةً لتورطه في احابيل مستشاريه الاجانب الذين جرُّوه جراً إلى القبول بالأمر الواقع .

وكان أول من قاد الثورة ضد عبد العزيز أخوه عبد الحفيظ نائبه وعامله في مراكش ، فانتفض معلناً أن اخاه السلطان لا يصلح للملك ، واتهمه بالتنازل عن حقوق الدولة المغربية ، وعن استقلالها ، وكرامتها وشرفها للدول الأجنبية ، أو حسب قوله : «أنه فَرَّط بثروات المغرب ومصالحه وأراضيه وسلمها للكفار الأجانب» .

وامام هذه النوازل والكوارث التي احاقت بالبلاد نادى بنفسه سلطاناً خلفاً لأخيه ، فدعا الشعب للالتفاف حوله للثورة والزحف معه إلى العاصمة فاس لانقاذ الوطن ، فاجتمعت حوله قوات زحف على رأسها لاسقاط أخيه ، وخرج عبد العزيز من فاس لمحاربة أخيه عبد الحفيظ ، ولكن قواته ما لبثت أن تبعثرت قبل المصادمة بين الاخوين مؤثرة حقن الدماء والابتعاد عن مؤازرة السلطان الضعيف . وهكذا هاجم عبد الحفيظ القوات الفرنسية ، ودخل فاس حيث نودي به سلطاناً على المغرب وجدّدت له البيعة في مراكش التي كانت أول مدينة ثارت على السلطان المخلوع .

وكان من شروط البيعة «أن يقود الجهاد ضد الغزاة الفرنسيين ، وأن يتعهد بتحرير المغرب من التزامات معاهدة الجزيرة الخضراء لأنها عقدت دون علم المغاربة . كما يتعهد بالغاء الإمتيازات الاجنبية ، وألا يستخدم مستشارين اجانب في شؤون الوطن والأمة والمصالح العامة ، وألا يبرم مع الاجانب عقوداً سلمية أو تجارية إلا بعد استشارة الأمة» .

أبو حمارة يوسع حدوده

وخشيت فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية التي تتمتع بامتيازات تجارية في البلاد أن تفلت الأزمّة من أيديها ، فحركت العصاة الهدامين في البلاد ، فانطلق المتمرد العاصي أبو حماره على رأس شراذمه وراح يعمل على توسيع إمارته فقطع بذلك الاتصال بين شمال المغرب وجنوبه كي لا يتمكن السلطان الجديد من جمع أبناء البلاد وحشدهم للقتال ، وكما هي العادة فقد تقدم المستشارون القدماء ومن استجد منهم بتقديم النصائح للسلطان عبد الحفيظ على أن يبدأ نضاله بالقضاء على «ابي حماره» فحشد كل ما بوسعه أن يحشده من رجال واضطر إلى الاستدانة من البنوك الفرنسية مئة مليون فرنك ذهبي للانفاق على حملته التأديبية ، بعد أن رهن لقاء ذلك المبلغ «الأربعين في المائة التي كانت قد بقيت للمغرب من واردات الجمارك» فأتاح بهذا العمل المستهجن لفرنسا الاشراف على ميزانية المغرب ووضعها تحت مراقبتها . . وكان ذلك أول خطأ ارتكبه السلطان الجديد .

نهاية أبي حمارة

ولكن السلطان وفق في حملته فقبض على أبي حمارة ، فنقله إلى فاس في قفص من الحديد وعرضه على الشعب . . ثم قتله .

ولكن حملة القضاء على أبي حماره كلفت الدولة عقد قرض بـ ١٠٠ مليون فرنك ذهبي وهي التي اقترضها السلطان عبد الحفيظ من البنوك الفرنسية ولم يقبض منها فرنكاً واحداً بل رهن الأربعين في المئة الباقية من واردات الجمارك كَما ذَكَرْنَا هذا بالاضافة إلى الديون السابقة التي كان قد اقترضها عبد العزيز ومقدارها ١٦٣ مليون فرنك .

وأصدرت فرنسا سندات الدين بقيمة اسمية وقدرها ٥٠٠ فرنك للسند الواحد ، ولكن جمهور الشعب الفرنسي كان بوسعه الحصول على السندات

بقيمة ٤٨٥ فرنك للسند الواحد . أما اصحاب البنوك فكان باستطاعتهم شراء السند الواحد بقيمة ٤٣٥ فرنكاً .

وقد اوضح جان جوريس في مجلس النواب الفرنسي: «أن السندات رفعت اثمانها بشكل مصطنع بحيث بيع السند الواحد يوم طرحها في السوق بـ ٥٠٧ فرنكات وبذلك تمكن اصحاب البنوك الفرنسيون من ربح عاجل مقداره ٧٢ مليون فرنك على حساب المغاربة الذين نهبوا وسرقوا»[(١)] .

وقد هاجم جان جوريس وبصورة خاصة «بنك باريس والبلاد المنخفضة» وهو المؤسسة التي قدر لها أن تقوم بدور كبير في الشؤون المغربية في السنوات التالية .

ولم يتح للسلطان عبد الحفيظ أن يقبض فرنكاً واحداً من القرض الجديد الذي اعطي لشراء الأسلحة ، ولكن السلطات الفرنسية بالتواطؤ مع اصحاب البنوك صادرت المبلغ كله لوفاء الديون السابقة والتعويضات المذكورة آنفاً ، بالاضافة إلى رسوم المرافىء واحتكار التَّبْغ اللذين كان قد ارتهنهما الدائنون ولم يبق من مورد للسلطان سوى الضرائب المباشرة وما يجمع منها من القبائل .

وقد روت التايمز اللندنية أن البلاد قد خيم عليها اليأس بسبب مطالب السلطان الملحة .

اسبانيا تنزل جيوشها في شمال المغرب

بعد أن أَجهز السلطان عبد الحفيظ على عصابة «ابي حماره» انتقم هذا من مواطنيه المغاربة حتى بعد موته .

---

(١) نشرة الأنباء المغربية . مكتب الاستعلامات المغربي ـ نيويورك ٢٨/١١/١٩٥٢م .

لأن أسبانيا انزلت على سواحل المغرب الشمالية تسعين الف جندي بحجة أن قبائل الريف هاجمت عام ١٩٠٩ عمالاً اسبانيين كانوا يشتغلون في منجم للحديد حصلت اسبانيا على الترخيص باستثماره من «أبي حمارة» عندما كان متسلطاً على ذلك الجزء من المغرب! وكان من الطبيعي ألا يوفق السلطان عبد الحفيظ في صَدّ هذه القوات الكثيفة بقواته المتواضعة . ومنعها من النزول فوق التراب المغربي .

التواطؤ الإسباني ـ الفرنسي

وهكذا راح السلطان الجديد يتلقى الضربات الواحدة تلو الاخرى مرة من فرنسا وأُخرى من اسبانيا اللتين راحتا تنفذان مؤامرة احتلال المغرب بشراسة وهمجية على طريقة «الجريمة المنظمة» .

وأصبح الوضع في المغرب صعباً فقد عمل المستعمرون على توريط السلطان في الحروب الداخلية مع العصاة والمتمردين الذين كانت تحركهم فرنسا في الوقت المناسب ، كما جرى عندما ثارت قبائل الشراردة وبني مطير التي بايعت المولى الزين في مكناس ، ثم انطلقت نحو فاس وهاجمتها ، واشاع الفرنسيون بأن سكان فاس تعاطفوا مع قوات المولى الزين لذلك هب المقيم الفرنسي في الرباط إلى قمع الثورة ـ ومن جانب آخر من المغرب انزلت اسبانيا قواتها في مدينة العرائش الشاطئية ومدينة القصر الكبير عام ١٩١١ .

والأدهى من ذلك وأمرّ أن اسبانيا عقدت اتفاقاً مع فرنسا مستوحى من اتفاق مدريد عام ١٩٠٤ ، اعترفت فيه فرنسا لاسبانيا بحقها باحتلال منطقة الريف ، بالاضافة إلى مرفأ «إفني» على شاطىء الاطلنطي والاتفاق على جعل مدينة طنجة منطقة دوليه .

وكان احتلال فرنسا للدار البيضاء قد زودها بميناء بحري لإنزال جنودها كما أن استيلاءها على الشاويه قد وضع تحت تصرفها جزءاً من أغنى أراضي المغرب وقد ضمن احتلالها لوجدة باباً واسعاً لدخولها من الجزائر . .

ولكن حادث التدخل العسكري ذا الاثر الأبعد جاء في ٢٧ نيسان/ ابريل سنة ١٩١١ إذ احتلت القوات الفرنسية فاس عاصمة البلاد ورمز السلطة الشريفية وكان احتلالها السبب الرئيسي في ارسال الطراد الالماني بانتير إلى اغادير في السنة نفسها الأمر الذي تبعه الاتفاق الالماني الفرنسي وهذا ازاح العقبة الديبلوماسية الأخيرة التي كانت تعترض تقدم فرنسا نحو انشاء نظام الحماية على المغرب .

لجنة المغرب الفرنسية

واحتلال فاس يلقي الكثير من الضوء على نشاط «لجنة المغرب» الفرنسية وهي المنظمة التي كانت القوة الرئيسية المسؤولة عن احتلاله .

وكانت هذه اللجنة تتألف من رجال السياسة الفرنسيين وممثلين عن أصحاب الاعمال التجارية والمالية الكبرى ويساندها بنك باريس والبلاد المنخفضة وشركة دي شانيون وشركة شنايدر ، والبنك الفرنسي للتجارة والصناعة والشركة الدولية للريجي لاستثمار التبغ في المغرب ، واتحاد المعادن . وكما قال موريل : أن الشركة كانت مكونة من متمولين تألبوا على المغرب لخنقه ، واما ضماناتهم فكانت ترتفع كلما توطد الاحتلال الفرنسي وقد قدر لها أن تنجح .

احتلال فاس

وفي نيسان عام ١٩١١ كان دوفيه رئيس الوزراء الفرنسية السابقة قد

اصبح كبير الموظفين التنفيذيين لبنك باريس والاراضي المنخفضة ، فنشر أخباراً مؤداها أن مدينة فاس ، كانت محاطة بالعصاة وان الاوروبيين هناك في خطر ، فاستجابت الحكومة الفرنسية لضغط اللجنة ـ وفقاً للرواية الملفقة ـ فأصدرت تعليماتها إلى الجنرال موانيه بتخصيص ثلاثين الف جندي «لنجدة العاصمة فاس» وراحت الحكومة الفرنسية تردد تأكيداتها الدائمة باحترام وحدة المغرب واستقلاله وتعلن أن الجنرال موانيه سينسحب عائداً إلى الساحل متى انقذ الأوروبيين المعرضين للخطر(١) .

إن مدينة فاس التي بناها الشرفاء الأدراسة تستحق أكثر من وقفة لوصف عملية احتلالها من قبل الجيش الفرنسي .

وقد وصف ف . دوبر سانس ، ما يسمى بمغامرة فاس كما يلي :

«في سبيل تبرير احتلال فاس التي كانت ستتوج المأساة الملهاة الخسيسة نظمت «لجنة المغرب» المذكورة آنفاً ، حملة من الكذب الرتيب ، ولما كان رجالها يسيطرون على الصحافة بأجمعها فقد اغرقوا الجماهير بالاخبار الكاذبة ، وبدت «فاس الشهيدة» في اخبارهم وكأنها مهددة بالحصار أو النهب ، وقد وصفت حالة الاوروبيين فيها بأبلغ لغة تثير الشعوب ، فكانوا يقولون للجماهير المضطربة : «أن المدينة تعرضت لغارة عنيفة» ثم يقولون : «ان المدينة ستحاط قريباً بدائرة من الحديد واللهب» .

وبينما كانت الحملة في طريقها إلى فاس أخذ النور يلقي أشعة على حقيقة الاحداث ، فإذا بالعصاة الذين كانوا يهددون فاس قد اختفوا فجأة ،

---

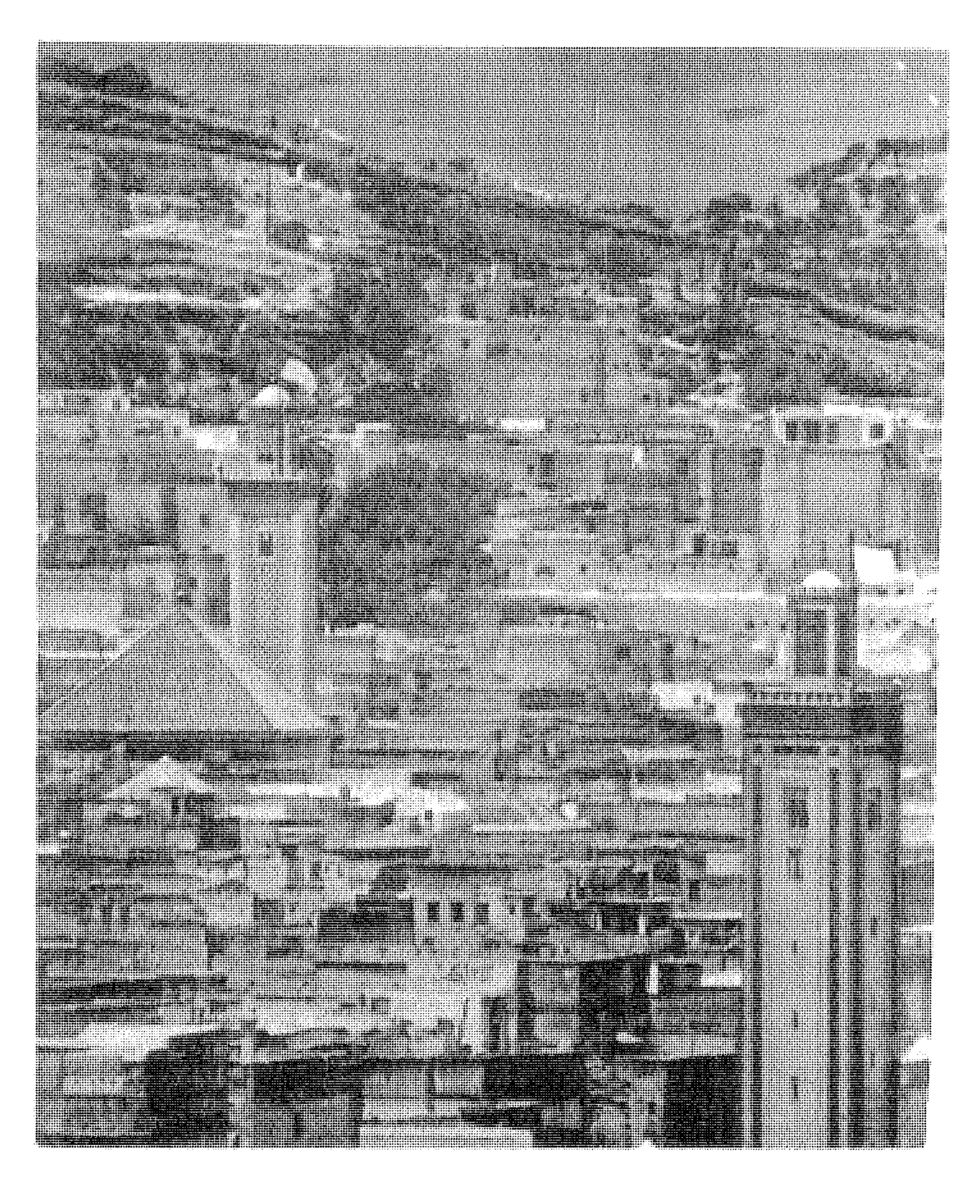
(١) هكذا كانت المغرب «تأليف وولتر هاريس» ١٩٢١ ص٣٠٩ ـ ٣١١ . وكتاب «مراكش اليوم» تأليف «أوجين أوبان» ـ ١٩٠٦ ص٢٨١ ـ ٢٨٥ .

كما يختفي الندى عند طلوع الشمس ، وكانت القوة الفرنسية المهاجمة تتذمر من انعدام رؤية الاعداء في أي مكان ، وهكذا اختفى الشَّبَح الرهيب الذي صورته «لجنة المغرب الفرنسية» بين عشية وضحاها . وقال أحد المراسلين وكان قد قام بواجبه في جوقة الاخبار الكاذبة ، وبمنتهى ما يمكن من برودة الأعصاب ، أنه في الواقع لم تتعرض سلامة فاس أو سكانها لأي خطر في أي وقت من الاوقات ، أما فيما يتعلق بالمؤن فقد أكد لأولئك الذين كانوا مضطربين أن المدينة كان فيها من الحبوب ما يكفي سكانها جميعهم والجيش الفرنسي الزاحف عليها لمدة تزيد على السنة .

ولكن الرواية مثلث بفظاعة فبعد احتلال الدار البيضاء ، كان لا بد لفرنسا من أن تحتل العاصمة فاس .

وهكذا حُبكت وغُزلت مؤامرة إحتلال فاس على أن يبدأ الفصل الأول بعدها بفرض الحماية على المغرب ، ثم يلي ذلك عهد الامتيازات والارباح والفوائد .

وفي نهاية حزيران «يونيه» عندما كانت الحكومة الفرنسية تصرخ بأعلى صوتها بأن تصرفها كأن «صحيحاً» أنها تحترم استقلال المغرب ووحدة أراضيه ، كان الجنرال موانيه Moinier ما يزال يحتل فاس . ويفرض سلطته بالحديد والنار على كثير من الأراضي المغربية غيرها .



مدينة «فاس» عاصمة المغرب العلميّة

الرعايا الآلمان في المغرب يطلبون النجدة من بلادهم

وقد غضبت المانيا يومها كثيراً إزاء تصرف فرنسا هذا واقدامها بالتواطؤ مع اسبانيا على احتلال المغرب فنشأت بينها وبين فرنسا أزمة حادة أدت إلى تدهور العلاقات بينهما بشكل ملحوظ . ولم يكن الغضب الألماني ناتجاً عن غيرة المانيا على المغرب لاحتلاله من قبل الفرنسيين والأسبان وإنما بسبب رغبتها في اقتسام الغنائم وأنها ستنال حصتها من التعويض بعد توقيع معاهدة الجزيرة الخضراء بين المغرب وفرنسا وفي أن يكون اجتياح المغرب مشتركاً تنال هي من جرائه بعض المكاسب . ولهذا فإن الشركات الآلمانية العاملة في المغرب سرعان ما استغاثت بحكومة بلادها طالبة النجدة السريعة مُدَّعية أن ممتلكاتها ومنشآتها في المغرب تتعرض للاعتداءات المستمرة وهذا ما سيقودها حتماً إلى التدهور فالدمار المحقق . كما ادعت أن حياة الرعايا الآلمان أنفسهم أصبحت في خطر . لم تكن حكومة المانيا يومها بحاجة لأكثر من هذا كي تتدخل في شؤون المغرب بحجة المحافظة على أرواح رعاياها من جهة وعلى المحافظة على املاك الشركات من جهة ثانية .

الفهد الآلماني في آغادير

وقد رأت الحكومة الإمبراطورية بمذكرة اصدرتها تلبية لطلبات الاستغاثة هذه أن تبعث ببارجة حربية إلى ميناء اغادير ، لتقدم العون والمساعدة إلى الرعايا الآلمان ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك . . وعندما تعود الحالة في المغرب إلى ما كانت عليه من هدوء ، فإن البارجة الموكل إليها القيام بالمهمة الدفاعية ، ستغادر ميناء أغادير» وقد وقع المذكرة السيد فون كيدرلن فيختر وزير الخارجية الالمانية ومع أن الجنود الفرنسيين ظلوا

في فاس فإن الطراد بانتر غادر اغادير بصورة مشبوهة .

وقد أوضح المستشار فون بيلوف حادثة الطراد بانتر في الريختاغ بقوله : «ان قرارات مؤتمر الجزيرة كان يقصد بها الحفاظ على استقلال المغرب ، رغبة في تنمية البلاد اقتصادياً ، وقد اتضح بعد ذلك أن قراراً من القرارات الأصيلة اصبح مفقوداً ، وهو القرار المتعلق بسلطان يحكم البلاد حكماً فعلياً ، ويكون باستطاعته أن يقوم بالاصلاحات المتوخاة ، ولكن حتى السلطان عبد الحفيظ لم يتمكن من القيام بذلك ، رغم ما لديه من الصفات الشخصية ، وقد ازداد اعتماده على النفوذ الأجنبي ، مما ادى إلى تدخل متزايد من جانب فرنسا ، وقد اعلنت فرنسا أنها تنوي أن تبعث بجنودها إلى فاس ، لكي تعود بالاوروبيين الموجودين هناك إلى الساحل تحت حمايتها ، ونحن لم نتلق مثل هذه التقارير المزعجة من فاس ولذلك اعلنا أن جاليتنا لم تكن بحاجة إلى عون اجنبي ، وقد اضفنا ، تحفظاً واضحاً بأننا نحتفظ بحرية العمل ، فيما إذا تجاوزت الحملة الفرنسية هدفها المعلن عنه . . . وقد حدث هذا ، كما توقعنا ، إذ فرضت فرنسا نفسها بشكل لا حد له على السلطان بسبب نفوذها الذي اصبح تاماً ، وبذلك زال استقلال السلطان الذي افترض مؤتمر الجزيرة وجوده . . فالحاكم الذي يعتمد على تأييد الحراب الاجنبيه ، لا يمكن اعتباره الحاكم المستقل ـ الذي قام قرار مؤتمر الجزيرة على وجوده . . . فبينما كانت السيطرة الفرنسية يتسع مداها في المغرب ، انتشرت معها اسطورة لا في فرنسا وحدها ولكن في دول أخرى ، تقول بأن فرنسا كانت تفعل ذلك بالنيابة عن أوروبا التي انتدبتها لذلك الفعل . . .

فلما تعرضت المصالح الالمانية للخطر ، بسبب الاحداث التي جرت في المغرب ارسلنا بارجة حربية إلى

اغادير[1] .

اتفاق فرنسي ـ الماني واطلاق يد المانيا في الكونغو

وقد ترتب على حادثة البارجة الحربية بانتر ان تم الاتفاق الالماني الفرنسي الذي وقّع في ٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٩١١ . وهو الاتفاق الذي حقق لفرنسا آخر ضمانة لمشروعية مكاسبها في المغرب ، ولحماية نفسها من المعارضة الألمانية ، وليس معنى هذا أن المانيا ـ تنازلت ـ فان التحليل الماهر الذي قام به فون بيلوف للمطامع الفرنسية ووسائلها ، اقنعت فرنسا . أن المانيا لم تكن مغفلة إلاّ أن تصميم فرنسا على قطف ثمار السياسة التي بدأتها «لجنة المغرب» والتي كان دلكاسه شديد الاصرار على الاستمرار بها ، اتضح لما أبدت فرنسا استعدادها لأن تتخلى عن مساحات شاسعة من املاكها في حوض الكونغو ـ في أواسط القارة الافريقية ـ لتضمن حسن نوايا المانيا فقد اعطت المانيا على وجه التدقيق ١٠٧,٢٧٠ ميلاً مربعاً من املاكها في الكونغو ثمناً لوضع خططها في المغرب على أُسُس أمينة مضمونة[2] .

وفي ١٤ كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١٩١١ اعلن دوسلف وزير خارجية فرنسا إلى مجلس النواب الفرنسي ، ووجهه يطفح بشراً قائلاً : «أن الكلمات الأولى التي لفظها وزير خارجية المانيا «أن المغرب لكم» هي بمثابة اعلان من قبله «بأن المغرب لنا» حتى أنه أضاف انشئوا هناك حمايتكم ، اكتبوا بانفسكم الوثائق اللازمة لبيان التفاصيل»[3] .

وهكذا سقطت مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء إلى الابد . وسقط معها في الاوحال شرف الامبراطور وليم الثاني وكرامة الحكومة الالمانية .

---

(١) موريل: المصدر ص١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٢) وثائق دبلوماسية ـ المسألة المغربية ١٩١٠ ـ ١٩١٢ رقم ٤٢٨ .

(٣) الجريدة الرسمية ١٤ كانون الأول ديسمبر ١٩١١ .

معاهدة فاس والحماية الفرنسية على المغرب

بعد هذا . . وجد السلطان عبد الحفيظ نفسه غارقاً ومورطاً في شبكة التدخل الاجنبي ويئس من الدنيا بسبب الفوضى الضاربة اطنابها في بلاده لذلك اضطر في ساعة من ساعات اليأس والقنوط ، إلى طلب المعونة من فرنسا ، فاستجابت فرنسا لطلبة مزهوة مسرورة وقدمت له «معاهدة الحماية» .

وراح الفرنسيون يذيعون بأن الشعب المغربي قبل بالمعاهدة ، بعد أن خيل لهم الوهم بأن السلطان عبد الحفيظ هو كل شيء في البلاد وأن إرادته هي إرادة الشعب المغربي كله ولكن لما وصل يوجين رينو ـ وهو السفير الفرنسي الذي عهد اليه بالمفاوضة بشأن «معاهدة الحماية» ـ إلى فاس على رأس بعثة كبيرة ، استقبله الفاسيون بالصمت ونظرات الازدراء العدائية والجدير بالذكر أن السلطات المحلية باشراف الجيش الفرنسي جمعت العاهرات الفرنسيات من دور البغاء لاستقبال السفير الفرنسي يوجين رينو لكي يوهموه بأن نساء المدينة خرجن لاستقباله من تلقاء انفسهن[1] .

ان المفاوضات التي سبقت توقيع معاهدة فاس ، وهي الوثيقة الاستعمارية التي تؤكد سيادة فرنسا على المغرب ، كانت أقل من الشكلية ، لأن المعاهدة التي جعلت من المغرب حماية إنما فرضت على السلطات وقد اخذت توقيعها في ٣٠ مارس ـ اذار ـ سنة ١٩١٢ ذهولاً عاماً لأن سكان فاس والمغرب باجمعهم من أكبرهم إلى اصغرهم ، اعتبروا يومها خضوع السلطان عبد الحفيظ خيانة للمغرب والاسلام[2] .

---

(١) الدكتور وايز جربر المغرب الحديث طبع في الرباط . وتاريخ المغرب في القرن العشرين ص٥٦٣ .

(٢) الدكتور ـ وايز جربر: المصدر نفسه أعلاه .

دور الكتاب الفرنسيين في تثبيت الاحتلال

قبل فرض الحماية على المغرب وبعدها كانت الحكومة الفرنسية تبحث عن كتاب فرنسيين وربما غير فرنسيين أيضاً لتبرر سلوكها الفظيع المشين «بفرض الحماية» على المغرب بقصد احتلاله فاستكتبت عدداً كبيراً من الكتاب المأجورين . الذين راحوا يلفقون الاكاذيب ضد المغرب ويقولون: أن المغرب قبل سنة ١٩١٢ «لم يكن أمةً ولا دولة» مثل هنري تراس الذي قال في كتابه «تاريخ المغرب» من نشر الاتلانتيد عام ١٩٥٢ : «أن المغرب المسلم لم يكن قط دولة تستحق مثل هذه التسمية فقد ظهرت بعد عصر المرينيين بلاد السيبه التي كانت تتسع رقعتها مع الوقت ، فالمغرب الشريفي لم يكن سوى مجموعة من القبائل لا استقرار فيها . إلى آخر معزوفة الأكاذيب والاضاليل[1] .

أما الكتاب الفرنسيون التقدميون من ذوي المبادىء والنزاهة فكانوا يكتبون ويؤلفون من ذات انفسهم ومن امثالهم ليفي بروفنسال الذي كتب يقول: أن المغرب كان على مدى خمسة قرون البلد الإسلامي الوحيد الذي يشعر بأنه يكوّن أُمّة ، مع أن مثل هذه الفكرة لم تكن واضحة كل الوضوح في دول اسلامية اخرى ، لقد كان المغرب يشعر بوحدته السياسية والعرقية كما أنه شاهد ولادة الشعور القومي الصادق ، والحق أنه لو لم يكن المغرب قد حقق «شخصيته» كدولة أو كأمة فكيف نستطيع أن نفسر استمرارية وجوده بلداً قائماً مدة اثني عشر قرناً؟ وكيف يمكن أن نعلل فردية حضارته واستمرارها ، ومعارضة البلاد بأكملها للاحتلال الفرنسي ؟ وكيف نوضح حقيقة كون المغرب البلد الوحيد ذي الثقافة العربية استطاع مقاومة

---

(١) «راجع كتاب تاريخ نشر الأتلانتيد ص١٨٩ ـ ١٩٠» .

العثمانيين ، وظل مستقلاً اربعمئة سنة ، بينما كانت البلاد العربية جمعاء خاضعة للحكم التركي؟» .

ومن أمثال هؤلاء الكتاب الفرنسيين الشرفاء اندريه جوليان وهو استاذ في جامعة السوربون مؤلف كتاب «شمال افريقية في مسيرته» عام ١٩٥٢ . إذ يؤكد بشكل خاص واقع الاستمرار في الدولة المغربية فيقول: «بالرغم من القتال المزمن بين المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية وبالرغم مما كان يحدث في الجزائر من أمور هي على عكس ما كان يحدث في المغرب ، فقد كان استمرار الدولة المغربية بادياً للعيان» .

هذان حكمان قاطعان صادران عن مؤرخين مرموقين ، ولنستمع الآن إلى رأي الماريشال ليوتي الذي قاد الحرب الفرنسية في المغرب لمدة طويلة ـ إذ يقول في خطاب القاه سنة ١٩١٦ : «لقد وجدنا في هذه البلاد دولة وشعباً واضحي المعالم فأكثر التنظيمات كانت راسخة ، وكانت تمثل شيئاً حقيقياً فلم يكن ثمة نظام سياسي واضح فحسب ، بل كان هناك نظام قضائي هام» .

وقال في مناسبة أخرى: «وكلما طالت اقامتي ومعرفتي بأهل هذه البلاد ، ازداد اقتناعي بعظمة هذه الأمة فبينما كنا نجد في الأجزاء الاخرى من شمال افريقية مجتمعاً متقوض البناء ، بسبب الفوضى السابقة ، وانعدام القوة ، وجدنا هنا امبراطورية مكينة ، والفضل في ذلك يعود إلى قوة دائمة وطّدها واقع تتابع الأسر المستمر ، والحفاظ على المؤسسات الأساسية بالرغم من الثورات» .

وثمة تحليل آخر للماريشال ليوتي جاء فيه: «في الجزائر وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع التراب ومع وضع صوري ، كانت السلطة الوحيدة فيه تتمركز

في شخصية «الداي» التركي ، وهي السلطة التي تهاوت حال وصولنا . أما في المغرب ، فقد كان الأمر على العكس من ذلك ، إذ وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع امبراطورية تاريخية مستقلة ، فإنه ما يزال يعيش في المغرب بضعة رجال اعلام - كانوا إلى ست سنوات خلت سفراء المغرب المستقل في سانت بطرس بورغ ، ولندن ، وبرلين ومدريد ، وباريس ، رجال تفاوضوا على قدم المساواة مع ساسة اوروبيين وليس في الجزائر وتونس شيء مثل هذا .

هذه الاستشهادات كلها من كتاب الماريشال ليوتي[1] (Paroles d'action) .

نصوص معاهدة الحماية

ان معاهدة الحماية التي اكره على توقيعها السلطان عبد الحفيظ مؤلفه من تسع مواد التزمت فيها فرنسا تجاه السلطان المحافظة على الدين واحترام هيبة السلطان التقليدية . . وحرية ممارسة الشعائر الدينية ومؤسساتها - خاصةً الاوقاف الاسلامية .

وتعهدت أيضاً للسلطان بمساعدته هو وخلفاؤه من بعدن ضد أي خطر يهدد شخصه أو عرشه أو يعرضه للخطر هو وبلاده وتركت للسلطان اعلان التدابير التي يتطلبها نظام الحماية الجديد ، كما تركت له اعلان النظم الجديدة والتعديلات التي تدخل على المعاهدة القائمة «مشترطة عليه الا

---

(١) انظر ليوتي Lyautey : (Paroles d'action) هو لويس أوبيرليوتي ولد في مدينة نانسي عام ١٨٥٤ . قائد فرنسي خدم في الهند الصينية ومدغشقر والجزائر قبل تعيينه مقيماً عاماً في المغرب عام ١٩١٢ ولغاية ١٩٢٥ فيما عدا (١٩١٦ - ١٩١٧) حيث عين فيها وزير الحرب الفرنسي . عمل جهده على احتواء مقاومة الثوار المغاربة دون أن يستطيع . كان دبلوماسياً بارعاً وجندياً باسلاً وإدارياً ناجحاً .

يفعل ذلك إلا بناء على اقتراح الحكومة الفرنسية» وحصلت فرنسا لنفسها على الموافقة على إقامة نظام جديد يتضمن الاصلاحات الإدارية والقضائية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي تراها فرنسا ضرورية ، «وان تقوم باحتلال أية منطقة مغربية ترى احتلالها ضرورياً للمحافظة على النظام وعلى سلامة المبادلات التجارية ، بالاضافة إلى ممارسة عمل البوليسي في البر وفي المياه المغربية وأن يقوم ممثلو فرنسا وقناصلتها بتمثيل وحماية رعايا ومصالح المغرب في الخارج» مع تعهد السلطان بألا يبرم أي اتفاق ذي صبغة دولية بدون موافقة من الحكومة الفرنسية ، ولقاء ضمان هذه المعاهدة الحقوق المخولة لحاملي سندات القروض العامة المغربية ، وفرض على السلطان الامتناع عن عقد أي قرض عام أو خاص في المستقبل بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، والامتناع بأي شكل كان عن منح أي امتياز دون إذن الحكومة الفرنسية وخولت المعاهدة فرنسا حق الاشراف على سير الحكم في الدولة المغربية بواسطة مقيم عام يمثل فرنسا لدى السلطان ، ويتمتع بكل سلطات فرنسا في المغرب ، ويسهر على تنفيذ المعاهدة ويكون وسيط السلطان في علاقاته مع ممثلي الدول الاجنبية : ويكلف بصورة خاصة بكل المسائل المتعلقة بالأجانب ، وتكون لديه باسم الحكومة الفرنسية سلطة الموافقة ونشر المراسيم الصادرة عن السلطان .

كذلك اعطت المعاهدة فرنسا الحق بالتصرف بمعزل عن السلطان في جزء من شمالي المغرب وجنوبه بالاتفاق مع اسبانيا مع اعطاء طنجة مركزاً دولياً ، وألحقت بالمعاهدة رسالة تفسيرية تقول أن للسلطان الحق بتعيين خلفه إذا ما تنازل عن العرش .

هذه المعاهدة موجودة في قسم الملاحق في آخر الكتاب ولا بد أن فرنسا أجبرت السلطان على قبولها وتوقيعها بممارسة التهديد والوعيد

والابتزاز وإلا لما كان وقعها لتفرض فرنسا على بلاده الاستعباد والإذلال والمهانة .

ولكن الشعب المغربي الأبي رفض تلك المعاهدة واتهم السلطان بالخيانة .

ولم تتمكن فرنسا من اعداد وتنظيم الحماية على المغرب إلا بعد أن اتفقت مع اسبانيا وبريطانيا الغادرة على تحديد المنطقة الاسبانية والحصول على اعترافهما بالحماية الفرنسية ، ووقفت بريطانيا موقفاً عدائياً ضد المغرب فاعلنت انها لن تعترف بالحماية الفرنسية إلا إذا اتفقت فرنسا مع اسبانيا وما لم يُسوّ وضع طنجة ، في حين اشترطت اسبانيا لموافقتها على الاتفاق الفرنسي الالماني الحصول على الضمانات بالنسبة لمصالحها وحقوقها في المغرب .

وبعد أن تعثرت المفاوضات طويلاً بين فرنسا واسبانيا اتفق الطرفان على تحكيم بريطانيا الغادرة التي شرعت تقرب وجهات النظر بين الفريقين المستعمرين للمغرب ، حتى توصل الطرفان أخيراً إلى عقد اتفاق بينهما في نوفمبر عام ١٩١٢ ، اعترفت فيه فرنسا لاسبانيا بأن لها أن تسهر في منطقة نفوذها على استتباب الهدوء . وأن تقدم مساعداتها لادخال كل الاصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية والقضائية والعسكرية ـ التي تحتاجها البلاد بالاضافة إلى مساعدتها . . «راجع الملاحق في آخر الكتاب» .

ونص الاتفاق على إبقاء منطقة النفوذ الإسباني موضوعة تحت سلطة السلطات الدينية والمدنية وأن تدار باشراف مفوض سام اسباني بواسطة خليفة يختاره السلطان «بين مرشحين اثنين تعرضهما عليه الحكومة الاسبانية» «على أن يكون للسلطان وحده الحق بالمحافظة على وظائف

الخليفة أو سحبها إلى وكيل عنه ، وأن يقيم الخليفة في تطوان ، ويزوده السلطان بتفويض عام ودائم ، يمارس بموجبه الحقوق الخاصة بالعرش ، وأن ينوب عن الخليفة مؤقتاً في حال شغور منصب باشا تطوان ، وأن تكون أعمال السلطة المغربية في هذه المنطقة باشراف المفوض السامي الاسباني ورجاله ، كما يكون المفوض السامي الوسيط الوحيد بين الخليفة ووكلاء الدولة ، وألا يتحمل السلطان مسؤولية عن الشكايات الناجمة عن حوادث هذه المنطقة .

وتعهدت اسبانيا بعد أن حددت الاتفاقية مناطق نفوذها في المنطقتين الشمالية والجنوبية بألا تتنازل أو تؤجر حقوقها في كل أو جزء منهما ، على أن تبقى منطقة الشاطىء المواجهة لجبل طارق مجردة من السلاح وتحت تصرف منطقة طنجة .

وبعد أن نص على صرف الضرائب والرسوم والجباية من المنطقة الاسبانية في المنطقة نفسها ، اعفيت حكومة المغرب من الاشتراك بنفقات المنطقة الاسبانية وأكدت الاتفاقية على الاستقلال الإداري للمنطقتين الفرنسية والاسبانية . وقالت أن هذا الاستقلال لا يمس الحقوق والامتيازات المخولة لبنك الدولة بالنسبة لكل المغرب ، وكذلك بالنسبة لشركة التبغ إلى آخر ما هنالك «راجع ذلك في الملاحق» .

كل هذا الهراء الذي كان يسمى في ذلك الزمن اتفاقيات ومعاهدات لا قيمة لها البتة أمام القوة المغربية إذا فرضت إرادتها على المستعمرين بالحرب وأرغمتهم لا على الجلاء فحسب بل وعلى الاعتراف بالهزيمة . . هذا لو أن الثورة المغربية التي تلت معاهدة الحماية حافظت على وحدتها ، وأحسنت تنظيم قواتها وظلت محتفظة بتلك القوات ونظمت أمور التجنيد والحصول على الأسلحة . وقضت قضاءً تاماً على الخونة المتآمرين حتى لا

تظل ، خناجرهم مغروسةً في ظهر المقاومة المغربية الباسلة .

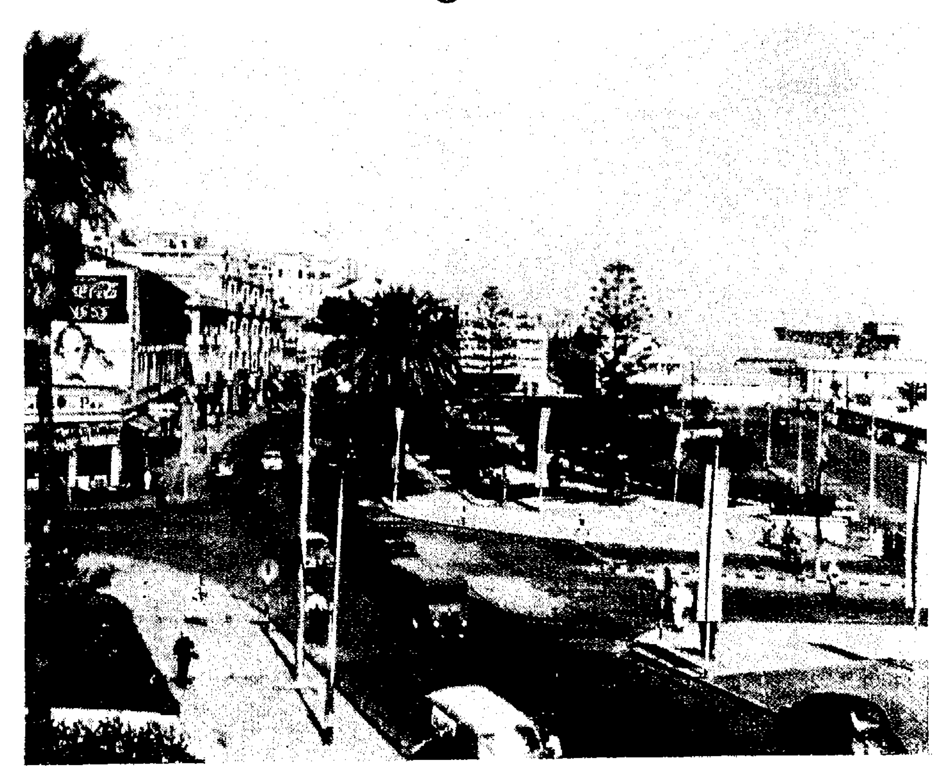
فالمعاهدات من هذا النوع مع المستعمرين لا تزيد عن كونها مؤلفة «من حبر مكتوب على ورق رخيص» تحمل شعار الغالب وهو «الويل للمغلوب» .

أما عندما ينتصر المغرب بابطاله الميامين فإن هزيمة المستعمرين المعتدين تجعل من كل تلك المعاهدات مزقاً وأوراقاً مخرقه مقذوفة في ظهور جيوش المستعمرين المهزومة واكثر من ذلك هو أنَّ بقاءها في النصوص التاريخية يسجل وصمة عار على جبين المستعمرين لا تمحى إلى الأبد ، كما تسجل صفحات جهاد مستمر ومقاومة عاتية لا تتوقف ، ومجد خالد للشعب المغربي الذي تمكن فيما بعد من طرد المستعمرين من أراضيه طرداً لا رجعة فيه ، وعندئذ ينقلب الإذلال والامتهان والبطش واعمال القتل والاستبداد التي مارسها المستعمرون خلال عهد احتلالهم للمغرب على وجوههم وضمائرهم وكرامتهم الممزقة ، واكثر من ذلك فإنه ينقلب على تاريخهم الملطخ بالفساد والجرائم فيحيله إلى صفحات سوداء كالحة كوجوههم بشعة منكرة .

اقتطاع طنجة وتدويلها

لم يكتف المستعمرون بفرض حمايتهم على المغرب في معظم أراضيه وأسبانيا في شماله وجنوبه ، بل اخضعوا منطقة طنجة التي كانت تشكل العاصمة الديبلوماسية للمغرب ـ إلى حماية دولية بتواطؤ بين فرنسا واسبانيا وبريطانيا ، وذلك بموجب اتفاق تم بينها جميعاً ووقع في ١٨ ديسمبر عام ١٩٢٣ ، وسبب التأخير هو تعذر وضع طنجة عندما وقعت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فاتفق الفرقاء الثلاثة على تأجيله إلى بعد انتهائها ولما

ابرمت المعاهدة «عام ١٩٢٣» اعطيت طنجة نظاماً دولياً مستقلاً ولكنها بقيت جزءاً من السلطنة المغربية . واحتفظت بسيادة السلطان التي لم يستطع الاستغلال الاستعماري والإداري أن يبتلع حقوق تلك السيادة .



شارع اسبانيا في مدينة طنجة

لو يتعظ المستعمرون!

ونعود إلى ترديد ما اسلفناه من القول وهو أن كل المعاهدات والاتفاقات لا تزيد عن كونها حبراً مكتوباً على ورق . مزقتها في أول مرة ثورة الشعب المغربي الباسل في جنوبه وشماله ودفع الفرنسيون والاسبان ثمن ذلك الحبر والورق من دماء جيوشهم التي هزمها الجنوبيون في ثورة الجنوب وسكان الريف في ثورة الشمال .

كما أن نتائج ظلم المستعمرين وطغيانهم في محاولاتهم لاستعباد الشعوب الضعيفة ما لبثت أن تحولت إلى حرب عالمية في سنة ١٩١٤ حيث دفعت فرنسا وبريطانيا وسائر الدول الاوروبية ثمن ذلك الاستعمار الذي تحول إلى بحيرة من دماء ابنائها في أوروبا والشرق الأوسط .

ولما انتصر الحلفاء في نهاية الحرب على المانيا وعادوا إلى إحياء معاهدات واتفاقيات الاستعمار تمخضت الاحداث التي أعقبت ذلك الظلم والاستبداد عن حرب عالمية ثانية . . ذاقت فيها أوروبا وفرنسا بصورة خاصة جرعات مرة من احتلال الجيش الالماني لأوروبا كلها بما فيها فرنسا يوم أن دخلها هتلر منتصراً فاتحاً ، ويوم أن داست احذية الجيش الالماني على عروش أوروبا وانظمتها الفاسدة وسحقتها سحقاً .

ويوم أن اصبحت باريس كلها حانة كبرى للجنود الالمان . .

ولما لم يتعظ الاوروبيون من هزائمهم وامتهانهم واذلالهم جوبهوا مرة اخرى بثورة الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج . وكان في مقدمة تلك الثورات وذلك الكفاح ثورة المغرب بقيادة المغفور له الملك محمد الخامس التي حررت المغرب من ويلاته واضافت بذلك الكفاح المنظم المستمر ملاحم جديدة لملحمة المغرب الكبرى أدت إلى طرد المستعمرين من المغرب .

الشعب المغربي يقود ثورته المسلحة

أثنان وعشرون عاماً عاشها سكان المغرب في ثورتهم المسلحة جعلت المغرب كتلة هائلة من النيران واللهب في وجه المستعمرين .

ولو أن الحكومة الفرنسية والحكومة الاسبانية معها وضعت القتلى من

الجنود والمدنيين مضافاً إليهم الأموال التي أنفقتها هاتان الدولتان المعتديتان لقمع الثورة المغربية في كفة الميزان ، ووضعت ما جناه استعمارها من خيرات المغرب وامواله بعد الثورة في كفة ثانية لتبين لهما انهما الخاسرتان .

ولكن فرنسا كانت تكذب على الشعب الفرنسي عندما كانت تقلل من عدد ضحايا جنودها ومدنييها ، وتقلل من قيمة ما انفقته من أجل قمع الثورة المغربية التي لا تقمع ، وكذلك فعلت اسبانيا التي كانت تكذب بالمثل . .

إذن ففن الكذب والخداع لم يكن موجهاً إلى الشعب المغربي فحسب بل ونال منه الشعبان الفرنسي والاسباني النصيب الأوفى . أما هالات المجد المزيفة التي كان يعقدها جنرالات فرنسا واسبانيا فوق رؤوسهم ، فانها سرعان ما انحدرت بصورة مخزية ومهينة لتتحول إلى انشوطات مشدودة إلى اعناق جنرالات هاتين الدولتين الاستعماريتين . كلما سجلت الثورة المغربية انتصارات جديدة خلال كفاحها المظفر .

ومع أن مهام الكفاح المسلح وشرف القتال ضد المستعمرين قد اصبح على عاتق الشعب المغربي وقبائله في الجنوب والشمال وعبر السهول والواحات وفوق القمم والسفوح ، إلا أن مدينة فاس المجاهدة الباسلة كان لها الشرف الأول في اشعال فتيل الثورة فهب سكانها رجالاً ونساء ، وجيش السلطان في المدينة كما شارك السلطان عبد الحفيظ نفسه من وراء الستار للذود عن الوطن . لقد هبوا جميعاً غضاباً وانطلقوا اسوداً مكشرة عن انيابها للقتال المرير . .

وفي مثل هذا الصراع تصبح البلاغات الاستعمارية والكلمات التي تطنطن بها من امثال : المشاغبين والمتمردين وقطاع الطرق واللصوص

يصبح هذا القاموس الاستعماري من المفردات دفاعاً واهياً في أفواه المستعمرين وبلاغاتهم ، وسرعان ما تتلاشى وتذوب في حرارة صيحات ونداءات الجماهير الغاضبة المهاجمة .

أما تقلصات وجوه جنرالات فرنسا واسبانيا فانها سرعان ما تعود إلى اشكالها الطبيعية فتبدو وجوهاً كالحة مخددة مجعدة بشعة بعد أن تفاجئها ثورات الاحرار وانتفاضاتهم في طول البلاد وعرضها .

السلطان عبد الحفيظ يحتج على الوجود الفرنسي

استقبلت الحكومة الفرنسية واعضاء اللجنة المغربية الاحتكارية بدهشة بالغة وابتسامة صفراء أول مذكرة احتجاج من السلطان عبد الحفيظ بعد أن استرد وعيه وغيبوبته على أثر إكراهه على توقيع المعاهدة جاء فيها: «إني الفت نظر الحكومة الفرنسية حول هذا الواقع وهو أن المغرب منذ الفتح الاسلامي لم يكن يتبع أية دولة اجنبية كمستعمرة ، وانه ظل ثلاثة عشر قرناً يتمتع باستقلاله ولهذا السبب لا يمكن أن يعامل المغرب معاملة بلد مستعمر» .

ولكن الابتسامة الصفراء سرعان ما تحولت إلى تكشيرة ثم إلى حشرجة عندما وصلت إلى مسامعهم الأنباء المفزعة أنباء ثورة مدينة فاس .

الجماهير المغربية تندد بالحماية

وانطلقت اصوات الأبطال الثائرين هادرة منددةً بالحماية المفروضة هاتفةً: أن معاهدة الحماية «صك بيع المغرب للنصارى الأنجاس» من قبل سلطان بايعناه ليكون سلطاناً للجهاد وحماية الاستقلال ـ لا يمكن أن يقبل الشعب المغربي به في حين كانت القبائل تجتمع حول فاس وتحاصرها كمقدمة لاقتحامهالتسترد «صك البيع» أو تمزقه كما نشر ذلك مراسل جريدة

«الوقت» الفرنسية الذي كان يرافق البعثة الفرنسية التي فرضت معاهدة الحماية على السلطان وحده .

الغلطة الشنيعة التي تورط فيها المستعمرون هي انهم ظنوا أن شعب المغرب سوف يرضى بالحماية الفرنسية والاسبانية . طالما رضي بها ووقعها السلطان عبد الحفيظ ـ الذي يلتف حول عرشه الشعب المغربي بسكانه البربر والعرب ، وما علموا أن الشعب المغربي هو الذي رفع احفاد القائم العلوي فوق عرش المغرب لأنه من أحفاد الرسول الأعظم (ص) ولكن ما دام احفاد القائم يحافظون على استقلال المغرب ووحدة أراضيه وسيادته . . أما إذا انحرف واحد من احفاده فإن الشعب المغربي يصبح في حل من بيعته ، وفي حل من الاعتراف بسلطته . . لأن حياة الشعوب ليست مرتهنة بحكم السلاطين إذا انحرفوا . وبالتالي فإن الشعب المغربي ليس ملزماً بالخضوع لما خضع له السلطان عبد الحفيظ ، واكره عليه لذلك ثار على المستعمرين وعلى السلطان بالذات لأنه خرج عن مقومات البيعة والسلطنة . .

مدينة فاس ترفع لواء الثورة على المستعمرين

وبكل مهانة واستهتار حاول المستعمرون السيطرة على القوات المغربية في فاس ، ظناً منهم أنه في وسعهم تدجينها إذا ما حولوها إلى قوات يقودها ضباط فرنسيون . . فخابت ظنونهم ، لأن تلك القوات المغربية الملتهبة بالمشاعر الوطنية ما لبثت أن تمردت وثارت وحمل الفا جندي منهم اسلحتهم وانقضوا على الضباط الفرنسيين فمزقوهم إرباً إرباً ثم انطلقوا إلى الشوارع يطلقون النيران بكثافة على كل من صادفوه من الفرنسيين العسكريين والمدنيين معاً ثم انضموا إلى صفوف القبائل التي كانت تحاصر فاس لانقاذ السلطان والعاصمة من احتلال المستعمرين الأنذال .

وكانت هذه الثورة التي اندلعت في فاس نواة للنضال الوطني المسلح والذي سرعان ما اصبح ثورة منظمة تتأجج نيرانها في كل انحاء المغرب .

ويلاحظ هنا أن السلطان كان في الماضي يسارع لنجدة القبائل في الجنوب أو في الشمال إذا داهمتها الاخطار ، أما الآن وبعد أن حجز الفرنسيون حرية السلطان وفرضوا عليه الاقامة الجبرية في فاس بحجة حمايته ، فإن هذه القبائل زحفت لتخليص السلطان من بين براثن المحتلين ، وانقاذ عاصمتهم الكبيرة من الوجود الفرنسي النجس وهذا دليل على تلاحم الشعب والسلطان عند الملمات وهنا صعقت الحكومة الفرنسية التي كانت تظن بأن الشعب مقيد بإرادة السلطان ومشيئته ، فإذا فرضت عليه الحماية ، اذعن الشعب وخضع راضيا بما رضي عنه السلطان .

السلطان عبد الحفيظ يحرض الشعب على الثورة

واشتد ذعرها لما توالت الانباء على باريس بأن الثورة الزاحفة قد اندلعت في جميع انحاء المغرب ، وان السلطان عبد الحفيظ الذي ثار على أخيه السلطان عبد العزيز ، وارغم على توقيع «صك العبودية» يرفض التعاون مع سلطات الاحتلال . . لا بل انه يتعاون مع جيشه الثائر وشعبه المناضل الذي حمل السلاح وسارع إلى نجدته وتخليصه من ورطته . . وتلك هي ابعد غايات الوفاء والاخلاص وأسماها. وجن جنون المحتلين الفرنسيين عندما علموا أن السلطان يراسل القبائل الثائرة سراً ويحثها على الثورة والزحف المقدس لانقاذ الوطن بواسطة موظفي «المخزن» أي الحكومة المغربية .

الهبة بن الشيخ ماء العينين يقود الثورة

وجاءت الأنباء من الجنوب بأن «الهبة» بن الشيخ ماء العينين قد اعلن

الثورة على المحتلين معلناً بأن السلطان أكره على توقيع معاهدة الحماية وانه أي السلطان يدعو الشعب المغربي إلى الثورة وفقاً للعادات والتقاليد المغربية . لهذه الاسباب وغيرها انتدبت الحكومة الفرنسية الجنرال ليوتي حامل لواء الاستعمار الفرنسي ليكون مقيماً عاماً وقائداً أعلى للقوات الفرنسية في المغرب .

وما أن دخل الجنرال ليوتي مدينة فاس المحاصرة حتى أبرق إلى حكومته قائلاً : «أنني اعسكر في مدينة،محاصرة» فأسقط في يد الحكومة الفرنسية ، ولكن بما أنها كانت تعتمد على دهاء وقوة الجنرال ليوتي المحنك فقد تركت له الحرية في أن يتصرف على النحو الذي يراه مناسباً .

وقابل ليوتي السلطان وحاول بكلماته اللطيفة أن يستميله إليه ليحمله على التعاون معه ، ولكن السلطان أصر على عدم التعاون بعد أن استيقظ ضميره وعقله . . ولما حاول ليوتي أن يضغط عليه بالتهديد والوعيد اعلمه باصرار وعناد بأنه متنازل عن السلطنة فذعر ليوتي ، لأن تنازل السلطان عن السلطنة معناه فقدان الورقة الاخيرة التي يلعبها المحتلون ويعتزون باقتنائها لإرغام الشعب المغربي على الرضوخ والاذعان فراح ليوتي من جديد يتلطف معه ليثنيه عن الاستقالة أو على الأوقل تأجيلها إلى اشعار آخر . .

انتقال السلطان عبد الحفيظ من فاس إلى الرباط

ثم انتقل ليوتي الداهية إلى موضوع آخر فاقترح عليه نقله من فاس إلى الرباط لأن جو فاس المؤثر لم يعد محتملاً . . وكان ليوتي باقتراحه هذا مدفوعاً بفكرة طرأت عليه وهي أنه طالما بقي السلطان في فاس والقبائل تتدافع وتتسابق لانقاذه فإنه لمن العبث اقناعه بالتعاون مع السلطة الفرنسية المحتلة .

ولكن ليوتي لم يقل ذلك للسلطان بل راح يخوفه من غضبة الشعب الثائر ضده ، لأنه وقَّع على معاهدة الحماية . . ولكن السلطان عبد الحفيظ كان يعرف بأن ليوتي يكذب ويحاول خداعه من جديد . . خصوصاً عندما قال ليوتي «بأن وجوده في الرباط سيجعله قريباً من الاسطول الفرنسي الذي سيتكفل بحمايته من انتقام الشعب» .

واخيراً نقل السلطان إلى الرباط التي اصبحت العاصمة الجديدة للمغرب . . ولكن ليوتي لم يكف عن مناشدته التعاون مع قوات الحماية . . ولما لم تسفر محاولاته عن أي نتيجة ايجابية من قبل السلطان عاد إلى قرع طبول الضغط والتهديد والوعيد ، فكان جواب السلطان القاطع أنه توقف عن ممارسة مهام السلطنة وتوقيع المراسيم والرد على رسائل «المخزن» ليعلم كل انسان في المغرب ، لا بل وفي العالم اجمع أن السلطان أسير في أيدي قوات الاحتلال الفرنسية وأن الشرعية معطلة ، وأن الحكم مجمد . . وسرعان ما انتقلت انباء موقف السلطان إلى القبائل المغربية الثائرة فازدادت النيران اشتعالاً .

وصار حديث الناس في كل مكان يدور حول السلطان الذي أصبح أسيراً بشخصه وارادته ، ولكن قلبه وضميره ما زالا مع شعبه الوفي . . وانطلقت الصيحة في المغرب . . السلطان مع الشعب . . السلطان يحث على الثورة . . على الكفاح المسلح . . الله اكبر .

وراح الشعب ينشد الاناشيد الوطنية ، وانطلقت القبائل تهزج بأهازيج الحرب والدعوة إلى الجهاد . . لانقاذ الوطن . . وانقاذ السلطان وطرد المستعمرين الكفار .



باب شالة في الرباط

بين ليوتي وعبد الحفيظ

وأرسل ليوتي إلى السلطان وفداً يسترضيه ويحاول تلطيف الاجواء لاستمالته ، ولكن المولى عبد الحفيظ رد على الوسطاء قائلاً : ليس لدي أية سلطة حقيقية ، لا أستطيع تقديم النصائح . . لقد غلوا يديّ ورجليّ . . وقالوا لي احكم فكيف أحكم؟ لذلك فانني ما زلت مصراً على الاستقالة ، وافضل أن أكون آخر سلاطين الاستقلال على أن أكون أول سلاطين الحماية . .

وبينما كان هذا الحوار يجري بين السلطان وآسريه الفرنسيين في الرباط ، كان الحصار حول مدينة فاس يشتد ويتفاقم ، وقوات الاحتلال الفرنسية يسيطر عليها الذعر من قوات القبائل التي تحاصرها ، والتي زاد تعدادها على عشرين الف مقاتل ، في حين كانت القوات الفرنسية لا يزيد عددها على أربعة آلاف جندي فرنسي . مما جعل ليوتي يقول في وصف ورطته : «لقد تألب علينا وللمرة الأولى منذ أن بدأنا عملنا في المغرب مثل

هذا العدد من القبائل الثائرة المرتبطة باتحاد وثيق بعد أن تخلت عن خصوماتها ومنازعاتها الداخلية» .

ولكن محاسن الصدف بالنسبة للقوات الفرنسية المحاصرة وأسوئها بالنسبة للمغاربة ساعدت الفرنسيين من حيث لا يعلمون ، وذلك عندما حصل الجنرال غورو الفرنسي على انتصار غير متوقع في «حجرة الكحيلة» الواقعة على مسافة ١٥ كيلو متراً من فاس ، إذ وجد فيها خريطة لمجموع العمليات التي كان الثوار المغاربة قد اعدوها للتنفيذ ، وكانت خريطة مفصلة تشرح خطة الثوار العسكرية ، فساعد ذلك على فك الحصار عن فاس واحتلالها في أول حزيران «يونيه» سنة ١٩١٢ .

وحتى ذلك التاريخ ، لم تكن القوات الاستعمارية الفرنسية قد استطاعت أن تحتل إلا الشاويه واطرافها ، ومنطقة الرباط ، ومنطقة فاس ، أما في الشمال من ذلك فكانت الرقعة التي يحتلها الاسبان ، وفي الجنوب منها منطقة زيّان ، أما سائر بلاد المغرب فكانت تشتعل بالثورة .

تدابير الجنرال ليوتي لاحتواء الثورة

وضع الجنرال ليوتي الذي كان يفضل فكرة احتلال المغرب سلماً بدلاً من الحرب ـ برنامجاً دعا فيه إلى توطيد الأمن والسلام في المناطق التي تحتلها فرنسا والاعتماد على التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وتحييد المناطق الأخرى من المغرب بكل الوسائل الممكنة ريثما يأتي دور احتلالها .

وفي تلك الفترة ارتفع عدد قواته من ٥٦ الف جندي فرنسي إلى تسعين الفاً ، وبالرغم من ضخامة هذا العدد فإن تلك القوات كانت مبعثرة علماً بأن الثوار المغاربة كانوا بحاجة إلى التنظيم والقيادة الرشيدة .

لذلك فقد أوكل الجنرال ليوتي منطقتي فاس والرباط إلى الجنرال غورو . فنجح في أول الأمر في تشتيت القبائل الثائرة بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ونظم مصلحة الاستخبارات ، وضم إليها بعض المرتزقة من المغاربة . واخذ يشجع الأعمال التجارية نزولاً عند طلب «لجنة الاحتكار الفرنسية» جاعلاً هدفه إثراء طبقة جديدة من التجار على أمل استمالة غيرهم من المتمردين ، وفعل ذلك في منطقة مكناس معتمداً على الجنرال دالييه والكولونيل دوبلو ، في تأمين خط المواصلات بين الرباط وفاس وابعاد الثوار على تلك المناطق .

كما فعل مثل ذلك في مراكش والصويرة وأسفي لتحييد المناطق الخارجية باعطاء القواد الفرنسيين فيها صلاحية مطلقة .

ثورة الزعيم ماء العينين في الجنوب

كان هذا الزعيم المحلي يحشد قواته في موريتانيا والصحراء المغربية ، ـ وهو والد «الهبة» الزعيم الابن ـ لمساندة السلطان السابق عبد العزيز عندما كان متربعاً على عرش السيادة ، فلما تحول الشعب المغربي عن عبد العزيز إلى أخيه السلطان عبد الحفيظ وبايعه على مواصلة الجهاد ، تحول الشيخ ماء العينين بدوره إلى السلطان الجديد عبد الحفيظ متخلياً عن صديقه القديم السلطان السابق عبد العزيز فأخذ البيعة للسلطان عبد الحفيظ قبل أن ينتقل من مراكش إلى فاس ، وبقي يحشد القبائل في الجنوب ويوسع حركته إلى أن خلفه في زعامة القبائل الصحراوية ابنه «الهبة» الذي اعلن بأنه عدو لفرنسا وانه سيعمل على تحرير المغرب من الوجود الفرنسي كله .

ولكن الحصار الذي فرضته السلطات الفرنسية على السلطان

عبد الحفيظ وشل يديه وقدميه عن العمل كما صرح بذلك السلطان نفسه حمل «الهبة» على أن يعلن نفسه سلطاناً جديداً على المغرب في مدينة «تزنيت» فاستقبلت بلاد السوس اعلانه بمبايعته ليقود منها الكفاح المسلح

الفرنسيون يتخلصون من السلطان عبد الحفيظ

وما أن بدأت قواته فعلاً تتحرك نحو مراكش ، حتى أدرك الجنرال ليوتي بأنه لا يستطيع مباشرة الحرب على جبهتين ، فلجأ إلى الاستعانة بالعناصر المتخاذلة المتعاونة مع نظام الاحتلال الفرنسي ، لمقاومة قوات الهبة ، ومنعها من دخول مراكش ، وساعده في حملته السياسية القنصل الفرنسي في مراكش ، فاضطر الزعيم الهبة إلى البقاء في اقليم السوس إلى أن تنازل السلطان عبد الحفيظ عن العرش .

وكان الفرنسيون قد قرروا التخلص من السلطان عبد الحفيظ لاصراره على عدم التعاون مع قوات الحماية الفرنسية ، ولما اطمأن الجنرال ليوتي بأن الأخ الاصغر وهو المولى يوسف يمكن أنه يحل محل أخيه السلطان «فرض» ليوتي على السلطان عبد الحفيظ التنازل عن العرش . وفي ١٢ «اغسطس» آب عام ١٩١٢ غادر المغرب آخر حاكم مستقل من الاسرة العلوية في المغرب وهو السلطان عبد الحفيظ .

ولما كانت المناداة بالسلطان الجديد يوسف متعذرة لأن التقاليد الشرعية تنص على أن لعلماء مدينة فاس وحدهم الحق باختيار خلف السلطان المتنازل ، وذلك غير متيسر في تلك الأونة فقد انتخب ليوتي السلطان يوسف الجديد في ١٤ آب «اغسطس ، عام ١٩٢١ ، وبذلك يكون ليوتي قد أخذ الأمر على عاتقه وحده دون مبايعة من الشعب المغربي صاحب الكلمة الفصل في ذلك واكثر من هذا فقد وضع ليوتي سياسة طبقية جديدة

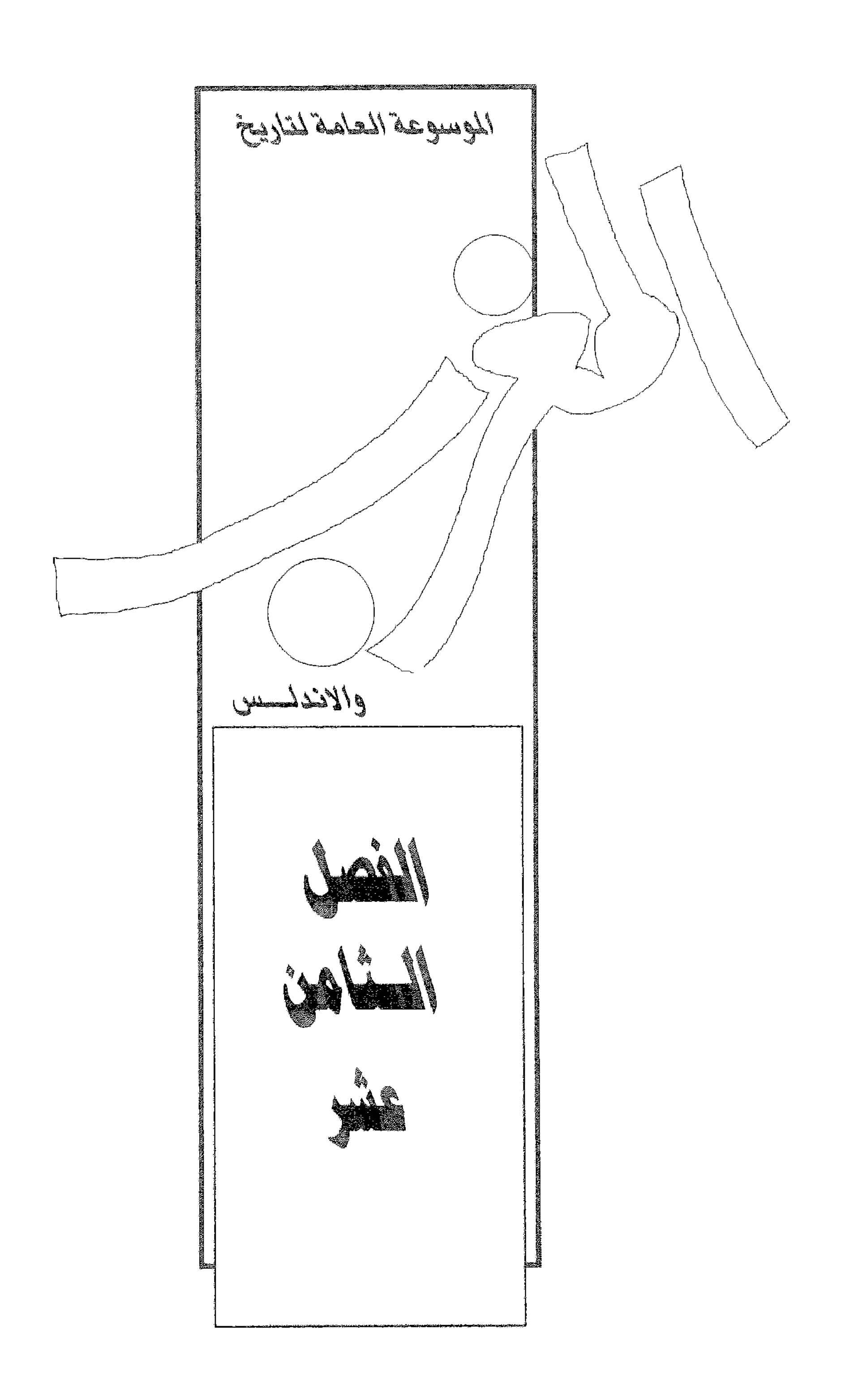
بمساعدة ومناصرة طبقة مستجدة من زعماء المغرب وقادته لإلغاء الطبقة المتوسطة في الشعب المغربي ، مترسماً بذلك الخطة البريطانية في الهند التي دعمت امراء الهند على حساب القوى الشعبية وهي التي تبلورت أهدافها فيما بعد في «حزب المؤتمر الهندي» وفي شخص المهاتما غاندي وخليفته جواهر لال نهرو ، لذلك فقد اقتبس ليوتي ذلك التنظيم وطبَّقه في المغرب ، على امل أن يقوي مراكز الزعماء المحليين ورؤساء القبائل فاكتسب بذلك احترام ذلك البعض لأنه حاول الحفاظ على أنظمتهم وعاداتهم وشرائعهم (المزعومة) ولكن هذه الفئة من الزعماء المحليين ورؤساء القبائل سرعان ما اصبحت عناصر مناوئة للسلطان بعد أن استغلهم المقيمون العامون الذين جاؤوا بعد ليوتي حين وضعوا السياسة المحلية بأيدي الرجعيين والاقطاعيين من امثال تهامي الجلاوي باشا مراكش وغيره .

ومع ذلك فإن ليوتي لم يستطع طوال الوقت الذي تولى فيه قيادة الأمور من قطف الثمرات التي غرستها يداه فسقط الحصاد في أيدي خلفائه .

ولما اطمأن ليوتي إلى أن أخا السلطان الأصغر ، مولاي يوسف يمكن أن يحل محل السلطان عبد الحفيظ . فرض عليه التنازل عن العرش . وكلمة «فرض» من اقوال ليوتي نفسه هذا مع العلم بأن السلطان عبد الحفيظ كان قد اعلن مراراً بأنه لن يتعاون مع سلطات الاحتلال والحماية وهدد بالاستقالة عدة مرات وكان ليوتي نفسه يرجوه أن يرجيء ذلك كما مر معنا .



السلطان يوسف بن الحسن الأول



الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــــس
الفصل الثامن عشر

السلطان يوسف بن الحسن الأول

في ١٢ آب ـ اغسطس ـ سنة ١٩١٢ غادر المغرب «آخر حاكم شريفي مستقل» واتباعاً لامتياز قديم؛ كان لعلماء فاس وحدهم الحق في اختيار خلفه ، لذلك كان اختيار السلطان يوسف الجديد لا يعتبر قانونياً إلا بعد موافقة علماء فاس الشرعية والدينية . ولما احتل الهبة مراكش عاصمة دولة المرابطين اتجهت إليه الأنظار وانيطت بثورته الآمال الكبار لتحرير المغرب ، وفي الحال جرى اتصال بينه وبين حركة الكفاح المسلح في فاس ومكناس ، لتنسيق المواقف وتوحيد الاهداف فتم لزعماء الطرفين ما ارادوا . .

ليوتي يعتمد على التهامي الجلاوي

هنا شعر ليوتي بالخطر ـ على حد قوله ، على الوجود الفرنسي في المغرب ، فأرسل قوة عسكرية بقيادة الكولونيل مانجان إلى نهر أم الربيع لتصد قوات «الهبة» التي وصلت إلى محلة «ابن جرير» في منتصف الطريق بين مراكش وسطاط ولتمنع زحفه سواء باتجاه الشمال أو باتجاه بزاغان

وتادلا ، ريثما تصله امدادات عسكرية فرنسية جديدة تمكنه من الانتقال من الدفاع إلى الهجوم .

ثم وضع الجنرال ليوتي جل اعتماده على العميل تهامي الجلاوي وقواته التي حشدها من سكان الجنوب لتأليب سكان مراكش على الهبة .

وراح تهامي الجلاوي يحرض المراكشيين سراً على «الهبة» فلما لمس من بعض الفئات استعداداً لمناصرته ارسل إلى الكولونيل مانجان يخبره بأنه مستعد لمساندته من داخل مراكش عندما تشرع قواته بمهاجمتها من الخارج . وكان الهبة في اثناء ذلك قد خسر أولى معاركه في سيدي عثمان وبذلك تمكن الكولونيل مانجان من تحقيق مهمته الأولى في عشرة أيام بعد دخول الهبة مدينة مراكش ، كما حقق مهمته الثانية في تسعة أيام إذ دخل مراكش مع قواته واحتلها واتخذها قاعدة حربية لجيش الاحتلال الفرنسي في الجنوب .

يقول المؤرخون أن «الهبة» ارتكب خطأً فاحشاً في إبان ثورته مما عجل في اجهاضها وقد المح إلى هذا الخطأ ـ فيما بعد ـ البطل الكبير عبد الكريم الخطابي زعيم ثورة الريف ، ودونها المرحوم علال الفاسي في كتابه «الحركات الاستقلالية في المغرب» والخطأ المقصود هو أنه نادى بنفسه سلطاناً ، وهو نفس الخطأ الذي اقترفه أبوه الشيخ ماء العينين من قبله ، لأن كل حركات تحرير المغرب كان يجب أن تكرس جهودها للتحرير والاعتراف في الوقت نفسه بقيادة السلطان على رأس الشرعية حتى إذا تم طرد الاعداء المحتلين بقي السلطان على رأس المغرب المستقل . ولكن هل كان السلطان يوسف حراً في ذلك الوقت ؟؟

هذا الرأي كان من الممكن الأخذ به لو أن ارتقاء السلطان يوسف

عرش المغرب كان شرعياً ، وفقاً للتقاليد المغربية التي تؤكد بأن السلطان كان يجري انتخابه عادة من المشايخ والعلماء واعيان مدينة فاس وبما أن هذا التقليد لم يعمل به ولم تتقيد به سلطات الاحتلال الفرنسي التي اكتفت بانتخابه وتعيينه سلطاناً محجوراً عليه ، دون أخذ أراء العلماء والمشايخ والاعيان في فاس . فالسلطان وفقاً لذلك لم يكن متمتعاً بتأييد شعبه ولا بموافقته ومحض رضاه .

ولقد برهنت الاحداث على أن السلطان يوسف كان مقيداً بأوامر وتعليمات السلطات الفرنسية الممثلة بالجنرال ليوتي وهيئة أركان حربه ، الذين كانوا يوعزون إليه بالتوقيع على مقررات من وضع الجنرالات المشار إليهم ، الأمر الذي كان قد رفضه من قبل أخوه الأكبر السلطان عبد الحفيظ .

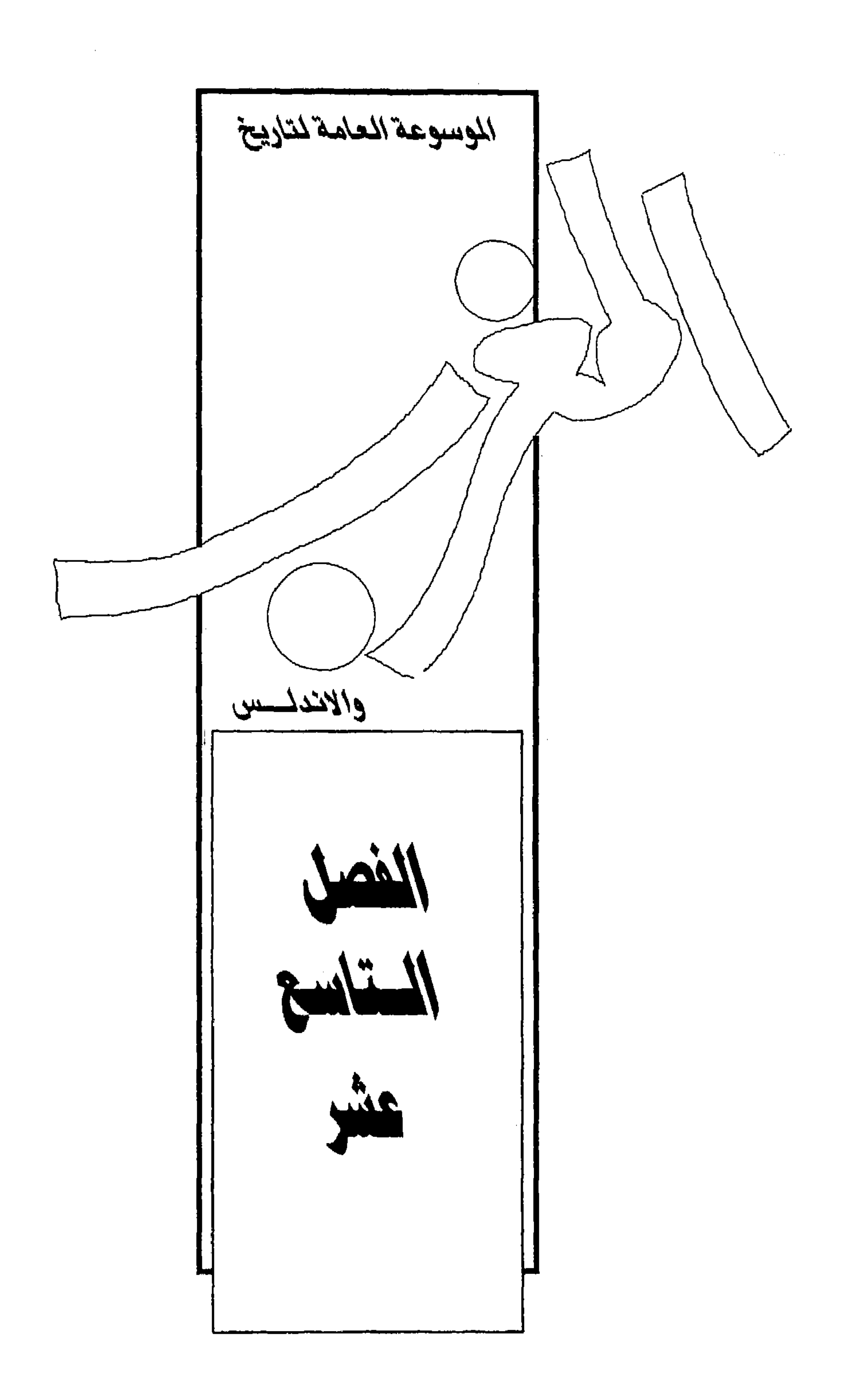
وبما أن الشعب المغربي له مصالحه والتزاماته بمتابعة واستمرار عمليات الجهاد . فإن القرارات التي كانت تقدم للسلطان يوسف من قبل آسريه . كان يفرض عليه بالضغط الشديد أن يوقعها . وهي قرارات كانت تدعو إلى وقف الجهاد وإطاعة الأوامر الصادرة عن هيئة الأركان الفرنسية ـ على اعتبار أنها أوامر السلطان .

وبالرغم من احتلال مراكش من قبل الفرنسيين بمساعدة تهامي الجلاوي المتعاون مع القوات التي تحتل وطنه ، فإن ثورة الهبة ظلت مشتعلة في الجنهوب ـ منطقتها الحيوية ، ولكنها فقدت روعتها وتطلعات الشعب المغربي اليها ، الذي كان يتعلق بحبال كل ثورة ضد الفرنسيين تهدف إلى طردهم واجلائهم عن اراضي الوطن .

وتمادى تهامي الجلاوي في تقديم خدماته للقيادة الفرنسية ، وعلى

الأخص عندما كلفه الجنرال ليوتي تنظيم قبائل الاطلس الكبير ، ومنعها من الثورة لتقف حاجزاً في وجه ثورة الهبة وقواته حتى يظل الهبة بعيداً عن «تارودانت» تمهيداً لمنع قبائل السوس الاوسط والادنى من الاشتراك في الكفاح المسلح ، إلى أن سقطت اغادير بايدي الفرنسيين وهي المرفأ الذي كان يموّن الهبة وقواته بالامدادات .

ومع أن الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ كانت قد اندلعت في أوروبا والشرق الأوسط ، فقد بقيت قوات الهبة شوكة حادة في خاصرة قوات الاحتلال الفرنسية ـ واستمرت تقاتل في الساقية الحمراء ، كما أن الكفاح المسلح في الاطلس الكبير وبلاد السوس لم يتوقف ضد قوات الحماية الفرنسية قبل أوائل عام ١٩٣٥ ، وهكذا استمرت ثورة الاطلس الكبير وثورة الجنوب مشتعلتين اثنين وعشرين عاماً . . مضى معظمها في عهد المولى يوسف الذي عينه الجنرال ليوتي سلطاناً على المغرب خلفاً للسلطان السابق عبد الحفيظ .



الفصل التاسع عشر

ثورة الأطلس الأوسط

ثار الاطلس الاوسط على معاهدة الحماية الفرنسية ، كما ثار الجنوب بصحرائه المغربية ، وكانت ثورة الاطلس الأوسط مواكبةً لثورة الجنوب ، ودامت احدى وعشرين سنة ـ أي إلى عام ١٩٣٣ .

وقد استعمل الجنرال ليوتي كل اساليب الخداع والمكر والدهاء التي طبقها على ثورة الجنوب ، كما استعمل نفس الاساليب خلفاؤه الذين حلوا محله في القيادة الفرنسية في المغرب بعد استدعائه من قبل حكومته للاشتراك في الحرب العالمية الأولى .

وقد تميزت ثورة الاطلس المتوسط بعنفها وقوتها وضخامتها لدرجة أن الجنرال «كيوم» الفرنسي وصفها بقوله : «ما من قبيله في الاطلس الأوسط انضمت إلينا ، أو خضعت تلقائياً من ذات نفسها ، وما من قبيلة رضخت بدون قتال ، ودون ان تستنزف كل طاقاتها في محاربتنا» وهذه شهادة لها قيمة تاريخية من حيث انها اعتراف صادر من جنرال فرنسي قاد المعارك ضد ثورة الأطلس الأوسط .

ومن هنا يتضح أن المغرب الكبير كان مخضّباً بدماء أبنائه الأوفياء البررة ، فإلى جانب نهر الدماء الذي كان يجري بدماء سكان الجنوب وصحرائه المغربية ، كان ثمة نهر آخر يجري بدماء ابناء الاطلس الأوسط فوق مرتفعاته وسفوحه .

وكان الجنرال ليوتي مهتماً باحتلال الاطلس الاوسط بسبب غاباته الواسعة الخضراء وبسبب ثلوجه المتساقطة والتي كانت تجلله ببساط ناصع البياض ولأن تلك الثلوج كانت تعتبر الخزان الأعظم الذي يمد بالمياه العذبة ثلاثة من أهم أنهار المغرب وهي: نهر أم الربيع ونهر الملويه ، ووادي العبيد . وكان لهذه الانهر عدا عن ميزتها الكبرى بتزويد السكان بمياه الشرب . وريّ المزروعات ، هي انها ستصبح في المستقبل مصدراً هامّاً للطاقة الكهربائية بعد انشاء السدود لري المزروعات وتوليد الطاقة الكهربائية .

ومرت ثورة الاطلس بعدة مراحل جرت خلالها معارك بطولية رصّعت تاريخ المغرب بالمجد والفخار ، وقد بدأت أهم المعارك فيها عندما شرع الفرنسيون بشق طريق «تازا» لوصل المغرب الغربي بالمغرب الشرقي .

الجنرال ليوتي يحاول تطويق الثورة

وكانت عملية شق طريق «تازا» داخله في نطاق الخداع الفرنسي ، لأن القيادة الفرنسية استخدمت عمالاً من المغرب جاءت بهم من عدة اماكن ، بمساعدة الخونة المتعاونين مع قوات الحماية ـ وذلك لامتصاص النقمة العمالية وتشغيلها واكتساب اكبر عدد من العمال الذين كان من المفروض أن يحملوا السلاح لمحاربة الفرنسيين .

وقد وضع الجنرال ليوتي بقلمه خطة تلك المعركة فعقد مؤتمراً في

«وجدة» في يناير عام ١٩١٤ ، حضره قائد المنطقة الشرقية وقائد منطقة فاس الفرنسيين ، واصدر أوامره إليهما بأن يقوما بهجوم مشترك ـ أثناء العمل في مد خطوط سكة الحديد من المنطقتين نحو مدينة تازا .

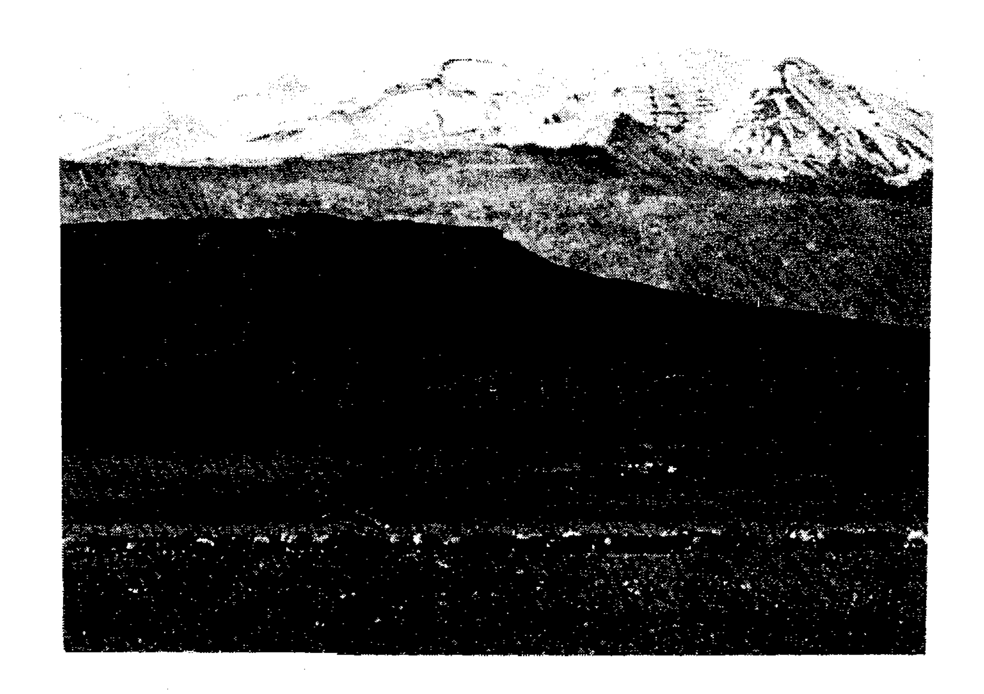
الحجاوي يقود قبائل التسول

وقد قاوم الحجّاوي الذي كان يترأس ثورة قبائل «التّسُول» «وغيّاثه» الزحف الفرنسي ، وخاض ضد القوات الفرنسية سلسلة من المعارك الحامية الوطيس ، استمرت زهاء خمسة اشهر . ولكن قوات الجنرال غورو تمكنت من التغلب على قبائل التسول ، مما حدا بالجنرال ليوتي إلى أن يصرح بالمعلومات المدونة التالية : «من ١٠ إلى ١٦ مايو «أيار» عام ١٩١٤ ، خاض الجنرال غورو اكثر من مئة معركة عنيفة ضد خمس عشرة قبيلة متحدة ومتجمعة على ثلاث قمم جبلية متتالية ، وقد قاومت قبائل التسول مقاومة ضارية من صخرة إلى صخرة ومن كهف إلى كهف ، وكانوا يطلقون علينا النيران من مسافة ١٠ امتار فقط ، وحاربونا بالسلاح الابيض ، وهذا مما جعل معارك تلك الفترة من أضرى معارك المغرب وأشرسها» .

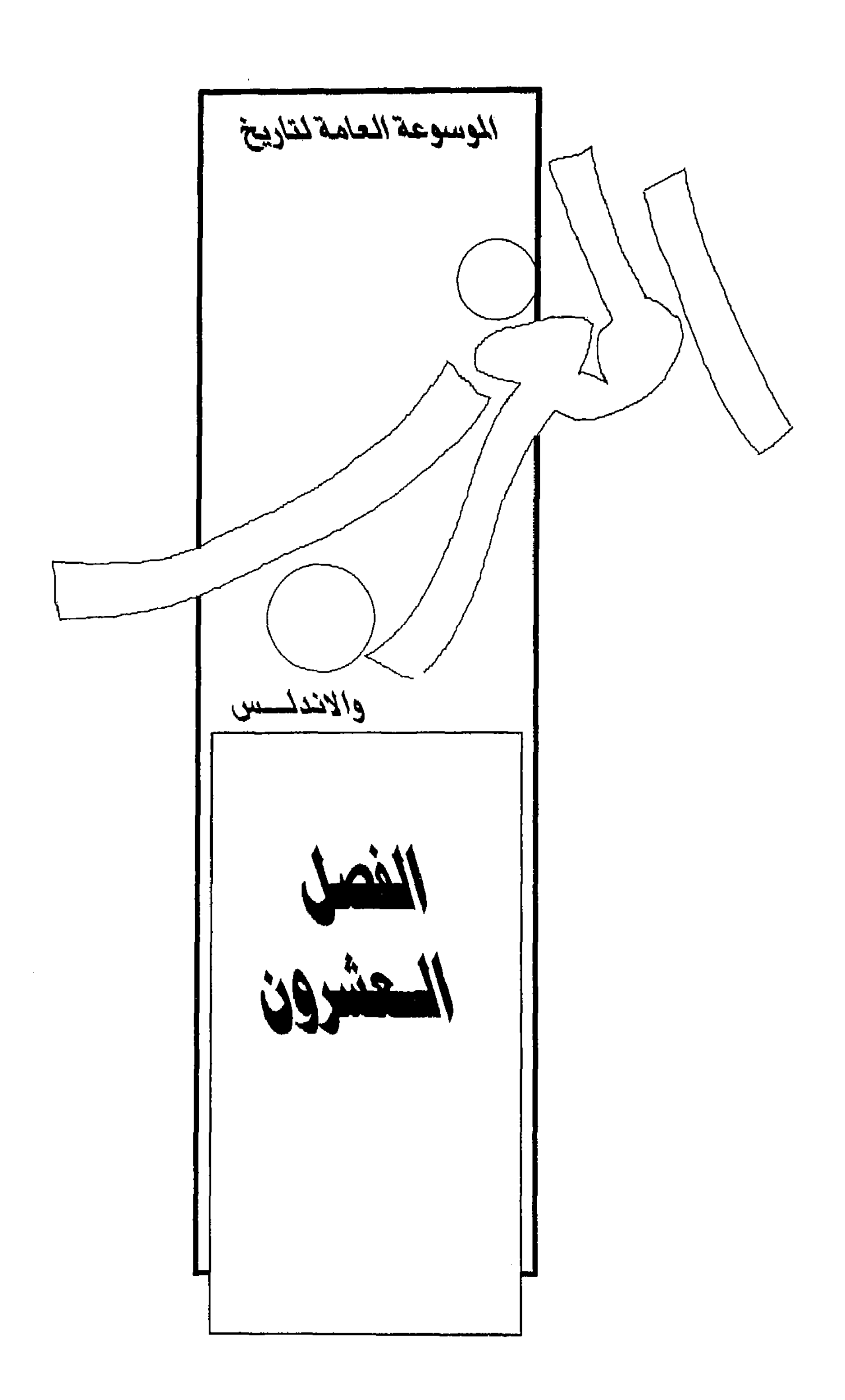
الجنرال ليوتي يستخدم سلاح الطيران

ولكن الجنرال ليوتي لم يذكر في مقولته هذه أن سلاح الطيران الفرنسي اشترك في هذه المعارك ضد قبائل التّسُول ، كما تجنّب الخوض في هذا الموضوع ـ ولم يحدد الخدمات الرائعة التي قدمها سلاح الطيران الفرنسي للقوات الفرنسية الزاحفة وتعتقد بعض المصادر المغربية والدولية «أنه لولا اشتراك سلاح الطيران الفرنسي بمعارك الاطلس ، لما استطاعت قوات الجنرال غورو تسلق سفوح الجبال للوصول إلى معاقل الثوار في القمم .

ففي تلك السنة كان ظهور الطيران مفاجأة لسكان المغرب الذين كانوا يحاربون بالبنادق والسيوف والخناجر ، ولم يكن لديهم أسلحة مضادة للطائرات ، ومع ذلك ، فإن قوات الجنرال غورو لم تستفد كثيراً من تغلبها على قبائل التسول ، إذ كان عليها أن تخوض معارك أشد ضراوة مع قبائل «غياته» استمرت أربعين يوماً ، حتى تمكنت القوات الفرنسية من السيطرة على وادي عنان لتصل شرقي المغرب بغربه .



جبال الأطلس



الفصل العشرون

محا أو حمو
والمعارك في زيان

خاضت قبائل زيان بقيادة زعيمها «محا اوحمو» معارك هائلة لمنع القوات الفرنسية بقيادة الجنرال هنري من احتلال بلادهم ، وكان الماريشال ليوتي يعلق اهمية كبرى على احتلال مناطق زيآن لانها تسيطر على خط المواصلات المباشر بين مراكش وفاس عبر نهر أم الربيع وخنيفره ، لذلك حشد ثلاثين الف مجند لهذه الغاية .

وقد استمرت المعركة الحاسمة لاحتلالها مدة ٤٨ ساعة تمكنت خلالها القوات الفرنسية من احتلال خنيفرة وتحقيق اتصال الشمال بالجنوب .

وكانت هذه المعارك قد بدأت في عام ١٩١٣ أي قبل اندلاع الحرب العالمية الكبرى . ولم تكن قوات الزعيم «محا اوحمو» قد استكملت استعداداتها لخوض القتال مع الجيش النظامي الفرنسي ، فلما خسر «محا اوحمو» المعركة قرر الانسحاب إلى الجبال وهي ميدان القبائل الطبيعي

للاستعداد وحشد القوى من جديد .

فلما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، وجد الزعيم الزّياني الفرصة سانحة أمامه لمباشرة القتال والدفاع عن منطقته فشن هجوماً ـ لم يكن موفقاً ـ على خنيفره لاستردادها ثم أعاد الكرة في هجوم معاكس قاده ضد القوات الفرنسية التي هاجمت معسكره في «الحري» على مسافة ١٥ كيلو متر من خنيفرة فانتصر على أعدائه الفرنسيين انتصاراً مدوياً خسر فيه الفرنسيون ٣٣ ضابطاً من ضباطهم الاربعة والاربعين الذين خاضوا المعركة ، كما فقد جيش الجنرال هنري نصف قواته ولما هزم الجيش الفرنسي خلف وراءه العديد من مدافعه ورشاشاته وبنادق جنوده . واعترف الماريشال ليوتي بالهزيمة فقال : «لم يسبق لفرنسا في تاريخها الاستعماري أن منيت بمثل هذه الخسارة والتدمير في قوة هامة من جيشها ، وفي مثل هذا العدد من ضباطها ، وبما فقدته من اعتدة كثيرة» .

وكان صدى ذلك الانتصار مدوياً في الجبال والسهول والمدن فرفع الروح المعنوية لدى جميع المحاربين المغاربة في كل الميادين وعلى الأخص بين قبائل الاطلس ، بعد أن عرض الزعيم «محا اوحمو» غنائمه من الاسلحة الثقيلة على القبائل المحيطة به . . ولكن الوقت الذي أَضاعه سدى في عرض غنائمه بدلاً من الاستعداد لاسترداد الخنيفرة ، مكن الجنرال هنري من إعادة الكرة عليه واسترداد معظم اسحلته الثقيلة التي خسرها في معركة «الحري» المشار إليها .

ومع ذلك فقد بقيت معارك الاطلس الأوسط مستمرة إلى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨ . فخاضت قبائل «محا اوحمو» معارك ضارية في عدة ميادين ، ومنها الميدان الشمالي الشرقي الذي تسكنه قبائل «بني وراين» التي أسهمت في القتال ، وكبدت الجيش الفرنسي خسائر

كبيرة في الارواح والأعتدة الحربية . . دون أن تتوصل إلى نتيجة حاسمة .

وظل القائد الزعيم «محا أوحمو» يقود القتال ببسالة فائقة إلى أن اسشهد عام ١٩٢١ مسجلاً اسمه في سجل الابطال المغاربة الخالدين .

الفرنسيون يسيطرون على طريق فاس خنيفرة ـ مراكش

وقد استفاد الفرنسيون من استشهاد ذلك البطل المثالي في شجاعته وحزمه وقوة احتماله ، ولكن أولاده تضعضعوا بعد مقتل ابيهم فاستجابوا لإغراءات الفرنسيين وخداعهم فانضموا إليهم بدلاً من أن يقتدوا بأبيهم البطل .

وفي عام ١٩٢٣ نجح الفرنسيون في احتلال مراكز لهم في جنوبي الاطلس فسيطروا على وادي «ام الربيع» وعلى طريق فاس ـ خنيفرة ـ مراكش .

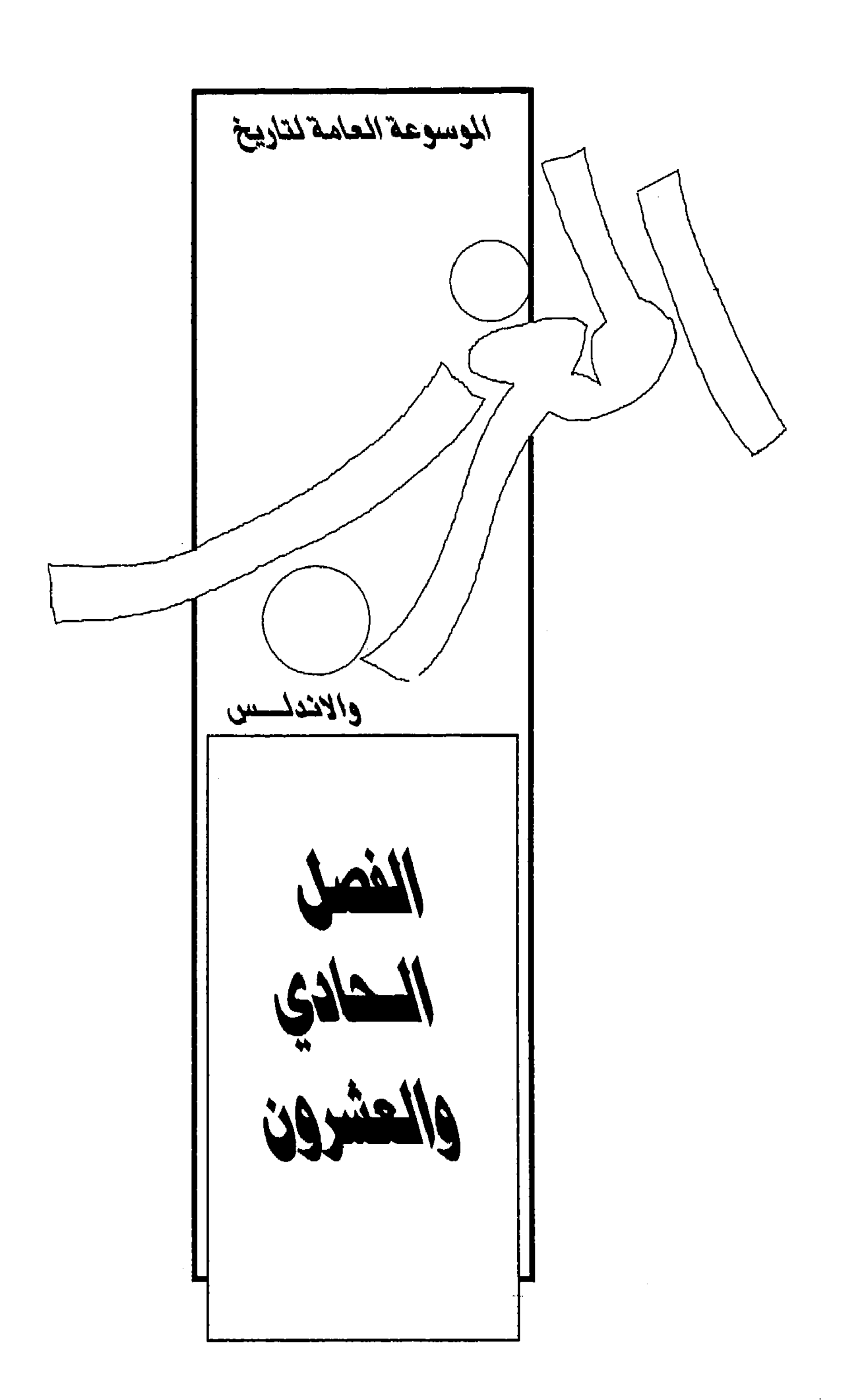
عندئذ اعلن ليوتي انجاز المرحلة الأولى والأهم من احتلال ذلك الجزء من المغرب أي «المغرب النافع» مغرب المدن والعواصم والموانىء والسهول وطرق المواصلات في حين بقي في حسابه «المغرب الذي لا غنى عنه» الا وهو مغرب الجبال والمناطق الصحراوية .

معارك وادي ورغه ووزان

وكانت المعركة ما تزال محتدمة في الميدان الواقع بين المنطقتين: الأسبانية والفرنسية والممتدة من الغرب إلى الملويه في محاذاة ممر تازا ـ فاس من الجهة الشمالية ، وقد حاربت في هذا الميدان قبائل بني وزان بقيادة زعيمها عبد الملك ، وكان يتلقى العون والمساعدة من المحتلين الاسبان ، فاستقر في ضفة ورغة اليمنى ، فانضمت إليه قبائل وادي ورغه ، ومع أنه لم

يُسجّل انتصارات حاسمة على الفرنسيين بقيادة الجنرال بويميرو ، لأن بني وزان تقاعسوا عن نصرته متأثرين بنفوذ الشريف الدرقاوي الذي صانع الفرنسيين على حساب وطنه .

وبذل الفرنسيون جهوداً مضنية بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢١ لاحتلال المنطقة الشمالية الغربية المتاخمة للحدود الاسبانية ولكنهم لم يتمكنوا إلا من احتلال «وزان» التي كانت قبائلها تعتمد على قبائل «الجبالا» في المنطقة التي يحتلها الاسبان وقد خاض الجنرال بويميرو الفرنسي معارك ملتهبة ليثبت بقاءه في وزان لما لهذه المدينة من أهمية دينية واقتصادية .


الموسوعة العامة لتاريخ
المغرب
والاندلــس
الفصل
الحادي
والعشرون

ثورة جبال الريف
من محمد امزيان إلى عبد الكريم الخطابي

كانت أسبانيا ما تزال تحتفظ بقواتها في سبته ومليلة الواقعتين في شمال المغرب على شاطىء البحر المتوسط ، وكان عليها أن تتوغل في جبال الريف لتحتلها أسوة بجيش الاحتلال الفرنسي الذي كان يحارب على كل الجبهات في المغرب ـ على اعتبار أن فرنسا كانت في أوج قوتها وعظمتها الاستعمارية والمالية والاقتصادية ، أما اسبانيا التي انهكتها الحروب البرية والبحرية ضد بريطانيا في مستعرماتها وفي بحر الشمال فقد بدأت تدخل في مرحلة انهيارها وضعفها بعد أن فقدت مستعمراتها في أمريكا الجنوبية ، وكوبا والفليبين اللتين انتزعتهما الولايات المتحدة منها .

ولكن كان عليها أن تفكر كثيراً وأن تحشد قوات كثيفة لتتمكن من فرض سيطرتها على جبال الريف المغربي ، وكان سكان هذه المنطقة يعيشون في شبه استقلال لا يقرون التفاوض مع أي جهة كانت ، ولم تخضع منطقتهم لأية حكومة محلية ، وكانت هذه العوامل مجتمعة هي التي تكونت

منها «الملحمة الكبرى» ملحمة جبال الريف ضد القوات الاسبانية ، فكانت مفخرة للعروبة والاسلام بقيادة الأمير البطل عبد الكريم الخطابي .

ولكن قبل ظهور الامير عبد الكريم فإن منطقة الريف كانت قد خاضت حرباً لا هوادة فيها مع الاسبان بقيادة بطل الريف الأول محمد أمزيان منذ عام ١٩٠٩ عندما انزل الجيش الاسباني ثلاثاً من فرقه في ضواحي مليلة لينطلق منها نحو منطقة الريف الجبلية . فتحركت القبائل بقيادة محمد أمزيان المذكور واصطدمت بالجيش الاسباني في معارك عسكرية عديدة طوال سنتين ، وقد قدر الاسبان خسائرهم خلال هاتين السنتين بعشرة آلف قتيل . من بينهم جنرالان كبيران ، ثم استؤنفت المعارك سنة ١٩١٣ بين قبائل الريف والجيش الاسباني ، عندما تحرك الأخير لاحتلال مدينة شفشاون التي بناها المهاجرون الاندلسيون على الطراز الأندلسي وانتهت تلك المعارك بهزيمة الاسبان فطاردهم أبناء الريف إلى تطوان وحاصروها ، ولم تتوقف تلك المعارك إلا عندما اتفقت الحكومة الاسبانية مع عميلها الخائن الريسولي فور تعيينه حاكماً على منطقة المغرب الشمالية ، بموجب اتفاقية استمرت إلى ما قبل اندلاع ثورة الامير عبد الكريم الخطابي بوقت يسير .

ومن المعروف أن مناطق الريف الواقعة في شمالي المغرب تنحدر انحداراً شديداً حتى تلامس قدماها مياه البحر الابيض المتوسط في الشمال ثم تنحدر انحداراً محدودباً إلى جنوبي طنجة صوب المحيط الاطلسي . وهي منقسمة إلى قسمين : القسم الشمالي الممتد من مليلة إلى سبته ، والجزء الغربي الممتد من طنجة حتى مدينة العَرَائِش . وكانت هذه المنطقة واقعة تحت الاحتلال الاسباني وفقاً للاتفاقات الثنائية التي عقدها المستعمرون فيما بينهم منذ عام ١٩٠٢ وحتى العام ١٩٠٤ . وتدعمت بمعاهدة الحماية سنة ١٩١٢ .

وكان السكان في هذين القسمين من منطقة الاحتلال الاسباني يختلف بعضهم عن البعض الآخر في بعض الصفات والمزايا وإن كانوا متشابهين بحب الحرية والاستقلال .

وكانت منطقة «الجبالا» الواقعة في جنوب غربي طنجة قد تأثرت كثيراً بالعرب نتيجة لقلة التضاريس وقلة صعوبة المواصلات فيها ، ونتيجة لقرب سكانها من مراكز الثقافة العربية في سهول الغرب المطلة على المحيط الاطلسي ـ حيث كانت تسكن قبائل بني هلال كما اوردنا ذلك في الفصول الماضية ، أما منطقة الريف الواقعة شرقي المنطقة الأولى والتي تمتد منها سلاسل الجبال الشاهقة فقد ظل ابناؤها يحتفظون بتقاليدهم ولغتهم الكنعانية ـ البربريه رغم اعتزازهم بالاسلام .

الأمير عبد الكريم الخطابي

وقد عرفت قبائل الريف منذ فجر التاريخ باسم الأمازيغ» وتمكنت من الاحتفاظ باستقلالها بالرغم من خضوع ايبيريه «الاندلس ـ اسبانيا» وطنجه والجزائر للسيادة الرومانية القديمة ، وبالرغم من اصرار الحكومة المغربية على أن تكون لها السيادة على منطقة الريف ـ فان تلك السيادة ظلت اسمية .

وكانت قبائل «بني ورياغل» اشهر قبائل الريف تسكن الاقليم المواجه لميناء الحسيمة وساعدها ذلك على أن تصبح اكثر من غيرها عداءً للمستعمرين ، واكثر من غيرها قوة نتيجة لامتلاكها الاراضي الزراعية ، وكان وجود ميناء الحُسَيْمَة في أيدي رجال الريف قد مكنهم من الاحتفاظ به نافذة حرة مفتوحه على العالم .

وفي السنوات الأولى من القرن العشرين اختارت قبيلة بني ورياغل

الأمير عبد الكريم الخطابي «الأب» رئيساً لها[1] وكان مشهوراً بالحكمة والشجاعة والحزم والرغبة في تقدم بلاده وتحضيرها . وهو يعود بنسبه إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، وهو والد البطل عبد الكريم الخطابي الذي تلقى عنه الحكمة وكثيراً من شؤون الإدارة والسياسة والحكم .

وإلى الغرب من هذه المنطقة كانت قيادة الريسوني الخائن المتحكم في منطقة «الجبالا» كما اسلفنا تحت الاحتلال الأسباني .

وقد جاءت الاتفاقات الفرنسية الاسبانية في ٣ اكتوبر سنة ١٩٠٤ ـ وفي ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ ـ فوضعت السيادة الاسمية لسلطان المغرب وطبقاً لألقابه التقليدية في المنطقة تحت الحماية الاسبانية .

وقد حاول الاخوان مانسمان الالمانيان الاتفاق مع عبد الكريم الأب ، للتنقيب على المناجم المعدنية في مناطق الريف ، ثم اتصلا بالسلطان المغربي عبد العزيز سنة ١٩٠٩ للحصول فيه على امتياز لاستغلال مناجم المنطقة ، ثم جددا المحاولة بعد اعلان الحماية الاسبانية بالاتفاق الفرنسي ـ الاسباني في ٢٧ نوفمبر ١٩١٢. في عهد السلطان عبد الحفيظ ولكنهما وجدا أن اسبانيه عاجزة عن مد سلطاتها الفعلية إلى بلاد الريف ، فاقترحا على الحكومة الاسبانية إنشاء شركة استغلال استعمارية ، ولكن هذه الحكومة رفضت المشروع . فقام سلطان المغرب وبايعاز من فرنسا باصدار مرسومين في ١٩ و٢٠ يناير سنة ١٩١٤ ، بتكوين لجنة تحكيم للفصل في الادعاءات والمنازعات المتعلقة باستغلال الثروة المعدنية والمناجم في الريف المغربي ، ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى عطل عمل لجنة التحكيم .

---

(١) ينكر بعض المؤلفين الفرنسيين هذا الانتساب ويعتبرونه انتساباً سياسياً .

ولما وضعت الحرب أوزارها ، ظهر أحد رجال الأعمال الاسبانيين وهو يحمل اتفاقاً مع الشركة الالمانية ، ويدعى ايشيفاريتادى بالباو وهو يريد أن يتبنى المشروع بكامله . . فراح يتفاوض مع اسرة الخطابي في الوقت الذي بدأ فيه الجنرال سيلفسترِي زحفه الفاشل على «أنوال» في يوليو سنة ١٩٢١ . وجاءت العمليات الحربية لتضع نهايةً لتلك المفاوضات لاستغلال مناجم المعادن في الريف .

وقبل أن تشن أسبانيا حربها الظالمة على القبائل الريفية ، كان الأمير عبد الكريم الأب قد ارسل ابنه الاصغر محمد الخطابي إلى مدينة مالِقَة في اسبانيا للدراسة ، ثم ارسله بعدها وللغرض نفسه إلى مدريد للتخصص في هندسة المناجم والتعدين .

أما ابنه الأكبر محمد عبد الكريم ـ ويلاحظ أن الاثنين كانا يحملان اسماً واحداً يبدأ بمحمد عبد الكريم ـ والذي سيخلفه في الحكم فيما بعد ، فقد ارسله والده لدراسة العلوم العربية والدينية ـ خصوصاً علوم الشريعة والفقه الاسلاميين في جامعة فاس ولما اتم ذلك انتقل عبد الكريم إلى مدينة مليلة واشتغل بالقضاء الشرعي قاضياً للقضاة وعمل بعدها في تحرير جريدة «تلغراف الريف« ثم مستشاراً للسلطات الاسبانية في الشؤون العربية .

وقد ساعدت دراسة الامير عبد الكريم الإبن في فاس ، وعمله في سلك القضاء والصحافة على تكوين شخصيته المدنيَّة ، واعداد شخصيته العسكرية لكي يسجل اسمه بحروف من نار في سجل الكفاح والنضال في المغرب ضد الاستعمار الاسباني والفرنسي .

وسرعان ما أصيب الأمير الشاب بخيبة الأمل بعدما اعلنت اسبانيا حمايتها على شمال المغرب .

وجرت مراسالات بين الأمير عبد الكريم الأب والسلطات الاسبانية احتج فيها على بادرة الحكومة بوضعها مناطق الريف تحت حمايتها . فأرسل إليه الجنرال خوردانا يستدعيه لتقديم فروض الطاعة والولاء في الحسيمة ، ولما رفض الأمير عبد الكريم الأب الدعوة أمر الجنرال بالقاء القبض على ابنه عبد الكريم الموجود في مليلة وزجه في السِّجن حيث بقي يُعاني من الآلام النفسية المبرحة لزجه ظلماً في السجن بدون ذنب يستحق عليه هذه العقوبة وهو الذي كان قاضياً يحاكم المجرمين .

وظل الأمير في السجن أحد عشر شهراً ، ثم اخلي سبيله لكي يوضع تحت المراقبة ستة اشهر اخرى ، بحجة أنه تعدى على احد ضباط الشرطة الاسبان .

وقد انتظر الأمير عبد الكريم الأب الإفراج عن ابنه الاكبر وعودة ابنه الثاني من مدريد ، وما أن وصلا إلى «أجدير» حتى اعلن الأمير الأب القطيعة بينه وبين اسبانيا .

وبدأ الأمير الشيخ عبد الكريم يستعد لمقاومة الاحتلال الاسباني فحشد رجال القبائل من حوله . ولما احتل الاسبان «تَفَرْسِيْت» في اغسطس «آب» سنة ١٩٢٠ وموقعها في اعالي نهر القرط ، على الطريق الموصل بين مليله والحُسَيْمة ، زحف عبد الكريم الأب بقواته على المدينة المحتله «تَفَرْسِيْت» وحاصرها زهاء عشرين يوماً ، ولكن المنية عاجلته ـ بسبب شيخوخته ـ اثناء الحصار فاضطلع الأمير عبد الكريم الأكبر سناً من اخيه الأمير محمد عبد الكريم ـ بالقيادة واشترك مع الأخوين ، عمهما عبد السلام الخطابي . حيث اتفق ثلاثتهم على وجوب طرد الاسبان وتحرير الشواطىء المغربية من الاعداء .



الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي

وكانت اسبانيا قد سلحت قواتها بأحسن ما انتجته المصانع الحربية الاوروبية في فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها ، ولكن الجنود الاسبانيين كانوا يفتقرون إلى الانضباط وحسن التدريب ، اما ابناء الريف المغاربة فقد كانوا يفتقرون في أول الامر إلى الاسلحة الحديثة ولكنهم تمكنوا من الحصول عليها بعد المعارك الاولى التي غنموا فيها من الاسبان أعداداً كبيرة . وكانت القوات الاسبانية موزعة على ثلاثة محاور تترأسها ثلاث قيادات: الأولى في مليليه في الشرق ، والثانية في سبته المطله على المضيق ، والثالثة في العرائش المطلة على المحيط الاطلسي جنوبي طنجه

معركة انوال

كانت الحكومة الاسبانية قد عينت الجنرال «بيرينخر» في أول سبتمبر ، قائداً عاماً للقوات الاسبانية في شمال افريقيه ، علاوة على انه مندوب سامٍ في المنطقة . ثم فرضت عليه الجنرال سيلفستري .

وكانت خطة الجنرال بيرنخر تقضي باخضاع المناطق واحدة بعد الاخرى ، ومنها المنطقة التي كان يحتلها الريسوني عميلهم السابق الذي فرض حمايته على منطقة تاز روت .

ولما وصلت قوات بيرنخر الاسبانية إلى مسافة ست كيلو مترات من تاز روت فيما بين ٢٥ يونيه و١٦ يوليو سنة ١٩٢١ ،وجه انذاراً إلى الريسوني يأمره بالاستسلام في مهلة تنتهي في ٢٣ يوليو .

ومن جهة أخرى كان الأمير عبد الكريم قد شن هجوماً كاسحاً على القوات الاسبانية في «سيدي بيسان» قتل فيه ٣١٤ اسبانياً مقابل ١٧ شهيداً من القوات الخطابية .

وعندئذ ، حشد الاسبان قوة عسكرية قوامها ١٩ الف جندي ، واسندوا قيادتها للجنرال سيلفستري ، الذي خيل له الوهم بأنه ذاهب في نزهة ، لذلك سارع في زحفه للانقضاض على قوات عبد الكريم الخطابي دون أن يحتاط لحماية جناحي جيشه . فاحتل في غربي نهر القرط ، دار داريوس ، في شهر أيار «مايو» ثم تفرسيت في شهر آب «اغسطس» فاعتقد أنه في نزهة حقيقية ولم يدر بخلده أن الامير عبد الكريم كان يستدرجه إلى داخل المناطق الجبلية .

وكان الكولونيل موزاليس قائد شرطة مليلة قد نصح الجنرال سيلفستري باستخدام السياسة بدلاً من القوة والشدة والعنف مع الامير الخطابي ، ولكن سيلفستري اصم اذنيه ، ودون ان يستشير القائد العام الجنرال بيرنخر ، احتل جبل عبران في أول يوليو عام ١٩٢٠ الواقع على مسافة ١٢ كيلو متراً من «انوال» ويطل على الحسيمه ومنطقة أجدير مركز قبيلة ورياغل .

وفي اليوم الذي احتل فيه سيلفستري جبل عبران هاجمه الامير عبد الكريم بقواته ليلاً .

وكانت الحامية الاسبانية المعسكرة في جبل عبران بعد احتلاله تتألف من ٢٥٠ جندياً منهم مئتان من المجندين المغاربة ، وما أن بدأ القتال حتى اسرع المجندون المغاربة وأسلحتهم في أيديهم وانضموا إلى اخوانهم المغاربة في قوات الأمير عبد الكريم الخطابي ليسطروا مثلاً رائعاً عن وحدة الشعب المغربي في مختلف الظروف والأحوال ثم واصلت قوات عبد الكريم الهجوم على المواقع التي كان الاسبانيون قد احتلوها في شهري ديسمبر ويناير ، وطلبت حامية «ايجر بين» الاسبانية امدادها بالماء والمؤن

فأرسل سيلفستري طابوراً لنجدتها .

وشعر الجنرال سيلفستري بخطورة الموقف «بعد أن تبخر من رأسه الوهم بأنه مقبل على نزهة» فراح يجمع قواته الموجودة في قطاع مليله ويركزها في موقع «انوال» وحاول أن يشن غارات جديدة لفك الحصار على ايجربين ولكن رجال الريف كانوا قد حصنوا خطوطهم حولها فردوا الاسبانيين القادمين وأوقعوا فيهم خسائر فادحة .

ولما ساء الموقف في ايجربين راح العديد من الضباط الاسبان ينتحرون خوفاً من الاسر والهزيمة .

وفي صبيحة اليوم الثاني والعشرين وتحت تأثير الخوف من هجوم قوات عبد الكريم أَصْدَر الجنرال سيلفستري أوامره بالانسحاب ، وحتى الانسحاب لم يكن متيسراً لقواته فانتشر الذعر بين جنوده وعمت الفوضى وكانت قوات سيلفستري المؤلفة من ١٩ ألف جندي من بينها أربعة الاف مجند مغربي فانسحب هؤلاء وانضموا إلى الأمير عبد الكريم بكل اسلحتهم ومعداتهم ، وكان لاسبانيا عدد كبير من الحاميات موزعة على ١٣٠ موقعاً ففر معظم رجال تلك المواقع ، ومن بقي منهم اضطر إلى التسليم . هذا وقوات الأمير عبد الكريم مستمره في الزحف والقتال فإذا تصدت لها القوات الاسبانية التي تبعثرت أبادتها ، أو قامت بأسر المستسلمين وهكذا كان . وقد استطاع الجنرال نافارو أن يصل بقواته المنسحبة إلى ما يقرب من ٤٠ كيلو متراً من مليله ، ولكنه فقد كل قطعة من قطع مدفعيته ومعظم الاسلحة وذخائره ومؤنه ، ورغماً عن وصول القائد العام بيرنخر بقواته إلى مليله في ٢٣ منه إلا أنه فشل عندما حاول الخروج من المدينة .

وظل الجنرال نافارو في موقعه محاصراً ، وعجز عن الوصول إلى

مليله حتى يوم ٩ اغسطس ، وعندئذ اضطر إلى الاستسلام لقوات التحرير المغربية فأرسلوه أسيراً إلى الأمير عبد الكريم القائد العام لعمليات التحرير .

وقد قضت معركة أنوال على جيش سيلفستري ولم يبق في مليله بعدها سوى بضع مئات من الجنود ، وإذا ما رجعنا إلى احصاءات الاسبان عن خسائرهم فاننا نجد باعترافهم أنهم خسروا ١٤,٧٧٢ رجلاً و ٢٩,٥٠٤ بنادق و٣٩٢ مدفعاً رشاشاً و١٢٩ مدفع ميدان و٥٧٠ اسيراً .

بعد هذه الهزيمة النكراء اضطربت الحياة السياسية في اسبانيا ، وسيطرت عليها حالة نفسية افقدتها شعورها بالعزة والكرامة ، ومنذ معركة انوال ، راحت ميزانياتها المالية تتساقط مثل أوراق الخريف . وضعفت قوتها من الرجال .

أما الأمير عبد الكريم فقد سار قُدُماً على طريق الخلاص والتحرير بقوة الرجال والسلاح والايمان بالله بأن ينصره على اعدائه .

وهذه المعركة انقذت عنق الريسوني من المشنقة لأن الجنرال بيرنخر الذي هدده بالاستسلام شغل عنه بمحاولة انقاذ قوات الجنرال سيلفستري وهي المحاولة التي كان مصيرها الفشل .

وكان في وسع الأمير عبد الكريم أن ينهي الحرب مع اسبانيا بسرعة وبموقعة عسكرية مظفرة يقودها حول مدينة مليله فيحاصرها ويدكها دكاً بالمئة والتسعة والعشرين مدفعاً التي غنمها في «معركة انوال» خصوصاً وأن المدينة ظلت لعدة أسابيع ـ بعد الهزيمة في أنوال ـ محاصرة وقواتها ضعيفة وهكذا ضاعت الفرصة الأولى والأخيرة لاحتلالها وتحريرها والاجهاز على ما بقي من القوات الاسبانية في شمال المغرب .

لقد وقع عبد الكريم في نفس الخطأ الذي وقع فيه هنيبعل القرطاجي في ايطاليا يوم أن سحق الجيوش الرومانية من شمالي ايطاليا إلى جنوبيها ، إلى أن وقف تحت اسوار روما . . فبدلاً من مهاجمتها ابتسم وأمر جنوده بالانسحاب مما حمل اخاه على أن يصيح في وجهه قائلاً : يا هنيبعل إنك تعرف كيف تكسب الانتصارات ولكن لا تعرف كيف تستفيد منها .

وهذا ما حصل بالفعل للامير عبد الكريم فقد كان في وسعه أن يسحق مليلة بمدفَعِّيتِه ويختصر امد الحرب وربما إلى الأبد . ثم يلتفت لتحرير سائر المغرب بمساعدة القبائل المغربية التي كانت تنتظر ظهور زعيم جديد ليقودها من جديد إلى تحرير الوطن بكامله . ولكنه لم يفعل لأنه لم يقدر الموقف حق تقديره .

ولَمْ يأت يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٠ إلا وقد احتلت قوات الامير عبد الكريم كل الاقليم حتى اسوار مليلة ورغماً عن أن الجنرال بيرنخر كان قد وصل إلى مليله في ٢٣ يوليو ، إلا أنه لم يستطع الخروج من المدينة ، وظل الجنرال نافارو محاصراً مع قواته في مواقعه أمام المدينة ، وظل على هذا الوضع حتى ٩ آغسطس دون أن يتمكن أحد من انقاذه .

كان الخطأ الذي ارتكبه عبد الكريم كبيراً . ولكن الحظ بقي في خدمته مدة أخرى من الزمن .

وتلقى الجنرال بيرنخر نجدات جديدة رفعت عدد ما لديه من الجنود إلى ستين الفاً . فقرر أن يشن بهذه القوات هجوماً معاكساً على قوات عبد الكريم ، وبالفعل تحركت قواته وهجمت في ١٢ سبتمبر ـ ايلول ـ سنة ١٩٢١ ، أي بعد سنة وخمسين يوماً على هزيمة الجنرال سيلفستري في أنوال . وبعد كر وفر تمكن الجيش الاسباني من احتلال جبل خورخو الواقع

في جنوب غربي مليله وتمكن من التحكم بموقعه بدءاً من الاسبوع الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩٢١ وقد ساعده تحركه المستمر هذا على الوصول إلى نهر القرط في ديسمبر ـ كانون الأول من العام نفسه .

وقبل نهاية العام تمكن الاسبانيون من احتلال الشريط الساحلي الواقع بين نهر القرط ومليله ـ ثم تقدموا نحو دار داريوس في اعلى وادي القرط في ١٠ يناير ـ كانون الثاني سنة ١٩٢٢ فاحتلوها في حين ظلت الامدادات تصلهم بصورة مستمرة حتى بلغ عدد قواتهم ١٥٠ الف مقاتل .

هذه الانتصارات لم تتلقها مدريد بالاعجاب والتصفيق الحاد . لأنها كانت تدرك أن الجنرال بيرنخر يسوّي خطوطه وينظم قواته المبعثرة ويوحّدها تمهيداً للمعركة الكبرى القادمة . التي قد تهيىء له اخضاع القطاع الغربي من مليله .

وفي غضون هذه المناوشات تمكن الريسوني من الإفلات ، في حين شرعت قوات عبد الكريم تناوش القوات الاسبانية في ذلك القطاع الواقع غربي مليلة .

وعاد الجنرال بيرنخر إلى استراتيجيته القديمة ، فركز قواته ضد «الجبالا» فنجح في ١٢ يناير «مايو» عام ١٩٢٢ بالاستيلاء على تازروت» مركز حكومة الخائن الريسوني . ثم قدم استقالته إلى حكومته عندما شعر أن حكومة مدريد تريد أن تضحي به ارضاء للرأي العام . بعد أن اتهمه خصومه بتوريط الحكومة الاسبانية في شمالي المغرب ، هذا بالاضافة إلى الحملات الصحفية التي كان يشنها عليه انصار الجنرال سيلفتسري الذي اختفى بعد معركة «انوال» ولم يعرف مصيره أبداً .

وفيما بين عامي ١٩٢٢ و١٩٢٣ استطاعت الحكومة الاسبانية أن تجند

قـوات جـديـدة اسنـدت قيـادتهـا إلـى الجنـرال بـرانخـي الـذي نـازل قـوات عبد الكريم على طول خط مليله ـ كوبا ـ الحُسيمه ولكن المعارك لم تسفر عن أي انتصار لكلتي القوتين غير أن المعركة الأخيرة ربحها الأمير الخطابي فأنزل باعدائه هزيمة ساحقة ، فأسرع الجنرال برانخي إلى الاعتصام بمدينة مليله . وهكذا ظلت مليلة شوكة في جنب قوات الريف ، وبالرغم من أن هذه القوات قد استولت على اسلحة وذخائر كثيرة فإن قائدها لم يفكر أبداً باحتلالها .

مناورات الجنرال برانخي

ولجـأ الجنـرال بـرانخي إلـى المسـاومـة وشـق الصفـوف فـي محـاولـة لاكتسـاب الـوقـت ريثمـا تصلـه امـدادات جـديـدة فبـدأ يتفـاوض مـع الخـائـن الريسوني من ٦ أغسطس إلى ٢٨ سبتمبر حتى نجح باستمالته لاسبانيا من جديد ، مقابل الجلاء عن مدينة تـازروت بعد أن دفع له تعويضاً كبيراً عن الخسـائـر التـي الحقهـا الاسبـان بمنطقتـه وامـر بسحـب الضبـاط الاسبـان والموظفين المغاربة المتواطئين مع قوات الاحتلال . وتنازل برانخي عن القطاع الغربي الريسوني الذي اصبح سيد الموقف في ذلك القطاع ـ على أمل أن يبدأ الجنرال برانخي هجومه الجديد ابتداء من الشهر التالي .

وبـالفعـل فقـد اشتبكـت قـوات بـرانخـي مـع قـوات الـريـف فـي عـدد مـن المعارك كان فيها النصر للاسبان ، ولكن الامير الخطابي ما لبث أن هزمهم في معركة «تيزي عزَّة» هزيمة تضارع هزيمة معركة انوال .

وبهذه الهزيمة تمكن الأمير الخطابي من فرض سيادته على منطقة بني ورياغل ـ قبيلته ـ وعلى كل بلاد الريف ، وعمارة وهكذا اصبحت القبائل ولأول مرة فـي التـاريـخ الحـديـث خـاضعـة لحكـومـة وطنيـة مـوحـدة . كمـا

اصبحت مدينة «أجدير» الصغيرة عاصمة لدولة الأمير الخطابي على ساحل البحر المتوسط وهي تبعد بضعة كيلوامترات من خليج الحسيمه . وفي متناول مدفعية قوات الريف .

واستطاع الجنرال برانخي بعد هذه المعركة من حشد خمسين الف جندي في الحسيمه بالاضافة إلى القوات الموجودة في مليله وفي اثناء ذلك وضع هذا الجنرال خطة للانقضاض على «جبل عروس» كمقدمة للاستيلاء على قرية الأمير الخطابي ، ولكن خطته منيت بالفشل الذريع وبعد عدة معارك خسر الاسبان ثلاثة الاف اسير وخمسة الاف قتيل ، وآلاف الجرحى من بينهم الجنرال برانخي نفسه بالاضافة إلى الذخائر والمعدات العسكرية التي خلفها الجنود الاسبان الفارون في أرض المعركة . حتى هذا الوقت كان الأمير الخطابي قد مرَّغ أنوف القادة الاسبان المتغطرسين في الوحل ، واصبحت مسألة متابعة القتال بذلك الاصرار الاسباني العقيم عديمة الجدوى ، فقررت القيادة الاسبانية العليا اللجوء إلى سياسة المراوغة والمفاوضات لكسب الوقت ريثما يتسنى لها تقوية دفاعها في منطقة مليله . فأوفدت مبعوثاً فوق العادة لاجراء مفاوضات مع الأمير عبد الكريم الخطابي بقصد جره إلى مؤامرة جديدة تقضي بعقد هدنة تكون مقدمة لما ستسفر عنه المؤامرة . .

الخطابي ينشيء حكومة محلية

وكان الأمير الخطابي قد أنشأ حكومة محلية يسندها مجلس شورى ترأسه شخصياً بالاضافة إلى رئاسة السلطة التنفيذية ، وفي اثناء المفاوضات التي جرت بينه وبين الاسبان طلب الأمير الخطابي الاعتراف باستقلال المغرب الشمالي وانهاء الحماية الاسبانية عليه ، بينما عرض عليه الاسبان اعطاء منطقة الريف استقلالاً ذاتياً لا يتعارض مع اتفاقية الحماية والاعتراف

بالسلطان يوسف ووكيله في طنجه ، وكان وكيل السلطان خاضعاً للحماية الاسبانية خضوعاً تاماً .

ولكن الأمير الخطابي رفض العرض الاسباني واضاع وقتاً ثميناً كان من المفروض أن ينتهزه لمهاجمة الحسيمه ومليلة وبذلك يقطع دابر الوجود الاسباني في هاتين القاعدتين .

وبعد فشل المفاوضات استأنف الامير الخطابي هجومه على القوات الاسبانية في جبل درسه ـ شفشاون ، فلما لم تسفر هجماته عن نتيجة حاسمة . شن جيش الريف هجمات متوالية ناجحة على مدينة «داغيت» ثم خاض معركة مظفرة في عريت ـ القريبة من انوال ، عندئذ اعترفت حكومة اسبانيا مرغمة بأن الوضع اصبح خطيراً جداً .

وفي هذه الاثناء وقع الإنقلاب الذي قام به الجنرال بريمو دي ريفيرا في سبتمبر عام ١٩٢٣ في اسبانيا .

الخطابي يسيطر على الطرق الرئيسية في الشمال

كان المركيز دي ستيلا يتولى قيادة الحرب في شمال المغرب بعد الجنرال برانخي ـ فقرر في ٢٦ يونيه «حزيران» عام ١٩٢٤ سحب قواته المتقدمة في كلا القطاعين إلى الساحل . وقبل نهاية شهر يونيه حزيران من العام المذكور شن الأمير الخطابي هجوماً على وادي «لاو» وهو الطريق الموصل بين تطوان ـ وشفشاون في القطاع الغربي ، وراح مفاوضو الأمير الخطابي يحثون «الجبالا» على الانضمام اليهم ومع أن عدد القوات الاسبانية في هذا القطاع الغربي كان يبلغ حوالي مئة الف جندي منهم حوالي ستون الفاً على طريق تطوان» إلا أن الأمير الخطابي انتصر عليهم في معركة «وادي لاو» انتصاراً حاسماً .

وكان الاسبان يعتمدون على الخائن الريسوني للمحافظة على الهدوء بين قبائل «الجبالا» ولكنه لم يستطع مواجهة تحديات الأمير الخطابي . .

وتمكن رجال قبائل «جبالا» من قطع الطريق بين تطوان وشفشاون نهائياً وحاصروا قوات اسبانيه بلغ عددها ثلاثة الآف جندي على مسافة ٥٠ كيلو متراً من قاعدتهم ، ثم قطعوا الطريق بين تطوان وطنجة .

وفي أوائل سبتمبر شرعت قوات الريف تهاجم القوات الاسبانية على مسافة لا تبعد اكثر من ثلاثة كيلو مترات عن تطوان مقر الحماية الاسبانية .

هذا الحصار القبلي المظفر أدى إلى سقوط الحاميات الاسبانية الواحدة بعد الأخرى . وهي التي كان لا يقل عددها عن ٤٠٠ حامية ، وراح الجنود الاسبان يشترون حريتهم بتسليم اسلحتهم وذخائرهم ودفع فدية مالية لرجال القبائل ، وكان من جملة الحاميات المستسلمة حامية بوحاريد التي تتكون من ٣٥٦ عسكرياً .

وبعد انسحاب حامية شفشاون في نوفمبر للانضمام إلى حامية تطوان ، اخذت «قبيلة لانجرة» المغربية الريفية القاطنة في المثلث الواقع بين تطوان وسبته وطنجه تظهر عداءها للاسبان ثم اعلنت الثورة على الوجود الاسباني . فاحتلت «القصر الصغير» في أوائل ديسمبر . وعرضت الحكومة الاسبانية مرة اخرى على الأمير الخطابي ، العروض نفسها التي قدمتها إليه في المرة الأولى ولكنه رفضها جملة وتفصيلاً . .

وقد كلفت هذه العمليات الحربية أسبانيا في الستة اشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٤ ، أكثر من ٢١٢٥٠ قتيلاً ومفقوداً واسيراً من الضباط والجنود بالاضافة إلى الاعتدة الحربية والذخائر .

وفي النصف الأول من عام ١٩٢٥ شرعت القيادة الاسبانية العليا بالانسحاب إلى الخط الثاني الذي اقامته على الساحل وهي تشعر بالمرارة والخيبة لثورة قبيلة لانجرة القائمة وراء هذا الخط .

واكتفت القيادة الاسبانية بإعادة فتح الطريق بين طنجة وتطوان ، لتستخدمه كممر بين المنطقتين التي يسيطر عليهما الثوار في منطقة لانجرة في الشمال ، ومنطقة الجبالا في الجنوب ، كما قامت القوات الاسبانية بمحاصرة الاراضي المحيطة بمنطقة طنجة الدولية ، حتى تمنع القبائل الثائرة من بيع محصولاتها الموسمية في أسواقها . ثم بدأت بمحاصرة قبيلة «لانجرة» في آخر شهر يناير سنة ١٩٢٥ ، ثم استردت بلدة «القصر الصغير» في آخر مارس آذار ثم قصرت عملياتها فيما بعد على ضرب القرى بقنابل الطائرات ، والقبض على المغاربة الذين كانوا يحاولون التسلل من خلال الاستحكامات الاسبانية لبيع محصولاتهم في طنجة والتسوق منها .

في نهاية عام ١٩٢٥ ، اصبح الأمير الخطابي رئيساً لدولة جبال الريف وما حولها وسيطرت قواته على منطقة «جبالا» التي كان الريسولي يحرض الاقطاعيين فيها على عدم الاعتراف بسلطة الامير الخطابي . ولكن هذه الحركة انتهت بالقبض على الخائن الريسوني في تازروت عاصمته ونقله إلى «أجدير» حيث مات غير مأسوف عليه في شهر نيسان أبريل من السنة نفسها ١٩٢٥ .

الحكومة الاسبانية تناور لاكتساب الوقت

وقد شرح محمد عبد الكريم الشقيق الأصغر للأمير عبد الكريم سياسة أخيه والشروط التي يقبلون بها لأنهاء الحرب ، وذكر أن هدف الحرب هو تحرير الريف ومنطقة الجبالا ، وانهم يوافقون على ترك سبته ومليلة في

أيدي الاسبان «وهذا خطأ فاحش» ولكنهم قد يغيرون موقفهم إذا ما استمرت الحكومة الاسبانية على تعنتها ، وطلبوا ٢٠ مليون «بسيطا» كتعويض وبعض المدافع والطائرات .

ومع ذلك فإن الحكومة الاسبانية تركت لقيادتها الحرية في التفاوض مع محمد عبد الكريم المذكور بغية اكتساب الوقت ، وعلى أساس وقف القتال ، وفتح أسواق بالقرب من الخطوط الاسبانية . .

ولكن هذه المفاوضات انقطعت فجأة . . لأن الحكومة الاسبانية كانت تجري مفاوضات سرية مع الحكومة الفرنسية من أجل توحيد قوتيهما العسكرية للقضاء على ثورة الأمير الخطابي .

وهكذا نجحت خطة اكتساب الوقت والمهادنة الاسبانية ، والهاء الأمير الخطابي في حروب جانبية صغيرة للاستيلاء على مواقع غير هامة . ريثما تتمكن من ضم قواتها إلى القوات الفرنسية لمجابهة قوات الريف كي لا تستطيع الصمود حتى ولا المقاومة .

وشعر الماريشال ليوتي بالخطر الذي يهدد الحماية الفرنسية في الاجزاء الجنوبية الأخرى من المغرب . من تلك الانتصارات المتتابعة التي كان يحرزها الأمير الخطابي ، بعد أن دوّى اسمه في المشرق والمغرب كزعيم عربي مغربي يناضل من أجل تحرير المغرب من الاحتلالين الفرنسي والاسباني . في وقت كانت فيه منطقة الشرق الأوسط العربية قد خضعت لاحتلالين ماكرين : الاحتلال الانجليزي في فلسطين والاردن والعراق والاحتلال الفرنسي في سوريا ولبنان منذ عام ١٩١٦ بموجب معهدة سايكس ـ بيكو .

القمر يطلع من المغرب

وفي خضم ذلك الظلام الدامس أخذت الشعوب العربية في الشرق والشعوب المغربية في الغرب تشرئب بانظارها نحو البطل المغربي الجديد الذي مرّغ أنوف قادة الاسبان في أوحال معاركه وانتصاراته ـ في زمن اختفى فيه زعماء الشرق أو كادوا ولم يبق سوى الملوك والامراء المتعاونين الخاضعين للانجليز والفرنسيين .

وإذا كانت الشعوب العربية في مختلف اقطارها قد افتقدت البدر في لياليها المظلمة فإن البدر في هذه المرة وخلافاً لجميع القياسات الزمنية والمكانية فقد طلع من المغرب وهو اشد تألقاً وسطوعاً من قمر المشرق التقليدي . الذي طالما تغنى به شعراؤهم .

أما الاسبان فقد كانوا غارقين في المتاعب والتآمر وفي الوقت نفسه ، كانوا يواجهون متاعب جديدة من القبائل المغربية القاطنة في تطوان وعلى حدود طنجة الدولية في حين كانت خطوط مواصلاتهم مقطوعة في المنطقة التي يحتلونها .

لذلك أصبح بقاء الحماية الاسبانية في شمالي المغرب مرهوناً بالاتفاق مع نظام الحماية الفرنسي الموجود على الجانب الآخر من المغرب ، وصار لا بد من عمل مشترك تقوم به الدولتان الاستعماريتان ضد الامير البطل عبد الكريم الخطابي .

وراح الماريشال ليوتي المقيم الفرنسي يضغط بكل قوته وامكاناته على حكومته في باريس لمساعدة القوات الاسبانية والاتفاق مع حكومتها على القيام بعمل عسكري مشترك لاقتلاع الحرب التحريرية الخطابية من جذورها .

وكان اكثر ما يخشاه المستعمرون في ذلك الزمن هو ظهور بطل للعرب

في الشرق على غرار البطل عبد الكريم الخطابي في شمال افريقية ، لذلك جاء في احد تقارير ليوتي قوله : «ليس ثمة ما هو اسوأ على مستقبل نظامنا من قيام دولة مسلمة مستقلة وحديثة في منطقة قريبة جداً من مدينة فاس ، لأنها ستجعل من عبد الكريم مركزاً لجذب الخارجين علينا ، بالاضافة إلى كل العناصر المغربية ، وعلى الأخص شبان المغرب ، لأن احداث الشرق الأخيرة وسعت نظرتهم وزادت من حدة استلهامهم لمشاعر الكره للأجانب» .

ليوتي يطالب بهجوم فرنسي ـ اسباني ـ بريطاني للقضاء على ثورة الخطابي

وكان الماريشال ليوتي يخشى من بريطانيا التي تزاحم فرنسا في كل المجالات الاستعمارية ، بالاضافة إلى الولايات المتحدة . خصوصاً وان وولتر هاريس تمكن من الحصول على امتيازات لاستغلال المناجم المعدنية في المغرب .

ولما طلبت حكومة باريس من ليوتي أن يحدد مطالبه اقترح القيام بعمل عسكري ثلاثي مشترك تقوم به الاساطيل الحربية الفرنسية والاسبانية والبريطانية ضد الامير عبد الكريم . على أن يقتصر العمل العسكري في الميادين البرية على الفرنسيين والاسبان فقط . . حتّى لا تطالب بريطانيا بثمن جهودها فيما لو اشتركت في الحرب البرية . . ولكي يقلل من اعتماد المغرب والامير الخطابي بصورة خاصة على تأييد بريطانيا في المجال السياسي المحض .

على كلٍ فقد اسفرت المحادثات التي جرت فيما بعد عن اتفاقية بين فرنسا واسبانيا وقعت في عام ١٩٢٥ ، وتقضي بالقيام بعمل سياسي وعسكري مشترك ضد حرب الريف الخطابيه . تعهدتا بموجبها الا تعرضا إلا

في وقت واحد مقترحات صلح مع قبائل الريف وجبالا ، وألا تفاوضا هذه القبائل إلا بصورة مشتركة ، وألا تعقدا صلحاً منفرداً معها ، وأن تحققا لقبائل الريف وجبالا استقلالاً ذاتياً تحت سلطة رئيس تختاره . . على أن يكون هذا الاستقلال الذاتي خاضعاً لاتفاقيات الحماية الفرنسية ـ الاسبانية إلى آخر المعزوفة الاستعمارية المألوفة .

ورفض الأمير عبد الكريم استقبال المندوبين الفرنسي والاسباني ما لم تعترف حكوماتهما باستقلال الريف لأن الاتفاق الثنائي كان يتجاهل عبد الكريم ويمهد لابعاده .

وعندئذ ، تذرعت فرنسا برفض الأمير الخطابي وارسلت مندوباً كلفته باخطاره أن الفرنسيين سيحتلون بلاد «بني زروال» لأن هذه القبائل واقعة ضمن منطقة الحماية الفرنسية بالريف ، فأسرعت قبائل بني زروال إلى عبد الكريم وطلبت منه أن يضم اراضيها إلى منطقة الريف . فلجأت فرنسا إلى العمل الجبان الذي تقوم به عادة الدول الاستعمارية في مثل هذه الأحوال فأمرت طائراتها بقصف القوات الريفية بقنابلها الحارقة .

ثم امرت قواتها بالزحف على منطقة «ورغة» واحتلال بعض اجزائها لقطع خطوط تموين وامدادات عبد الكريم من مناطق المغرب الأوسط . فتصدى للحملة الفرنسية احد قادة الريف بعمل عسكري مماثل . . وهنا شرع الفرنسيون يثيرون في صحفهم حملة شعواء على الأمير عبد الكريم ليبرروا العمل العسكري الذي كانوا يعدون له مع الاسبان المنهزمين .

ليوتي يطلب المزيد من القوات الفرنسية

في ذلك الوقت كان عدد قوات الماريشال ليوتي في المغرب أي في خريف عام ١٩٢٤ ٦٥ ألف مجند بما في ذلك «جنود المستعمرات

الافريقية ، وجنود الفرقة الاجنبية» .

وفي ١١ ديسمبر ـ أي في نهاية العام المذكور طلب من حكومته إرسال امدادات على دفعتين الأولى في شباط «فبراير» والثانية في أواخر نيسان «ابريل» وذلك دليل على أن ليوتي لم يكن واثقاً من نجاح قواته الموجودة في المغرب في حرب يخوضها ضد قوات الأمير الخطابي التي حطمت من قبل كل الجيوش الاسبانية .

والشيء المضحك المبكي هنا هو أن القوات الافريقية المؤلفة من زنوج خاضعة بلادهم للاستعمار الفرنسي كانت من جملة القوات التي جاءت لتحارب الامير الخطابي في المغرب ، ومن المعلوم أن البلاد التي جاء منها اولئك الزنوج نالت استقلالها فيما بعد وان حكومات بعض تلك البلاد المنضمة إلى «منظمة الوحدة الافريقية» هي التي تتخذ القرارات لإجلاء القوات المغربية في عهد الاستقلال عن الصحراء المغربية .

أبطال الجبال يتوغلون في قلب الخطوط الفرنسية

وعلاوة على أن الأمير عبد الكريم كان يعتمد ـ في معركته على طبيعة الارض ، ذات المزايا الاستراتيجية الشبيهة بالمنطقة الريفية التي حارب فيها الاسبان ، وهي التي تنتشر فيها الاشواك والمنحدرات وتفتقر إلى الاشجار والمياه ، فقد اعتاد ابناء الريف أن يحاربوا في مناطق مماثلة لها في بعض الاحيان ، وفي مناطق اشد وعورة منها كما اعتاد جنود الريف أن يناموا في العراء ، وألا يحملوا من المتاع إلا أخفه كي لا تعاق تحركاتهم وتنقلاتهم في تلك الجبال الوعرة ، لذلك اقتصر جنود الحملة في لبسهم على العباءات وهي غطاؤهم في ليالي الصقيع وعلى بعض الطعام الجاف والاسلحة التي غنموها من الاسبان .

وكان عدد الجيش النظامي الذي يقوده الأمير الخطابي يتراوح بين ستة وعشرة آلاف مقاتل بينما بلغت قوة المجاهدين المرافقين للجيش نحو ستين ألف مجاهد .

وقد اعتمدت قوات الريف على المهندس البطل محمد عبد الكريم شقيق الامير الخطابي بارسال قوات من المغاوير «كوماندوس» وراء خطوط العدو .

وفي الوقت نفسه وجد الماريشال ليوتي امامه جيشاً من المشاة يعتبر نداً لأي جيش نظامي في العالم .

وهكذا . . بدأ رجال الريف هجومهم في ١٣ نيسان «ابريل» عام ١٩٢٥ . وقد ادى هذا الهجوم الريفي إلى رد فعل شديد في فرنسا وإلى توتر واحتقان في الصحافة الفرنسية المأجورة .

وتوغل جيش الأمير الخطابي في الخطوط الفرنسية ، فثارت القبائل المغربية ضد الحماية الفرنسية وازداد الموقف حرجاً بالنسبة للفرنسيين ما بين ٢٦ يونيه و٦ يوليو في قطاع «تازة» حين حاول جيش الأمير الخطابي الوصول إلى المناطق التي لم يكن الجيش الفرنسي قد احتلها بعد فأجلت القيادة الفرنسية المدنيين الفرنسيين والاوروبيين من تازا ، كما تمكنت القوات الريفية الزاحفة من قطع سكة الحديد في المنطقة الواقعة بين تازا وجرسيف .

وكان هذا الزحف المتواصل مدعاة للفخر والاشادة به في كل مكان ، فالقوات الفرنسية كانت تتراجع باستمرار وقد هزمت في معارك عديدة خلال تلك الاشهر الثلاثة من بدء الزحف .



محارب مغربي
على صهوة جواده

الجنرال بيتان يتوجه إلى المغرب

خشيت فرنسا من أن يتحِد رجال الريف مع الاطلس الاوسط . لذلك سارعت إلى تعيين الجنرال ناولان قائداً عاماً لقواتها في المغرب في ٢٦ يونيه ١٩٢٥ ، على أن يحتفظ الماريشال ليوتي بمنصب المقيم العام ثم عادت وارسلت الماريشال «بيتان» في ١٧ يوليو من العام نفسه إلى المغرب في مهمة خاصة . وبانتهاء مهمة «بيتان» اعلن الجنرال ناولان أنه يستعد للقيام بهجوم معاكس مستنداً إلى الامدادات العسكرية والحربية التي وصلته بالاضافة إلى تعاونه مع القوات الاسبانية .

في تلك الأثناء سقطت حكومة إدوار هريو وخلفتها حكومة إدوار بول

بانليفيه العالم الرياضي فاحتفظ لنفسه بوزارة الحرب . ثم اسرع بالذهاب إلى المغرب ليقيم بينه وبين المارشال ليوتي اتصالاً مباشراً . فلما عاد إلى باريس ، بدأت المؤامرات خلف الكواليس وكان بعضها مصوباً نحو ليوتي المقيم العام لاستبداله بقائد عام آخر ، وفي الوقت نفسه ادرك ليوتي أنه لا يستطيع أن يجمع في يديه قيادتين مرة واحدة ، أي مقيم عام في المغرب ، وقائد عام للقوات الفرنسية فاقترح على باريس ارسال جنرال يتولى تحت اشرافه القيادة الحربية مقترحاً اسم الجنرال ويغان فإذا تعذر ذلك فالجنرال غورو أو الجنرال غيوم إن أمكن ولكن حكومة باريس رفضت كل طلباته . وارسلت إليه المارشال بيتان وهو المفتش العام للجيوش الفرنسية ، وقد كلف بوضع الخطط العسكرية وتنظيمها مع ليوتي استعداداً للقضاء على بطل الريف .

ووصل بيتان في ١٧ تموز «يوليو» ١٩٢٥ فاجتمع مارشالا فرنسا الممتازان ليوتي وبيتان بالمرشال بريمودي ريفيرا الاسباني ليقرروا فيما بينهم تنظيم الحملة على ابطال الريف المغربي الاشاوس .

الشعب الفرنسي في مواجهة حكومته الاستعمارية

في اثناء هذه اللقاءات شن الحزب الشيوعي الفرنسي هجوماً عنيفاً على البرجوازية الاستعمارية ، وصرح بتأييده لكفاح الريف وقضيته كما راح مئات الأحرار الفرنسيين يثيرون الشعب الفرنسي ضد الحرب الاستعمارية في المغرب . . وبالمثل قامت جماعات من الفرنسيين المستوطنين في المغرب بحملة شعواء ضد جنرالات الاستعمار الفرنسي ـ القتلة ـ فقبض عليهم بوليس الجنرالات وطردهم من المغرب ، وقامت نساء فرنسا باعظم تظاهرة شهدتها فرنسا في ذلك الوقت ، وكنَّ يحملن لافتات كتب عليها : «لقد اخذتم رجالنا في الحرب العالمية الأولى ، وتريديون الآن قتل ما تبقى

لنا من ابناء في الحرب الاستعمارية .

وضربت كل من فرنسا واسبانيا حصاراً بحرياً على منطقة الريف لمنع وصول الامدادات والذخائر الحربية والمؤن والاطعمة للسكان والجيش على حد سواء .

وبالرغم من الثقة التي ابداها ليوتي لبيتان فان الأخير لم يقابله الثقة بمثلها ، فاعتبر مجيئه إلى المغرب سبباً للتحقيق بما يجري . . فراح يحقق مع ضباط ليوتي ، على أمل أن يكتشف مواطن الضعف في خطط منافسه ليوتي ، وشعر ضباط ليوتي بوجود مؤامرة ضد قائدهم . ولكن بيتان عاد إلى باريس ، وهناك تقرر مصير ليوتي . فأرسل إليه بانليفيه في ١٨ آب ـ اغسطس ـ ١٩٢٥ أمراً جاء فيه: «إن المارشال بيتان سيتولى القيادة العامة للجيوش الحربية في المغرب» وبذلك انتزع من ليوتي سلطاته ومسؤولياته بوصفه القائد العام .

وشعر ليوتي بأن كرامته قد اهينت ، ولكنه طوى جوانحه على آلامه وتلقى الأوامر بالطاعة والقبول .

الثمن الباهض . .

ان الانتصار على المحارب الريفي يقتضي عمل ثلاثة مارشالات واربعين جنرالاً ونصف مليون من الجنود الفرنسيين والاسبان وأَنْ يَشْتَرِك في المعارك الاسطولان الفرنسي والاسباني والطائرات الأمريكية والسفن الحربية البريطانية . وهذا اكليل من الغار يتوّج جبين المقاومة المغربية الباسلة أبد الدَّهر .

هجوم الجنرالات

وبدأ الجيش الفرنسي هجومه في وادي ورغة ، فضرب بمدفعيته القطاع بكامله في ١٠ سبتمبر ١٩٢٥ ثم شن هجومه في اليوم التالي ، وراح الجيش الفرنسي يتقدم من موقع إلى آخر ليتمكن من حصار وتطهير كل مرتفع قبل وصوله إلى المرتفع الآخر ، واستمرت العمليات على هذا النحو حتى ٢٧ تشرين الأول «اكتوبر» وبذلك تمكن الجيش من احتلال كل المواقع التي احتلها سابقاً جيش الريف عندما بدأ هجومه في الربيع . ولكنَّ جنرالات فرنسا عجزوا عن الوصول إلى محاصرة «بني ورياغل» قبيلة الامير الخطابي فقضوا الشتاء في تلك الاماكن الوعرة ولما استأنف الجيش الفرنسي القتال نجح في قطاع تازة وفي هذا القطاع بوشر بتنفيذ خطة الجنرال بيتان الهادفة إلى تحقيق التعاون بين الفرنسيين والاسبان في القتال .

ونزلت حملة اسبانيا على ساحل الحسيمة في ١٦ أيلول «سبتمبر» وفي ٢ تشرين الأول «اكتوبر» ١٩٢٥ راحت تتوغل في سهل أجدير ، وفي هذا الوقت كان مجاهدو الريف يهددون مدينة تطوان وفي هذا الفصل هطلت الامطار وسقطت الثلوج فتوقفت الاعمال العسكرية . وكانت خيّالة الفرنسيين المتقدمين من تازة قد وصلت في ٦ اكتوبر إلى «سيدي الحسن» واتصلت بخيّالة الاسبان المتقدمين من قطاع مليلة وهكذا التقى الزحف من الجانبين .

ولكن ما لبثت تلك العمليات أن توقفت عندما ساءت الاحوال الجوية ، وترأس «بيتان» مجلساً عسكرياً في فاس في أول نوفمبر ، قبل أن يعود إلى فرنسا .

أما الأمير عبد الكريم فقد نقل عاصمته ومقر قيادته إلى الداخل وإلى الجنوب الغربي من «تارجست» .

ويمكن القول أن هجوم «بيتان» قد فشل ولم يحقق اهدافه وذلك لأن عبد الكريم بدأ هجومه في الربيع ونجح في تحطيم خط الدفاع الفرنسي عند ورغه . ووصل إلى أبواب تازا ولكنه فشل في دخول مدينة فاس .

ولو أن سكان فاس وما حولها ثاروا ضد الفرنسيين لتغير الموقف لصالح عبد الكريم ولكنهم اكتفوا بقراءة انباء الحرب والاستماع إليها .

كذلك فشل الهجوم الفرنسي ـ الاسباني الذي شنه الفريقان معاً في الخريف للقضاء على جيش الريف ، كما فشل الهجوم في شطر اقليم الريف إلى شطرين . كذلك فشلوا في اغراء القبائل للتخلي عن مساندة الامير عبد الكريم في حربه ضدهم .

الأمير عبد الكريم الخطابي يحرر المزيد من المواقع

وفي هذه المعركة احتل الامير عبد الكريم تسع مواقع فرنسية وتمكن من نسف موقعين ، واجبر الاعداء على اخلاء ٣٢ موقعاً . كل ذلك في هجوم الربيع . وبذلك يكون الفرنسيون قد خسروا ٤٣ موقعاً من أصل ٦٦ موقعاً ، ولكن الفرنسيين عادوا واستردوا ٢١ موقعاً منها فيما بعد .

وكان البطل عبد الكريم قد بدأ الحرب بـ ٣٥ الف مجاهد منهم ٢٥ الف من الريف و١٠ آلاف من قبيلة الجبالا وانضمت إليه بعد ذلك قبائل عديدة حتى بلغ مجموع قواته حوالي مئة الف وتبقى من هذه القوات ستون ألفاً في نهاية العمليات .

تعزيزات فرنسية إضافية

أما الفرنسيون فقد تلقوا ١١ كتيبة اوروبية وقوات من المدفعية والوحدات المساعدة ، علاوة على قوات المجندين من الجزائريين

والتونسيين وحتى من المغاربة أنفسهم المتعاونين مع الاحتلال الفرنسي . هذا بالاضافة إلى القوات الافريقية وقوة الطيران الاميركية .

وقد اعلنت الحكومة الفرنسية أمام لجنة الشؤون المالية في مجلس النواب في باريس يوم ٢١ اكتوبر ١٩٢٥ أن قواتها في المغرب الاقصى بلغت ١٥٨ ألف جندي منهم ١٢ الف فرنسي و ١٢,٨٠٠ من اجناس اوروبية ، و ١٣٣ الف من مجندي المغرب وهذا يعني أن ابناء المغرب الذين خدموا في صفوف القوات الفرنسية المحاربة ضد جيش الأمير عبد الكريم الخطابي كانت تشكل ٨٥ في المئة من مجموع القوات الفرنسية المحاربة أي أنهم كانوا ضعف قوات عبد الكريم عند نهاية الحملة ثم زادت القوات الفرنسية عندما وصلتها امدادات من فرنسا قوامها ٢١ كتيبة جديدة لمحاربة البطل عبد الكريم .

وقد بلغت خسائر الفرنسيين حتى نهاية شهر يوليو ١٩٢٥ ١٢٨٥ قتيلاً و٥٣٠٦ جرحى ثم زادت بعد الهجوم المضاد من أول اغسطس حتى ١٥ اكتوبر بعدد جديد بلغ ٨٩١ قتيلاً و٢٩٩١ جريحاً وكانت نسبة خسائر الفرنسيين في هذه المعارك أقل كثيراً من خسائر المجندين المغاربة في الجيش الفرنسي ، مما يدل على أن فرنسا كانت قد تركت العبء الأكبر في القتال على كاهل المجندين المغاربة ضد قوات عبد الكريم . . أي أنها تركت مجندين مُغَرَّر بهم من المغاربة يحاربون قوات عبد الكريم الخطابي - أي القوات المجاهدة . .

أوليس ذلك هو الخيانة التي ما بعدها خيانة في تاريخ الشعوب أن سكان المدن المغربية لم يثوروا لمؤازرة جيش عبد الكريم كذلك حال سكان الاطلس الاوسط وكان عبد الكريم يُعوِّل كثيراً عليهم فيما لو ثاروا ضد الفرنسيين لمساعدته على تحطيم جيش فرنسا بكامله ولكنهم خذلوه لانهم

آثروا الحماية على الاستقلال والتحرير ، ولن تقوم لهم بعد ذلك قائمة إلا بالمقاومة التي قادها الملك محمد الخامس فيما بعد .

انتهت هذه السنة باستقالة الماريشال ليوتي من منصبه كمقيم عام في المغرب الاقصى ، فغادر المغرب إلى غير رجعة مقلعاً من الرباط يوم ١٠ اكتوبر وكان قد قدم استقالته في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٥ .

إقالة الماريشال ليوتي

كانت استقالة الماريشال ليوتي شخصية وغير شخصية . من جهته كان مكروهاً من قبل الحكومات الفرنسية المتعاقبة ، بسبب اعترافاته بحق المغرب بالاستقلال واشادته بتاريخه وتاريخ ملوكه وإصراره على أن يظل سلطان المغرب وخلفاؤه على رأس الدولة المغربية تحت الحماية الفرنسية . .

ولكنه عجز عن كسب رضا سلاطين المغرب ، كما لم يصمد أمام هجوم الفرنسيين الاشتراكيين الذين كانوا يطالبون بتعيين مقيم عام من المدنيين لأن هذا المنصب السياسي يتطلب رجلاً سياسياً وليس عسكرياً .

الجنرال بيتان يخلف ليوتي

وبابتعاد ليوتي عن المغرب لم يبق للسياسة مجال كبير في إدارة المغرب ما دامت فرنسا قد صممت على مواصلة عملياتها الحربية ضد الامير عبد الكريم . بقيادة الجنرال بيتان هذا الذي استسلم للقوات النازية فيما بعد ووصم بالخيانة العظمى .

اشاعة روح الهزيمة بين القبائل

وبتغير الجنرالات الفرنسيين من جانب والاسبانيين من الجانب الاخر

ظلت الحرب مستمرة . . ولكن في نطاق الدسائس والمؤامرات ، فراحت فرنسا تغري القبائل الملتفة حول عبد الكريم بتركه وعقد صلح منفرد معها ، فلبت بعض القبائل دعوة الاستسلام مثل قبائل ابناء مصباح من صنهاجة ، كما سلمت قبائل «الجبالا» والقسم الجنوبي من سكان ورياغل بعد أن احتله الفرنسيون ، وقبيلة مطيوه ، وتفاهمت قبائل «لانجرة» على الصلح مع اسبانيا وهكذا . .

ثم بدأ الفرنسيون يتفاوضون مع عبد الكريم بواسطة الكابتن غوردون كاننغ ـ الانجليزي ـ الذي كان يعطف على كفاح ابناء الريف من اجل أن ينالوا استقلالهم وبعد أن وضعت وحددت شروط الصلح ـ سافر كاننغ إلى فرنسا لمقابلة أرْستيد بريان الحائز على جائزة نوبل «التهريجية للسلام» وكان قد أصبح رئيساً للحكومة الفرنسية ، فرفض مقابلته فأثار النواب المعارضون هذه المشكلة في مجلس النواب ، وطلب النائب كاشان تفسيراً لموقف الحكومة ، فأصر بريان على موقفه وموقف حكومته ، وطالب بضرورة المحافظة على الامبراطورية واعترف ارستيدبريان «أن فرنسا لا تخسر رجالاً في هذه الحرب ، لأن مجندي المغرب والجزائر وتونس هم الذين يحاربون قوات عبد الكريم .

وهنا صاح النواب المعارضون قائلين: أنت داعية حرب وجائزة نوبل للسلام التي اعطيت لك كانت تلفيقة برجوازية أوروبية .

استسلام الخطابي

واخيراً استسلم القائد البطل عبد الكريم الخطابي في ٢٦ مايو سنة ١٩٢٦ ، ففي الساعة الخامسة والربع من صبيحة اليوم التالي من اطلاق سراح الاسرى الاوروبيين الموجودين لديه ، ركب الامير فرسه ودخل وسط

خطوط الفرنسيين معلناً بأنه جاء بنفسه ليسلم للعدو سيفه واستقبلته القوات الفرنسية استقبالها لقائد أعلى ، وحيته التحية العسكرية . . وهكذا اغمد سيف الحق واستسلم البطل الكبير فنقلته القوات الفرنسية إلى جزيرة ريونيون وبعد احدى وعشرين سنة واستجابة لطلب الأمير قررت الحكومة الفرنسية نقله من المنفى إلى باريس .

وفيما كانت السفينة التي تقله تشق طريقها من السويس إلى بور سعيد ، اكتشف طاقم السفينة أن الأمير وأسرته واتباعه قد اختفوا عن ظهر السفينة . ثم صدر بلاغ في القاهرة بعد ذلك يقول : «بأن الأمير عبد الكريم قد طلب حق اللجوء كلاجىء سياسي في مصر وأن حكومة القاهرة قد منحته هذا الحق» .

ومنذ أن ظهر الأمير عبد الكريم سطعت أنواره وتألقت حتى شملت كل المغرب والبلاد العربية فاختفت خفافيش الليل التي كانت تحوّم لتتصيد وظائف الدولة وهي شبيهة بالفتات التي يلقيها المستعمرون من موائد الاحتلال للمتكسبين والمرتزقة .

آراء وأحاديث في ثورة الخطابي

بعد استسلام الأمير عبد الكريم ظهرت تلك الخفافيش مرة أخرى لتقدم خدماتها وولاءها للمستعمرين على حساب ثورة الريف . واخذت تتطاول بالدس والتصريحات الظالمة ضد ثورة الريف وقائدها .

فمنهم من راح يقول ـ بعد أن حشا المستعمرون المقولات في أفواههم أن عبد الكريم أنشأ جمهورية ضد النظام السلطاني ليقضي على ذلك النظام فانبرى إليهم المخلصون للمغرب وألقموهم أجوبة مسكتة مفحمة قائلين : «ان الأمير عبد الكريم انطلق من فكرة التحرير لانقاذ الريف المغربي من

مخالب المستعمرين الاسبان ، وعندما اعلن عن جمهوريته ، فإنه أراد أن يقيم دولة كي تعترف بها دول العالم ، ولكي تقدم لها المساعدات المالية والعسكرية ، لمواصلة النضال حتى إذا ما انتهى من هزيمة الاعداء في الريف ، استأنف حملته بجيوش أكثر كثافة وباسلحة أكثر جدة لتحرير سائر المغرب ورفع راية السلطان على جميع بلاد المغرب المحررة .

وأكثر من ذلك فإن الأمير عبد الكريم عندما كان في أوج عظمته وقوته وجه إلى السلطان يوسف رسالة جاء فيها : «ان ثوار الريف هم رعاياه المخلصون» ثم اضاف قائلاً :

«ومن جديد نمد أيدينا إلى جلالتكم متأكدين أنه في هذه الشدة المعنوية التي نجد أنفسنا فيها ، لن تكون حركتنا عبثاً وأن جلالتكم ستنقذون ابناءكم» .

وقد أكد ذلك المرحوم الاستاذ علال الفاسي فقال أن عبد الكريم ورجال ثورته «لم يريدوا أن يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه الزعيم «الهبة» ووالده الشيخ ماء العينين حينما اعلن كل منهما نفسه سلطاناً بعد أن كانا مخلصين للعرش ومدافعين عنه» .

وثمة دليل آخر أكده هذه المرة الملك محمد الخامس الذي تولى العرش بعد وفاة والده السلطان يوسف ، وذلك عندما زار الملك محمد الخامس القاهرة والتقى بالامير عبد الكريم فثبت له لقب الامارة إذ راح يخاطبه بلقب «الأمير» .

ثم أن ثورة الريف لم تقهر إلا بجيوش دولتين كانتا من أعظم دول ذلك العصر . ولم يكن عام ١٩٢٦ الذي انتهت فيه ثورة الأمير عبد الكريم النهاية الأخيرة لأن الثورات الوطنية ظلت متتابعة في جبال الاطلس الكبير والاطلس

المتوسط والاطلس الصغير حتى عام ١٩٣٤ . أي في الوقت الذي بدأ فيه الجيل الجديد في المغرب يتقلد اعباء الكفاح المسلح ويتسلم القيادة بعد ثورات قادة المغرب العظام .

وظاهرة اخرى خدعت المستعمرين في اصالة الشعب المغربي ، وذلك عندما شاهد المستعمرون المدن المغربية الكبرى كالعواصم والحواضر لا تحرك ساكناً خلال ثورات الريف والجنوب والغرب والشمال . فظن المستعمرون أن سكان المدن يريدن السلام والانسجام مع المستعمرين والعيش بسلام . . والحقيقة أن سكان المدن خُدعوا في أول الأمر ثم ما لبثوا أن استيقظوا على الحقيقة الماثلة . .

هذه الحقيقة تقول أن سكان المدن ذعروا في أول الأمر عندما شاهدوا باعينهم الات الحرب الضخمة من مدافع الميدان الثقيلة والطائرات والسيارات ناقلات الاسلحة والجنود تمر بالشوارع في طريقها إلى الثوار المغاربة . . ولكن بعد حين دهش اولئك السكان عندما علموا بأن الثوار الذين كانوا يحاربون باسلحتهم الخفيفة قد دحروا الات الحرب الثقيلة والجيوش التي زاد تعدادها على ثلث مليون نسمة قد هزمت في عدد كبير من المعارك لدرجة أن الثوار استولوا على معظم اسلحة الاسبان والفرنسيين في إبان انتصاراتهم . .

وليس بالأمر الهين أن ترسل فرنسا اعظم مرشالاتها «بيتان» ومعه أربعون جنرالاً لمحاربة ثوار الريف . فثوار الريف إذن أعظم من مارشالات فرنسا وجنرالاتها لأنهم دحروهم في مواقع كثيرة قبل أن يلجأ الفرنسيون إلى وسائل الخداع باستمالة القبائل الثائرة تارة بالتهديد والوعيد واخرى بالمسايرة والملاينة ودفع الرشوات لذوي النفوس الضعيفة كي لا ينضموا إلى ثورة الأمير عبد الكريم . .

كتاب أميركيون يصفون حرب الريف

ومن احداث تلك الحرب الطريفة ، أن قدماء الطيارين الأمريكيين من محاربي الحرب العالمية الأولى . سمح لهم أن يقاتلوا في صفوف الفرنسيين ، ولننقل وصف هذه الحرب الغريبة عن مؤلف امريكي هو بول بوتان في كتابه الدراما المغربية ، حيث قال: «لما كانت قوانين فرنسا لا تسمح لاجنبي أن ينضم إلى صفوف القوات المحاربة الفرنسية أياً كان نوعها ، باستثناء الفرقة الأجنبية ، فإن الصعوبة حُلّت بضم المتطوعين الأمريكيين في وحدة اطلق عليها اسم «حرس الجو الشريفي» واستطرد المؤلف قائلاً: اما أن يرى الشبان الأمريكيون المتعطشون إلى المغامرة والمجازفة أن من المناسب أن يعملوا في خدمة حاكم افريقي ، فأمر يدعو إلى الكثير من الغرابة ، وأما القاؤهم القنابل واطلاق الرصاص من رشاشاتهم على قرى خالية من وسائل الدفاع ـ قرى شعب لم يكن بينه وبين الشعب الأمريكي خصومة ـ شعب يقاتل في سبيل استقلاله فعمل لا يمكن أن يفهمه أولئك الذين كانوا أول من هتفوا لهم بسبب ما قاموا به في الحرب الكبرى ، لقد ادعوا أنهم كانوا يقاتلون عن فرنسا ، ولكنهم كانوا يحاربون من أجل بقاء الريف تحت حكم اسبانيا ، البلاد التي قاتلها الجيل السابق من الأمريكيين وطردها من العالم الجديد لأن طغيانها وقوتها زكمت أنوف الناس الطيبين برائحتها الكريهة»[1] .

لقد برهن رجال الريف على أنهم جزء من الشعب المغربي الذي كان وما يزال يكافح المستعمرين لطردهم من بلاده ، وقدموا امثلة حية على شجاعتهم وبطولاتهم لم يستطع احد من المؤرخين الاوروبيين أن ينكرها أو

---

(١) انظر بول بوتان في كتابه «الدراما المغربية ص١٣٩» .

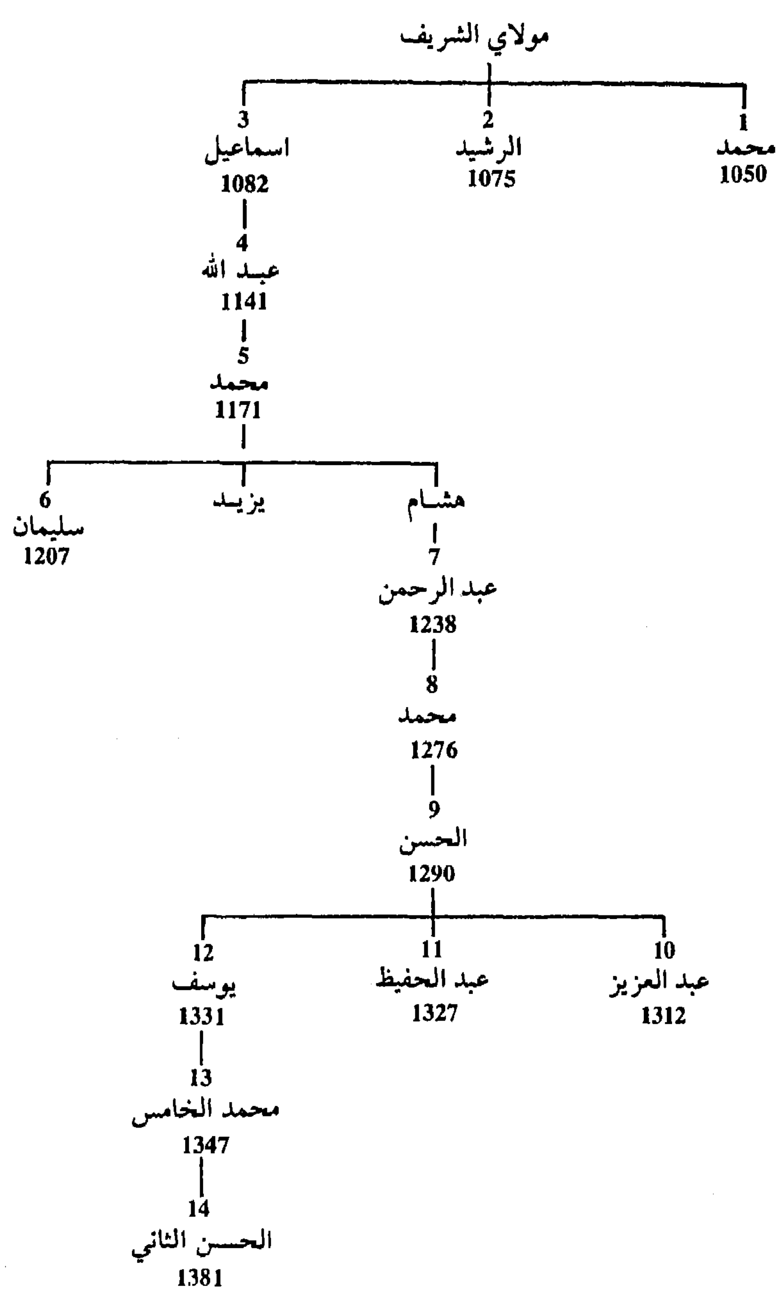
يُمَوِّهَها بالكذب والتضليل ، فجاءت الشهادات التاريخية المدونة مصداقاً لكفاح شعب الريف بالرغم من أن فرنسا واسبانيا أَحاطتاه بجدار كثيف من الحديد والنار ومارستا عليه ابشع أنواع الحروب القذرة التي لم يسمع بمثلها أحد

وإذا كانت فرنسا بمارشالاتها الثلاثة وجنرالاتها الاربعين قد حققت فوزاً مؤقتاً على كفاح البطل عبد الكريم الخطابي فإن الناس الشرفاء في اوروبا نفسها اعتبروا ذلك النصر بائساً وحقيراً ورخيصاً في ميزان الشجاعة والبطولة المغربية .

قال كارلتون كون الحجة الأميركي في الشؤون الريفية المغربية : «لولا أن خصوم الامير عبد الكريم استعملوا الطائرات والدبابات لكان باستطاعته أن يقاتل الفرنسيين مدة لا نهاية لها» .

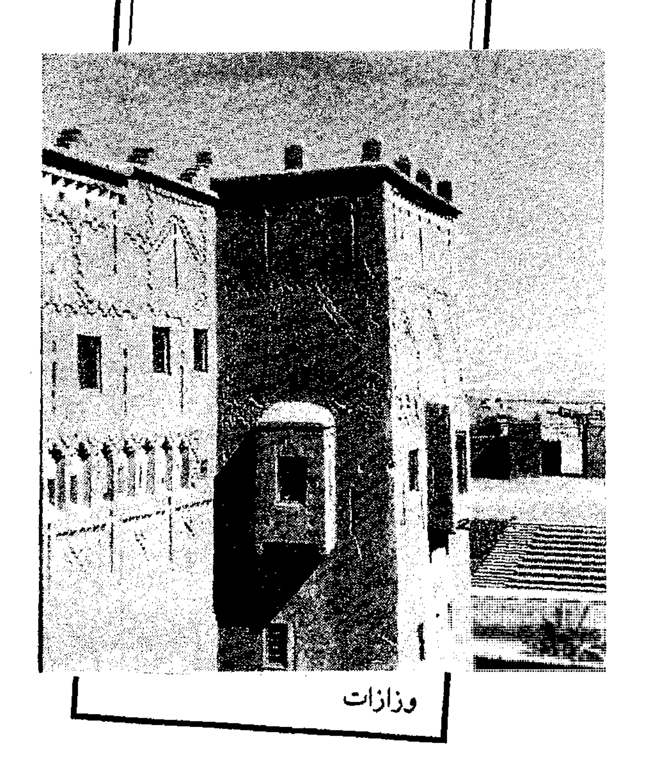
وفي اللحظات الأخيرة من مأساة الريف تخلى بعض انصار عبد الكريم عن مساندته طمعاً بالذهب الفرنسي والاسباني وتخلت بريطانيا عن مساعدتها له عندما كلفها أن تكون حكماً بينه وبين عدويه اللدودين ولكنها رفضت طلبه ، فبرهنت برفضها ذاك على انها دولة استعمارية غادرة لا قيمة لوعودها ولا لانسانيتها المزيفة التي تروج لها في المحافل الدولية ، وقد كان غدر الانجليز اكثر ايلاماً للامير عبد الكريم من مأساة هزيمته .

وبانتهاء حرب الريف انتهى معها وجود المارشال ليوتي في المغرب ، فعينت فرنسا مكانه الجنرال ثيودور ستيغ . . وكان من قبل حاكماً عاماً على الجزائر .

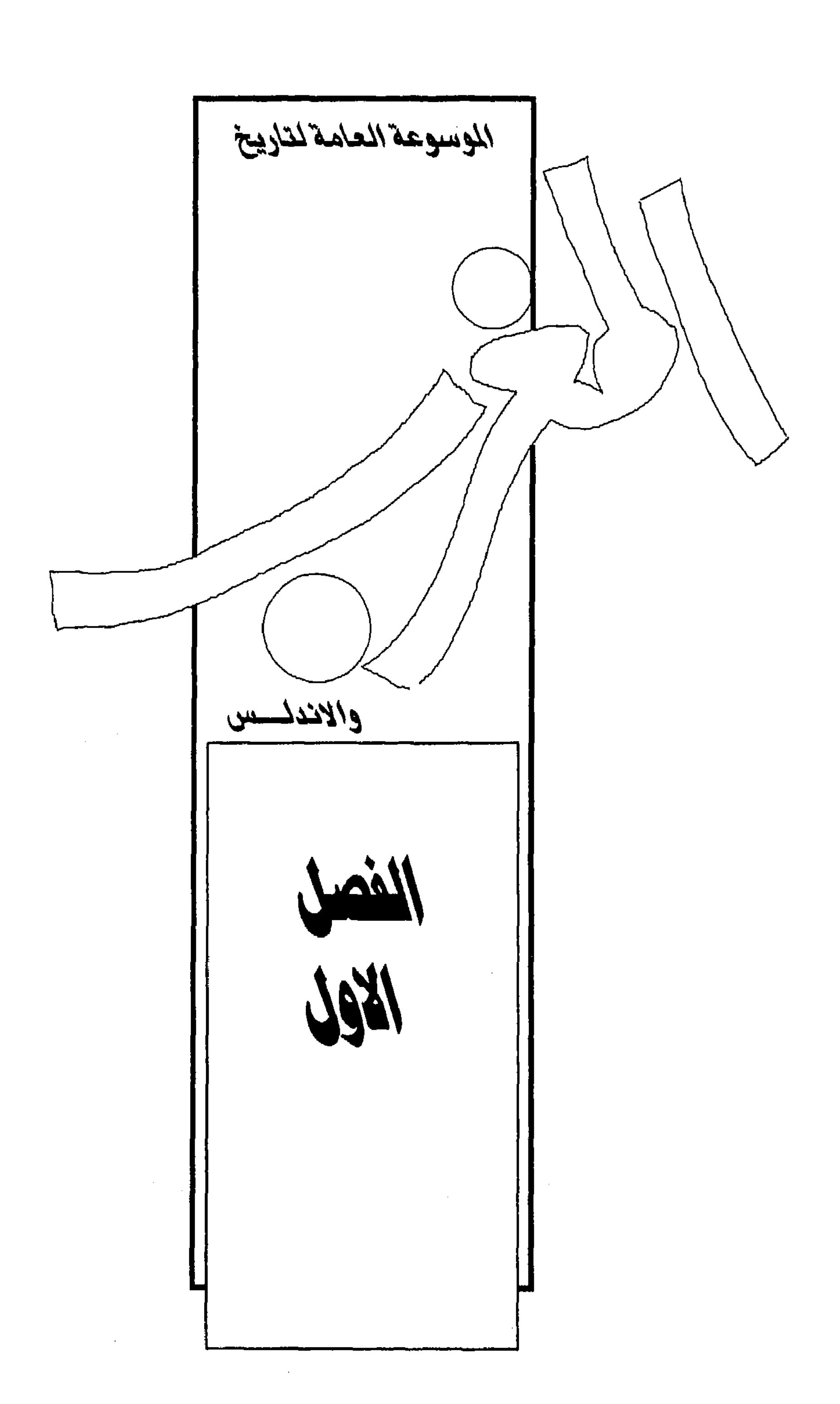


جدول ملوك الدولة العلوية الشريفة

الباب الرابع



وزازات



الفصل الاول

الاستعمار الاسباني في المغرب

كانت اسبانيا اسبق من فرنسا باحتلال أراضي المغرب لأن الفتح العربي بقيادة طارق بن زياد المغربي انطلق من اراضي المغرب فأجهز على غزوة القوط الغربيين الذين استطاعوا بدورهم أن يحتلوا شبه جزيرة ايبيريه والقضاء على الاستعمار الروماني فحلوا محلهم أي استعمار قوطي جديد حل محل الاستعمار الروماني الذي كان قد بدأ يحتل ايبيريه .

وبعد سقوط الاندلس بايدي احفاد القوط فيما بعد الأسبان الحاليون شرع هؤلاء يشنون حملات انتقامية على المغرب .

ففي اواخر القرن الخامس بعد الميلاد استطاع الاسبانيون ـ في عهد انحلال الدولة المغربية الكبرى ـ أن يفرضوا سيطرتهم على بعض مدن المغرب الواقعة على ساحله الشمالي ، مثل مليلة وسبته والحسيمه وبنون والجزر الجعفرية ، وهي واقعة في منطقة لا تزيد مساحتها على مئة ميل مربع وعدد سكانها حوالي ٢٠٠ الف نسمة ، فمليله كان يديرها المستعمرون الاسبان من «مالقة» المدينة الكنعانية القديمة ، كما كانوا يديرون سبته من

مدينة قادِس الكنعانية أيضاً ، وبنون من فيلا سان خورخي .

أما المنطقة المغربية بكاملها التي يحتلها الاسبان في الشمال فتبلغ مساحتها ٨٠٠٠ ميل مربع اكثرها يواجه البحر الابيض المتوسط ومنها تطوان وشاون اما العرائش فانها واقعة على شاطىء المحيط الاطلسي .

وتقع مدينة افني ومقاطعتها على شاطىء المحيط الأطلسي جنوباً ولا تزيد مساحتها عن الف ميل مربع ويقل عدد سكانها عن ٣٠ الف نسمة ، وتدعي اسبانيا أنها احتلتها في القرن الخامس عشر رغم أن المغرب انتزعها من أيدي الاسبان عدة مرات قبل أن يحررها نهائياً . وفي اثناء احتلالها ، اعترفت المعاهدة المغربية الاسبانية المبرمة في عهد السلاطين الضعفاء والموقعة عام ١٨٦٠ باحتلال اسبانيا لها . ولكن اسبانيا لم تنجح بإعادة احتلال افنى إلا في عام ١٩٣٤ .

وكان من أهم الاسباب التي جعلت اسبانيا تعطي اهتماماً زائداً لاحتلال شواطىء المغرب ، خوفها من قيام دولة مغربية قوية تحفزها امجاد المغرب التاريخية القديمة على استرداد الاندلس بعد سقوطها في عام ١٤٩٢ ، وثمة سبب آخر لهذا الاغتصاب الاسباني للاراضي المغربية هو فقدان اسبانيا لمستعمراتها القديمة في العالم الامريكي الجديد .

ومع أن اسبانيا كانت في مطلع القرن العشرين أضعف دولة في أوروبا إلا أنها كانت ويا للأسف! اقوى من دولة سلاطين المغرب الضعفاء المتخاذلين ، ولكن الكنيسة والجيش في اسبانيا كانا ينطويان على حقد اسود متغلغل في كيانهما ، فلم تنسى الكنيسة الاسبانية وصية الملكة ايزبيلا الكاثوليكية لقومها أن يعملوا بحماس لنشر المسيحية بين سكان المغرب .

أما الجيش الاسباني العائد من هزيمته في كوبا والفلبين سنة ١٨٩٩

فقد أراد أن يضمد جراحه بأثواب المغاربة ، ليجدد أمجاده البائدة التي ابتلعتها رياح المحيطات وعواصف الخلجان .

وفي عام ١٩١٢ سقط شمال المغرب غنيمة في أيدي القوط الاسبان ، وكانت قبل ذلك بسنة واحدة قد احتلت مدينة العرائش ثم مدينة القصر الكبير ثم احتلت تطوان عام ١٩١٣ ، وقد رافق احتلال هذه المدن عمليات سلب ونهب واغتصاب للاعراض وقتل وترويع يفوق الوصف .

وتشاء الأقدار أن يقطف الريسوني ثمار الثورة ويجعل نفسه زعيماً لقبيلة جباله القوية وأن يقود ثورتها قبل ظهور الأمير عبد الكريم الخطابي ، وأن يوقع بالاسبان خسائر مماثلة يوم زحف ابناء الريف الأَبطال على مدينة شاون وحرروها من فلول الجيش الاسباني وأَوقعوا به هزيمة منكرة . ولما قاد الأمير عبد الكريم حرب الريف بالفي جندي من المغاربة الأحرار تمكن من هزيمة جيش تعداده ٦٣٠٠٠ جندي اسباني ، ولما حاقت الهزائم بالاسبان تمكن الأمير عبد الكريم من الاستيلاء على جميع عتادهم الحربي بعد أن هزم الجيش الاسباني بكامله الذي فرَّ تاركاً على ارض الميدان كل معداته العسكرية بالاضافة إلى اقواته ومياه الشرب أيضاً .

وفي سنة ١٩٢٣ نشر وزير المالية الاسباني فيلانوفا تقريراً عن خسائر اسبانيا في حرب الريف تبين انها اكثر من ٤٣ مليون جنيه استرليني وقد وصف المغرب انذاك بأنه «مقبرة الجنود الاسبان والبئر التي ابتلعت ثروته» .

وفي ذلك العام بالذات اصبح بريمودي ريفيرا دكتاتور أسبانيا وعندما انتصر الفرنسيون على عبد الكريم قال دي ريفيرا متبجحاً : «يحق لنا أن نفتخر بأننا من عنصر متفوق وبأننا ننتمي إلى شعب قوي» .

ومع أن السلطان يوسف والد المغفور له الملك محمد الخامس ، قد أرغم على نشر ظهير في ٤ أيار سنة ١٩١٣ وافق فيه على المعاهدة الفرنسية الاسبانية التي وقعت عام ١٩١٢ ، فإن المغاربة لم يقروا تلك المعاهدة ولم يعترفوا بها . وكان المغاربة يقولون: ما دام المغرب نفسه لم يوقع معاهدة مع اسبانيا فان الاسبان في المغرب انما كانوا يتمتعون بحقوق المستأجرين الثانويين التي اخذوها من الفرنسيين . والفرنسيون بدورهم لا يعدون كونهم مستأجرين في الاراضي المغربية لذلك كان المغاربة يطلبون من الاسبان أن يتنازلوا عن ادعاءاتهم تلقائياً عندما تتخلى فرنسا عن حمايتها للمغرب ، لأن معاهدة الاستئجار الأساسية قد اصبحت لاغية .

وكان السواح في طنجة يقولون: «في اليوم الذي يغادر فيه آخر فرنسي المغرب ، يكون أخر اسباني قد غادر البلاد في اليوم السابق له» .

وكان المندوب السامي الاسباني يقيم في تطوان محاطاً بالحرس المغربي لابسي الاقبية البيضاء ، وخصورهم متمنطقة بمناطق خضراء ، وسراويلهم البيضاء فضفاضة ، وأحذيتهم ذات مهاميز ، وعمائمهم الصغيرة انيقة وقفازاتهم بيضاء وكانوا يشبهون في ذلك فرسان القوقاز في روسيا بملابسهم الشتوية البيضاء ، هذا المظهر الملفت للأنظار لم يحاول الفرنسيون تقليده في الرباط ، حتى الحرس الملكي لم يكن اصلاً من المغاربة ولا كانوا يرتدون مثل هذه الملابس المزخرفة .

وكان خليفة السلطان في تطوان يتمتع بمثل هذه المظاهر ، وكان السلطان يعين خليفته في تطوان ، وقد اختارت الحكومة الاسبانية ابن عم السلطان المولى المهدي ثم خلفه ابنه الحسن المهدي وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكان قصره اجمل من قصر السلطان في المغرب .

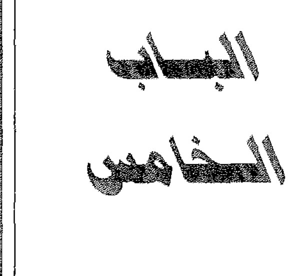
ومما يجب أن يذكر هو أن المغاربة الذين احتلوا الاندلس لم يقتصر احتلالهم لها على مجرد بسط النفوذ بل نفحوها حضارة كان من شأنها أنها كسفت كل حضارة اخرى في اوروبا قاطبة .

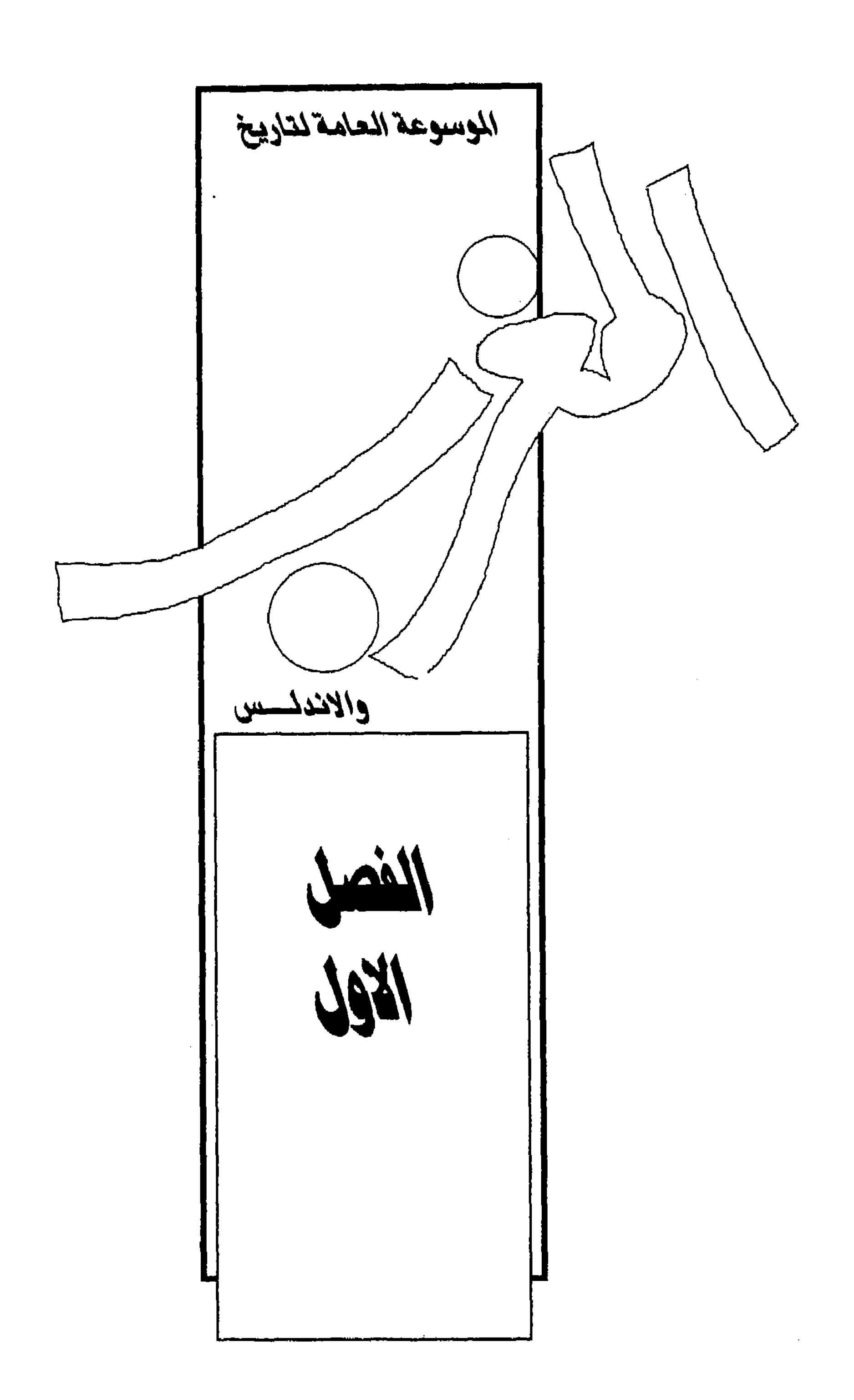
ومن المعروف أن الجنرال فرانكو قاد انقلاباً عسكرياً في اسبانيا بواسطة الجنود المغاربة ، وكانت بطولاتهم السبب الأول في تقلده زمام الحكم وقد أقام الجنرال فرانكو علاقات ودية مع العالم الاسلامي ، والجامعة العربية منذ عام ١٩٥٢ ، وقد كان لذلك اسباب ودوافع إذ كانت الولايات المتحدة منذ صيف عام ١٩٥١ ، وهي تضغط على حكومة فرانكو لاعطائها قواعد لاستغلال المرافىء المغربية والاراضي المغربية المحتلة لتقيم عليها قواعدها الجوية والبحرية ، ولذا اختار فرانكو ربيع عام ١٩٥٢ ـ وهو الموعد المعين لاجراء المفاوضات الاسبانية ـ الامريكية ـ لارسال وزير خارجيته ارتاخو على رأس بعثة كبيرة إلى بلدان الشرق الاوسط تهرباً من المفاوضات مع الولايات المتحدة .

وقد دشن السنيور ارتاخو اثناء رحلته إلى الشرق معهداً ثقافياً في عمان ـ الاردن . واتفاقاً للصداقة الاسبانية السورية في دمشق وقدم المنح الدراسية للاجئين الفلسطينيين في الخليل ، وكانت اسبانيا منذ ذلك التاريخ تستورد القطن من مصر والبترول من السعودية لقاء مصنوعات من كتالونيه .



الريسوني


الباب
الخامس



الفصل
الاول

الطرق الصوفية في المغرب

نشأت الطريقة الصوفية في المغرب في اسرة الوزاني ، التي عاشت في وزان الواقعة في شمالي المغرب ، وهي اسرة عريقة النسب ظهر فيها عدد كبير من العلماء منهم مولاي عبد السلام بن مشيش احد كبار العلماء المجاهدين ـ الذي يعتبر مؤسس الطائفة الصوفية التي انتشرت في المغرب وكان لها اثر كبير في عقيدته الدينية ، وظلت هذه الطريقة يتوارثها كبار الابناء المنحدرين من عبد السلام بن مشيش .

وقد تصدى السلطان اسماعيل لرجال هذه الطريقة في زمانه فاستدعى السيد التهامي شيخ الطريقة في عصره ، ووجه إليه نقداً لاذعاً بسبب ما اسماه «بالعقيدة الكافرة» وكانت قد جرت العادة أن يعهد إلى اثنين من كبار موظفي البلاط لامتحان الشيخ العقائدي ، ولما استدعى الشيخ التهامي للامتحان غضب غضباً شديداً حتى قيل «بأنه انتفخ ـ وهدد بأنه سيملأ الغرفة كلها بجسده المنتفخ ، فخشي الموظفون وارتاعوا من تهديده ، وظهر الارتياع جلياً على الموظفين الكبيرين اللذين كلفا بامتحانه ، فرفعا الامر إلى السلطان اسماعيل طالبين منه أن يحترم الشيخ الجليل الذي اغدقت عليه

السماء بركاتها فتأثر السلطان اسماعيل من شجاعة الشيخ التهامي ، واسرع إلى بيت الشيخ ممتطياً صهوة جواده ليقدم له احترامه ، وما أن وقعت عيناه عليه حتى ترجل عن جواده ، ولكن الشيخ رجاه أن يمتطي جواده وامسك بالركاب بينما كان السلطان يعتلي ظهر الجواد ، ومما يؤثر أن السلطان اسماعيل قال: «إنني منذ هذه اللحظة فقط اصبحت سلطاناً حقيقياً فأصبح من المألوف بعد تلك الحادثة أن يستدعي كل سلطان من سلاطين المغرب عند اعتلائه العرش كبير الاسرة الوزانية ويطلب إليه أن يقوم بالمراسيم التي بدونها لا يعتبر السلطان سلطاناً شرعياً . وهي أن يمسك الشيخ الوزاني بركاب الجواد عندما يمتطيه السلطان .

ولكن بعض السلاطين العلويين من بعد اسماعيل لم يحفلوا بذلك التقليد ، إلاّ أن القصة استمرت روايتها في وزان إلى الزمن الأخير . ومثل هذه القصص عادة تؤثر في العامّة فيعتبرونها عجائب ومعجزات جديرة بالتقدير والاكبار. وقد ازدهرت الطرق الصوفية منذ القرن الحادي عشر فانتشرت «زواياها» كمراكز للنشاط الديني ، فصار لها ملاجىء ومدارس وبيوتات ووصفت بانها تقوم باعمال الخير .

ثم ما لبثت هذه الطرق الصوفية وزواياها أن راحت تلعب دوراً بارزاً في حياة المغرب ، وعندما كان الاسبان والبرتغاليون يحاولون احتلال اجزاء من المغرب ، كانت تنطلق من هذه الزوايا الصوفية بوادر المقاومة العنيفة .

ولكن بعض الزوايا انحرفت عن اصول العقيدة ، في حين بقيت زوايا اخرى محافظة على التقاليد الاصيلة التي كانت ترتفع إلى أوج السمو الديني الصحيح أما الطرق الاخرى فلم يكن يهمها من الأمر سوى التظاهر بالتطور الروحي والاتحاد الصوفي مع الله . أما الطرق المنحرفة فقد اتخذت سبيلها نحو الانحطاط إلى درجة الخرافة والشعوذة والتدجيل ، ويقال مثل ذلك عن

شيوخ الزوايا فكان بينهم الشيخ الولي النبيل ذو السمت الباهر ، والمتعصب للدين ذو الغيرة والحماسة كما كان بينهم المهرِّج الذميم الذي كان يتخذ من منصبه ذريعة لتحقيق مطامعه في الاثراء وكان الناس يلتحقون بهذه الزوايا أو تلك على قدر فهمهم ووعيهم للأمور ، وكان من بين اعضاء هذه الزوايا بعض رجال المخزن «الحكومة المغربية» واصحاب المهن الحرة ، أما الاكثرية الملتحقة بها فكانت من الفقراء والجهال .

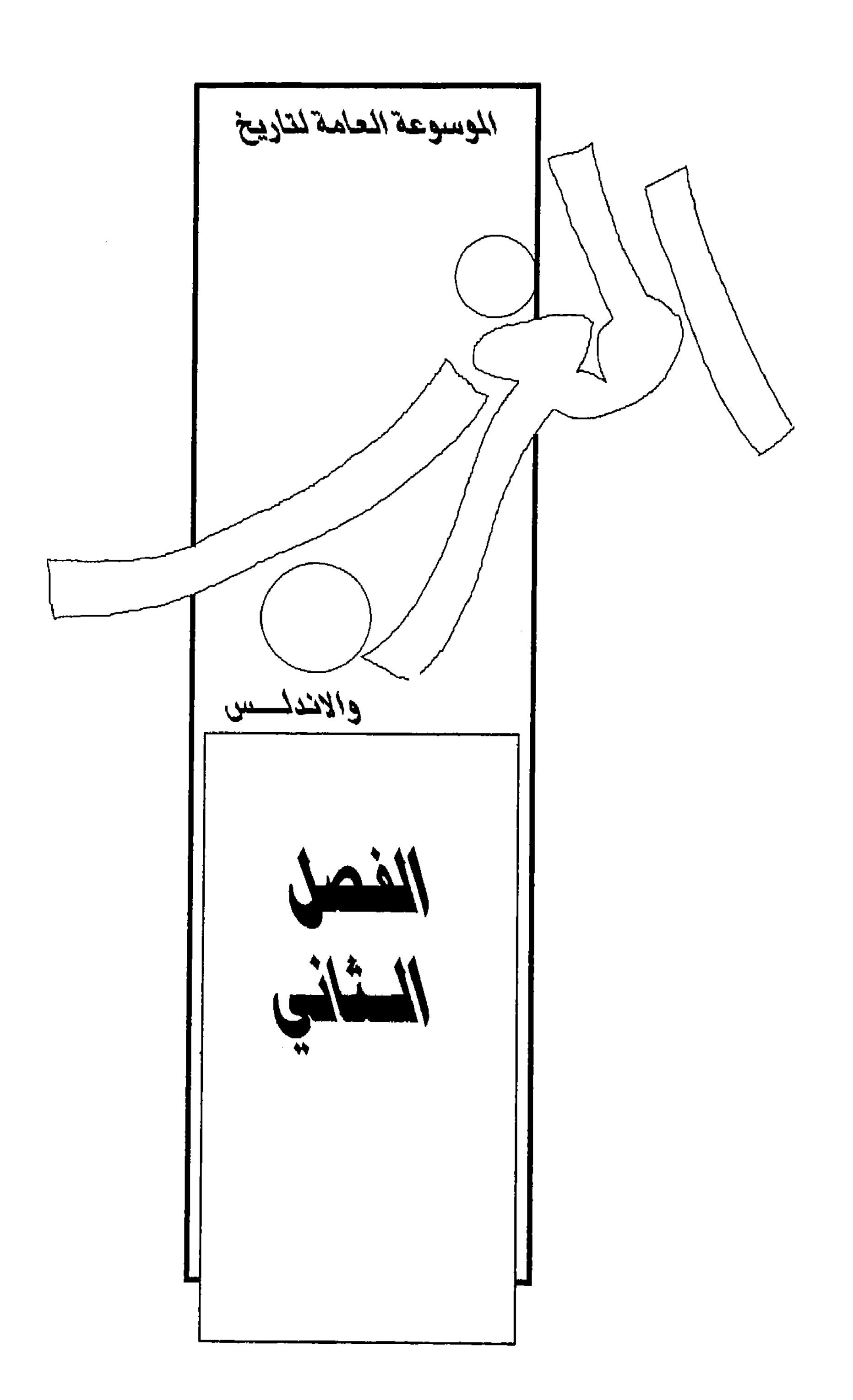
وكانت الطريقة **الدرقاوية** ، التي انشئت في أواخر القرن الثاني عشر تتمتع بسلطة قوية ونفوذ كبير أما الطريقة **التيجانية** فكانت حريصة على شؤون الدين تنظيماً وغاية .

وقد بقيت **التهامية الوزانية** محافظة على نشاطها الديني حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما شرعت تتدخل في السياسة ، ثم ظهرت **الطريقة الكتانية** في القرن التاسع عشر ، فلم يعبأ بها أحد في أول الأمر ، ولكنها بعد أن توطدت اركان الحماية الفرنسية في البلاد اصبحت ذات قوة يحسب حسابها لسببين اثنين أولهما لانها كانت تتعاون مع سلطات الحماية الفرنسية ، وثانيهما لانها كانت تناصب السلطان العداء بسبب مواقفه العدائية من الفرنسيين .

وعاشت من هذه الطرق الصوفية الطريقة **العيسوية** نسبة إلى منشئها محمد بن عيسى في القرن السادس عشر ، إلا أن اتباع هذه الطريقة ما لبثوا أن تخلوا عنها وراحوا يمارسون اعمال الدراويش وحركاتهم ويقومون بها في مجالسهم الخاصة مثل الرقص الصوفي والتواجد لدرجة فقدان الاحساس والشعور ، ولكن المغفور له الملك محمد الخامس أمر بابطالها والقضاء عليها بعد أن خرجت عن الحدود الدينية المعمول بها .

وكـان أفـراد بعـض هـذه الطـرق ينـاصبـون الفـرنسييـن العـداء لـدرجـة الكراهية والبغض الشديدين ، حتى انها كانت تعتبر الفرنسيين كفاراً ، وكان لـها تأثير على الحكومة المغربية يحول دون إقامة علاقات ديبلوماسية مع الدول الاوروبية .

وعندما احتل الفرنسيون الجزائر وجدوا أنه من الضروري أن يفوزوا بعطف مشايخ هذه الطرق الصوفية واستمالتهم إلى جانبهم .


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الـثاني

الفرنسيون واصحاب الطرق

خبر الفرنسيون جيِّداً هذه الطرق والدور الذي تلعبه ، وثمة وثيقتان اولاهما رسالة بعث بها منذ قرن من الزمن المارشال بوجو أول حاكم للجزائر إلى احد شيوخ الطريقة التيجانية ذات النفوذ الواسع ويقول المارشال في نهاية الرسالة : «عندما تشعر بحاجة إلى شيء ما أو إلى خدمة في أي نوع كانت ، فما عليك إلا أن تكتب إلى مرافقي الذي سَيَسرُّه أن يبلغني رغباتك»[1] ويقول أحد المختصين بشؤون الطرق الدينية في شمال افريقية وهو بول اودينو : «أن بعض شيوخ الطرق يميلون كل الميل إلى المال والنفوذ ، وهم يعرفون أنهم إذا قاوموا دولة الحماية فانهم لن يحصلوا على أي شيء منها» .

وإنَّ تعطش بعض الشيوخ من هؤلاء إلى المال والنفوذ كان يحملهم على دعم القضية الفرنسية ، ولكنهم كانوا حريصين على اقناع الفقراء بالانضمام إليهم ، للحفاظ على قوة نفوذهم لدى الفرنسيين .

---

(١) بول أودينو : الطرق الصوفية في المغرب ووهران ١٩٣٠ ص٣٣ .

أما الوثيقة الثانية فقد كانت اعلاناً بعث به خليفة الشيخ المذكور الذي تلقى رسالة المارشال بوجو إلى اتباعه بمناسبة الحرب بين فرنسا والامير عبد الكريم سنة ١٩٢٥ يدعو فيه اخوانه إلى مؤازرة الدولة المسيحية ضد مواطنيهم المسلمين .

ويقول الشيخ التيجاني محمد الكبير بن البشير في هذا الاعلان: أن فرنسا تكافىء على الخدمات التي تقدم لها . . . وفرنسا قد انتصرت مؤخراً في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٩ ، على واحدة من اعظم دول اوروبه واقواها ألا ينصر الله سبحانه وتعالى ويمنح من عباده من يشاء»[1] .

وعندما نجح الفرنسيون في اكتساب الشيوخ إلى جانبهم أخذ هؤلاء الشيوخ يستغلون أوهام اتباعهم ، فقد اوضحوا أن واقع انتصارات الفرنسيين الأولى في المغرب دليل على أن العون يأتيهم من قوى خارقة للطبيعة ، ولما كانت هذه القوى تعمل بارادة الله فإنه يتوجب على المسلم دينياً أن يؤيد الفرنسيين ، لا اولئك الذين تعاموا عن معرفة قصد الله وغايته .

وقد لاحظ اودينو في سنة ١٩٣٠ : «أن بعض الطرق الدينية التي كانت تقدم العون للفرنسيين بولاء ظاهر ، كانت تنجح في زيادة عدد الاتباع ويستنتج من هذا كله أن بعض رؤساء تلك الطرق كانوا يعرفون كيف يبررون مواقفهم وأعمالهم عند اتباعهم» .

علاقة بعض اصحاب الطرق بدول الغرب

ومع ذلك فإن السياسة التي اتبعتها فرنسا مع اصحاب الطرق الدينية جنت فوائد طيبة بصورة عامة فمن بين الزعماء المشايخ نجدان الطريقه الدرقاويه «أوصت بالطاعة والتسليم للسلطات الفرنسية» فإن شيخها

(١) بول أودينو: المرجع السابق.

عبد الرحمن لم «يتردد في سنة ١٩١٢ من ربط مستقبله بمستقبل فرنسا ، على أن هذا لم يحل دون تأييد الدرقاوية لألمانيا فيما بعد لدى نشوب الحرب العالمية الثانية» فقد كتب شيخها بعض رسائل شخصية إلى هتلر ، كما أن اتباعه اجتمعوا في الزوايا المتعددة يشكرون الله لأنه ألهم هتلر محاربة الفرنسيين . «ومهما يكن من أمر فإن جنود الحلفاء لم تكد تنزل في المغرب «في الحرب العالمية الثانية» حتى اتصل شيخ الدرقاويه بممثلي الولايات المتحدة وبريطانيا وطلب منهم أن يصبح مواطناً أمريكياً ، وأن يكون له خاتم خاص به ، وبيت في طنجه ، وسلطة تعيين ممثليه الشخصيين[١] .

شيخ الوزانية بين بريطانية وفرنسا

وقد ضمنت فرنسا المشيخة الوزانيّة ، عندما وجد شيخها عبد السلام الوزاني نفسه في مأزق حرج مع السلطان الحسن الأول سنة ١٨٨٣ ، فطلب حماية بريطانيا ، فرفضت الحكومة البريطانية طلبه» وهذا الشيخ هو غير عبد السلام بن مشيش الذي ظهر قبله باكثر من ٢٠٠ سنة فمنحه الحماية الفرنسية ، ويحق لفرنسا أن تهنيء نفسها على تأييدها للوزانيين لأنها جنت من ذلك فوائد جمة . فالوزانيون هم الذين ايدوا التوغل الفرنسي في الصحراء الكبرى أولاً ثم في المغرب فيما بعد ، وقد قدموا للفرنسيين خدمات جلى سنة ١٩١٢ وقاموا بدور هام عندما تخلوا عن الثورة الشعبية التي قادها عبد الكريم الخطابي زعيم الريف سنة ١٩٢٥ فكان ذلك أحد العوامل التي أدت إلى فشل الثورة واستسلام قائدها عام ١٩٢٦ بالبحث والتّحقيق .

إن التوغل الفرنسي في الصحراء الكبرى بمساندة الوزانيين يعتبر سبباً

(١) ف . س فيدال: الأخوة الدينية في السياسة المغربية . ميدل إيست جورنال واشنطن اكتوبر ١٩٥٠ .

مباشراً في احتلال السودان الفرنسي وافريقية الغربية . . لمن يريد أن يتعقب هذه القضية .

وللمزيد من التفصيلات عن عبد السلام الوزاني وزوجته الانجليزية يجسب مراجعة ماروكان جورنال «الجريدة الغربية» طبعة روبرت هيل ، لندن ، سنة ١٩٥٢ .

وقبل فتح المغرب بمدة طويلة ، كما يقول بول اودينو ، كانت التيجانية تقدم لنا العون ، ومنذ عام ١٩١١ ونحن نستغل نفوذها القوي في جنوب المغرب وموريتانية والريف ، وقد لخص جوليان الوضع بقوله : «لقد عرفت الحكومة الفرنسية كيف تستفيد من المتصوفين الذين مولتهم وحمتهم» .

الكتانية ـ من الدين إلى السياسة

أما الكتانية وشيخها فقد تمكنت ببراعة أن تستغل الامور الدينية وتستعيض عنها بامور سياسية ومادية ، وكان عبد الحي الكتاني شيخ الكتانية في عهد السلطان محمد الخامس من المع الشخصيات الصوفية المناوئة للسلطان محمد الخامس نفسه ، فقد كان بوصفه شيخ الكتانية «ولياً محترفاً» وكان يوزع بركته بحرية تامة وبثمن يتراوح بين حفنة من النقود الفضية أو رأس غنم أو كيس تمر إلى سجاد عجمي ثمين ، أو مخطوطات نادرة أو تحاويل مالية رسمية ، ولم يكن يستنكف عن قبول أيِّ شيء من هذه الهبات ما دام الواهب على استعداد لأن يهبه .

أنشئت الكتانية في أواسط القرن التاسع عشر على يد جد عبد الحي الكتاني ، وكان لعبد الحي أخ حاول اغتصاب العرش ، فقبض عليه السلطان عبد الحفيظ وأعدمه وعلى الأثر نشأت عداوة عبد الحي الكتاني لحلفاء

السلطان عبد الحفيظ ، بعد أن اقسم يميناً معظمة على متابعة عدائه للاسرة العلوية ، لذلك فقد كان حليفاً للفرنسيين ، ومن اكبر دعاتهم ضد السلطان وضد قضية المغرب ، وكان يجازف باقوال وافعال تعتبر في أي دولة خيانة عظمى ، ولكن سلطات الحماية كانت تحميه .

يصح لنا أن نقول هنا أن حماة الدين الاسلامي الشرعيين ونعني بهم علماء جامعة القرويين ، كانوا أشد خصوم هذه الطرق الصوفية وكانوا يعتبرون أولئك المشايخ مشايخ سوء ومنحطين ويعتبرون عملهم طعنة للاسلام .

وكان الحامي الأول للايمان في المغرب هو السلطان . . أما الكتاني فقد اعترف بأنه اضطر إلى التوجه إلى الفرنسيين «الكفار حسبما قال» للمساعدة ، وكتب سنة ١٩٥٣ يقول «أننا ندافع عن انفسنا جهدنا بتأييد قوي من السلطات» .

وعندما قرر ليوتي محاربة الأمير عبد الكريم زوّده اصحاب الطرق الصوفية بالمعلومات اللازمة لذلك .



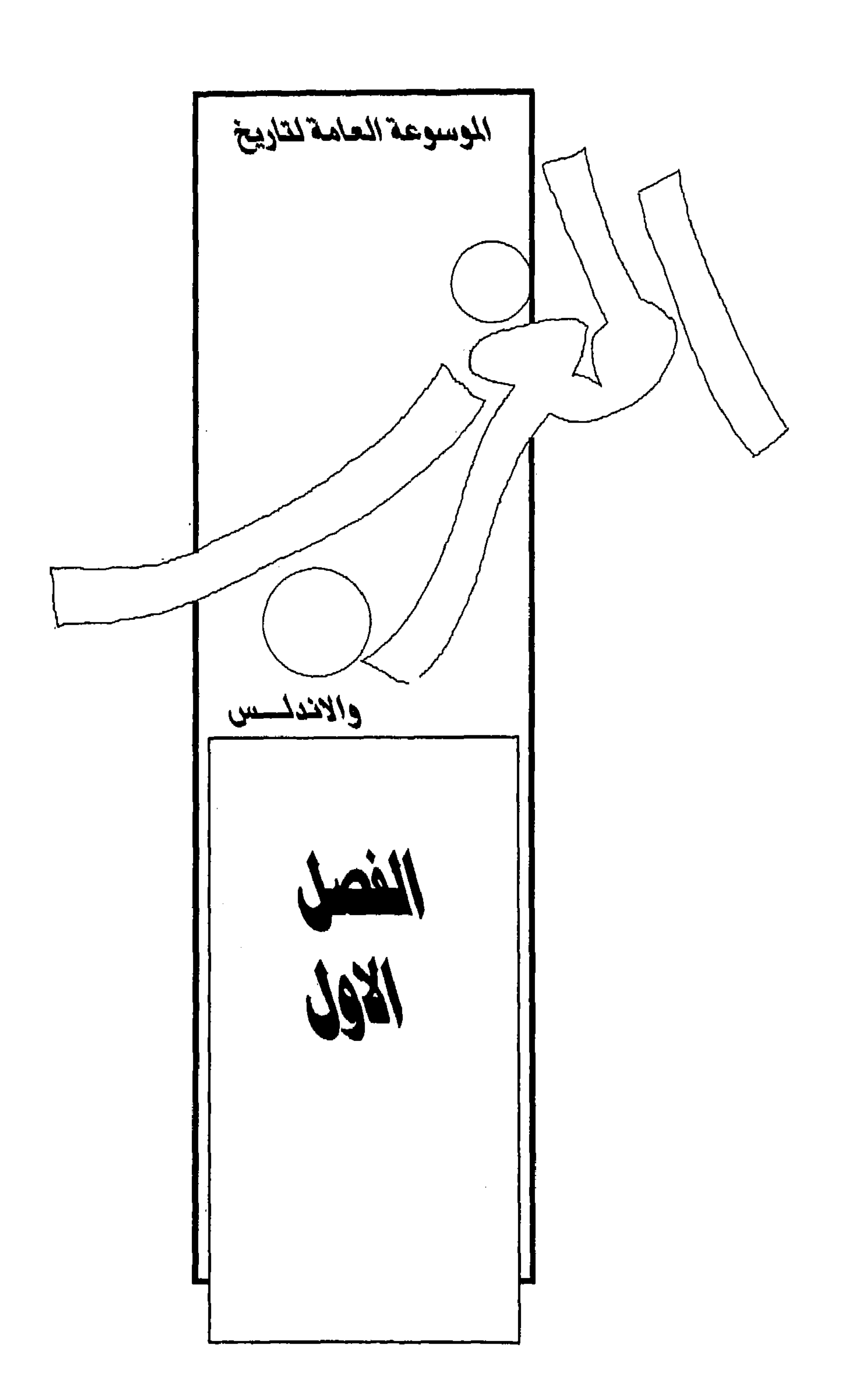
جلالة الملك المغفور له محمد الخامس



الباب السادس



مولاي إدريس زرهون


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الاول

ظهور الحركات الاستقلالية في المغرب

لم تمر احداث الريف وما آلت إليه من هزيمة مفجعة على الشعب المغربي قاطبمة مر الرياح في يوم عاصف ، ففي اعقاب حرب الريف تكونت في البلاد افكار جديدة ونظريات سليمة جديدة ، ومفاهيم عصرية جديدة أيضاً ، في عقول جيل جديد من أبناء المغرب بلد الحروب والبطولات وأخذت ردات الفعل تجيش وتتفاعل في صدور سكان المدن أولاً الذين هم اكثر ثقافة وأقل شجاعة من سكان الجبال ضد الاعداء المحتلين الذين اعتمدوا سياسة البطش والتنكيل بأبطال ثورة الجنوب ثم ثورة الاطلس واخيراً ثورة الريف ، فهبوا كأعاصير الشتاء للعمل المجدي ، والتنظيم المثمر .

نجم شمالي افريقية

في ذلك الجو المشبع برائحة البارود ، ومشاعر الحقد المتأججة في الصدور ضد المستعمرين بدأ ظهور الحركات الاستقلالية ، مثل «جمعية نجم شمال افريقية» التي لمع اسمها وتألق في المغرب والجزائر وتونس ،

فإذا كان الامير عبد الكريم قد حمل السلاح في وجه المستعمرين ، فان الزعيم مصالي الحاج قد حمل الحجج السياسية والبراهين الدامغة التي تدين المستعمرين وراح ينادي ويطالب بالاصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، إذ كان يعتبر نفسه خليفة للقائد الأمير عبد الكريم الخطابي ، وكان يرى في «جمعية نجم شمال المغرب» عملاً متمماً لجهاده وكفاحه ضد الاستعمار .

حلقة فاس والرباط

ثم ظهرت في الوقت ذاته «حلقة فاس» التي ضمت الزعيم علال الفاسي وصحبه الكرام ، وكانت هذه الحركة في أول أمرها تنادي بالقضاء على البدع والشعوذات الدينية وتعمل على تنقية الاسلام من ادعياء المشيخة» من اصحاب الطرق والزوايا وامثالها يضاف إلى ذلك حلقة الرباط بزعامة احد بلفريج الذي جمع حوله المثقفين المغاربة .

الحركة القومية المغربية

وقد ثبت حتى الآن أن الحركة القومية المغربية شهدت النور تحت أغصان شجرة توت في حديقة منزل السيد أحمد بلفريج في مدينة الرباط مساء اليوم الأول من شهر آب ـ اغسطس ـ سنة ١٩٢٦ ، في عهد المقيم العام الجديد ثيودور ستيغ ، والسلطان يوسف ، في ذلك الزمن كان العالم الاسلامي بما فيه العالم المغربي خاضعاً لنير الاستعمار الانجليزي ـ الفرنسي ـ الاسباني .

وكان هؤلاء الشبان في حلقة بلفريج يجتمعون ويتبادلون الآراء فيما آلت إليه أوضاع الاسلام والعروبة ، تحت حكم المستعمرين الصليبيين الجدد الذين يحتلون بلاد المشرق والمغرب معاً بالحديد والنار .

ففي ذلك المساء القيت خطب حماسية كثيرة في منزل بلفريج الذي كان يعيش بعد وفاة والده في رعاية خاله وكان في الثامنة عشرة من عمره .

وكان السيد احمد بلفريج قد تلقى علوم القرآن الكريم واللغة العربية في مستهل حياته في إحدى المدارس التي تعنى بتدريس القرآن واللغة العربية . وقد أهَّله ذكاؤه لأن يدخل مدرسة غورو الثانوية في الرباط ، وفيها نال درجة علمية ممتازة ، ثم انتقل بعدها إلى جامعة فؤاد الأول في القاهرة ، حيث تتلمذ على طه حسين ومصطفى عبد الرزاق ، واستقر في نهاية المطاف العلمي في باريس حيث درس في كلية الآداب والحقوق في السوربون ونال دبلوم الدراسات العليا .

واخيراً عاد إلى وطنه ، وكان آخر الخطباء في تلك الامسية الحافلة بالوطنية المتأججة فختم كلمته بقوله : «وبدون الحرية والاستقلال فإن ظلام القبر أرْوُحُ إلى النفس من نور الشمس» .

انصار الحق

وقد اسفر ذلك الاجتماع الليلي التاريخي عن تأسيس جمعية سميت رسمياً «أنصار الحق» وكان للجمعية اسم سريّ ، آخر هو «العصبة المغربية» كما اسفر ذلك الاجتماع عن انتخاب السيد أحمد بلفريج رئيساً للجمعية ، وهو أصغر المجتمعين سناً .

وفي ذلك الصيف بالذات شاءت محاسن الصدف أن يجتمع في مدينة فاس وفاس كما نعلم قبة الايمان وعاصمة المجد والمساجد والجامعات والذكريات المضمخة برائحة أثار الادارسه وبني مرين وكل ما يعود بالعقول والنفوس إلى أيام المجد الغابر أيام الاستقلال والسيادة عندما كان المغرب امبراطورية كبيرة واسعة الارجاء مترامية الجوانب . نقول حصل في فاس

اجتماع اصبح تاريخياً فيما بعد وقد شهدته مدرسة القرويين وفي احدى غرف النوم التي يستعملها الطلاب عادة في الهزيع الاخير من تلك الليلة وقف شاب في الثامنة عشرة من عمره ابيض اللون . شعره ضارب إلى الصهبه ، ذو عينين تألق فيهما لون زرقة السماء كان ذلك الشاب هو الطالب علال الفاسي . خطيب الجامعة وشاعرها ومعه بعض رفاقه التلامذة .

أما سبب الاجتماع فكان للبحث عن رد مفحم للعقائد الهدامة التي كان ينشرها «الشيخ» عبد الحي الكتاني احد اساتذة جامعة القرويين ، وكان هذا الرجل العجيب الغريب في تكوينه وتعاليمه يحاول أن يروج وفي اكبر جامعة وأعرقها وأقدمها بتدريس علوم الدين الاسلامي ـ عقائد هدامة خارجة عن الدين وتشهِّر بالاسلام مستمدة من الخرافات والأكاذيب والأباطيل المضلله عامداً متعمداً بصفته عميلاً للمخابرات الفرنسية ، ومساعداً للشرطة الفرنسية التي جعلت منه جاسوساً على الطلبة .

ولما وقف الطالب علال الفاسي القى خطاباً حماسياً جامعاً لكل الأسباب التي اجتمعوا من اجلها ثم ختم خطابه قائلاً : «ولكن قبل أن نصلح الآخرين يجب أن نبدأ باصلاح انفسنا ، وإذا ما أردنا أن نبشر بالاسلام الصحيح فإننا يجب أن نقود البلاد إلى مستقبل باهر ، فلنحرر انفسنا كي تحرر أجسادنا» .

وكانت كلمته النارية تلك تنبعث من اصداء تعاليم المصلح الكبير جمال الدين الافغاني . وتعاليم الشيخ محمد عبده وكلاهما كان يؤمن بأن لا سبيل إلى تجديد الحياة الطبيعية إن لم تسبق ذلك ولادة ثانية للروح .

اتحاد الطلاب

وانتهى الاجتماع باتخاذ قرار لتأسيس حركة سرية غايتها النهوض

بالمغرب عن طريق إشاعة وتوضيح الاسلام الصحيح الخالي من البدع والشعوذات . ولم يمض وقت طويل على «اتحاد الطلاب» حتى أخذ علال الفاسي على عاتقه انشاء جماعات محلية في جميع المدن المغربية .

ومن هنا يتضح أن الباعث على نشوء الحركة القومية الاستقلالية كان حرب الريف التي انتهت في عام ١٩٢٦ ، لأن جهاد الامير عبد الكريم الخطابي بعث الروح الوطنية في صدور شبان المغرب ، ولأن مقاومته المسلحة ، خلقت في صدور الشبان حوافز الثورة المغربية الجديدة ، وهي الثورة التي اعتبرت احتجاجاً صارخاً وتعبيراً أكيداً عن ثورة المسلمين ضد مادية المستعمرين .

وقد كان الطلبة في جامعة القرويين يتداولون فيما بينهم خطب الامير عبد الكريم والمأثور من تصريحاته المدوية «عندما كان يحمل بشدة على مدنية الحديد والبارود الآتية من الغرب والتي جعلت من المستعمرين برابرة متوحشين يحاربون شعوباً اسلامية شبه مجردة من السلاح» .

ولا غرو فقد زين الغرور للمستعمرين ، أنهم من جنس متفوق يتسامى بعنصريته على الشعوب العربية والاسلامية الأمر الذي جعلهم ينظرون إلى العرب والمسلمين نظرة احتقار واستخفاف بتاريخهم وحضارتهم ومعتقداتهم الدينية . ومن هذا الغرور المرذول والتعصب الاعمى نشأت لدى المستعمرين على الأرجح فكرة مناهضة الاسلام بالمؤسسات التبشيرية ، ومكافحة التاريخ الاسلامي بتشويه أمجاده وعظائمه ، ومناهضة الحضارة الاسلامية بانكار وجودها أصلاً . . .

وبهذه الافكار ويا للأسف الشديد ما زال المستعمرون القدماء وحتى يومنا هذا وبواسطة الاستعمار الاقتصادي والتجاري المقنع يشوهون التعاليم

الاسلامية والتاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية .

وكانت تهب على المغرب والعالم العربي بين الوقت والآخر رياح ساخنة منطلقة من صدور زعماء أماثل كرسوا انفسهم لأحياء التعاليم الاسلامية الصحيحة ، واشعال نيران الثورة العربية الاسلامية الجديدة ، وايقاظ الشعور الوطني في قلوب ابناء العرب والمسلمين في جميع اقطارهم ومن هؤلاء السادة المصلحون : جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، واحمد عرابي ، وشكيب ارسلان . واحمد عارف وفهمي الحسيني وحمدي الحسيني من غزة في فلسطين وغيرهم من الكتاب والشعراء المعاصرين وفي مقدمة هؤلاء الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران ، وأحمد حسن الزيات ومصطفى الرافعي وغيرهم . ولما اصدر المستعمرون الفرنسيون «الظهير البربري» الرامي إلى تنصير البربر المغاربة في ١٦ أيار سنة ١٩٣٠ ، اتخذته الحركة الوطنية مناسبة لفضح التدخل الفرنسي في الشؤون الاسلامية ونوايا فرنسا في التفرقة بين المسلمين .

دور الجمعيات التبشيرية الهدام

وإذا اضفنا إلى ذلك الجمعيات التبشيرية البروتستانتية التي عممها الانجليز في فلسطين ومصر ، والجمعيات الكاثوليكية والاورثوذكسية التي عممها الفرنسيون في سوريا ولبنان تتضح لنا النوايا الشريرة التي كان يتبناها المستعمرون لاضعاف العقيدة الاسلامية وزعزعتها تمهيداً للقضاء على الاسلام . . وما تزال هذه الجمعيات التبشيرية تمارس اعمالها في معظم الدول العربية والاسلامية حتى بعد أن نالت تلك الدول استقلالها ، باساليب مقنَّعة على شكل جمعيات ومؤسسات ثقافية كاذبة ومضلله ، تستخدم كتاباً وشعراء لترويج أضاليلها ضد الاسلام والقرآن واللغة العربية والشعر العربي على السّواء ويتمثل ذلك افضل تمثيل في المؤسسات المماثلة الموجودة في

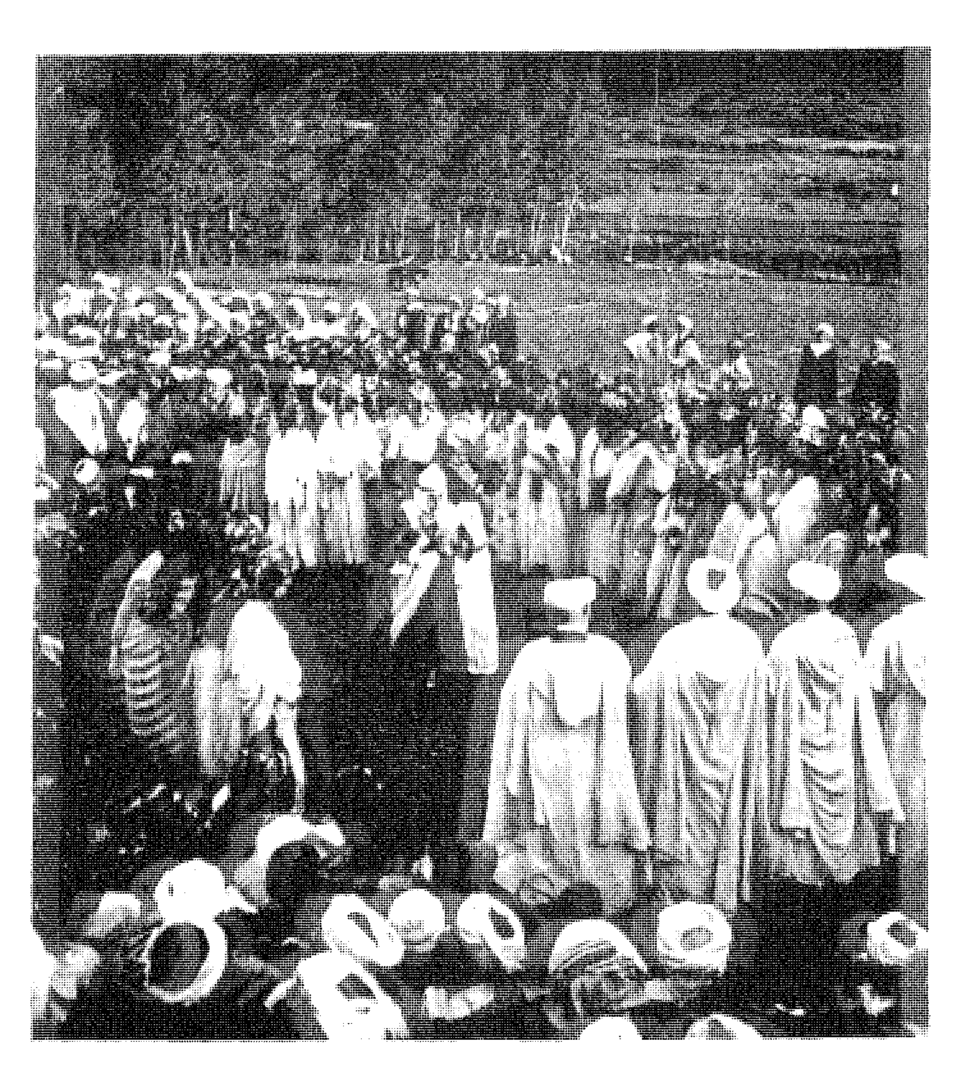
لبنان حيث تجري منذ عام ١٩١٧ إلى يومنا هذا عمليات غسل أدمغة لبعض فئات من اللبنانيين واستئصال فكرة العروبة والدين واللغة من رؤوس البعض من أبنائه المخدوعين .

الشباب المغربي يقود حركة الوعي

لقد كان مولد المؤسسات الوطنية الاستقلالية في الرباط وفاس دليلاً على أن الثورات والحروب الوطنية التي اندلعت في المغرب لم تذهب سدى .

ولكن هذا البعث الجديد في النفوس والافكار كان يحتاج إلى بلورة ، وإلى نظام قوي ، وشخصية مغربية قوية ، لكي تتزعم الحركة الوطنية المغربية واهدافها الاستقلالية . ولكي تقود عناصر الشبان وأفكارهم المضيئة قيادة سليمة نحو تحقيق أهدافها . .

وما أن اعتلى السلطان محمد الخامس بن يوسف عرش المغرب حتى وجد فيه المغرب الزعيم المنشود الذي سيقود سفينة المغرب نحو الحرية والاستقلال . فالتّفت حوله المؤسسات الحزبية المكونة من عناصر الشبان الذين اسسوا جمعياتهم العلنية والسرية في الرباط وفاس في اعقاب هزيمة حرب الريف .



أحد المهراجانات الشعبية التي يحييها الشعب المغربي في مدينة «مراكش»

(انتهى الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس)

١ ـ فهرس الأعلام

ـ أ ـ

- س -

- ش -

- ط -

- ع -

ـ غ ـ

- هـ -

- و -

- ي -

٢ ـ فهرس المدن والأماكن

ـ أ ـ

ـ ب ـ

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

ـ ش ـ

- غ -

- ف -

ـ و ـ

ـ ي ـ

٣ ـ فهرس البلاد والقبائل والشعوب والأمم

ـ أ ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

٤ ـ فهرس المصادر

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى للناصري الدار البيضاء ١٩٥٦.

البرق اليماني في الفتح العثماني ـ قطب الدين المكي

تاريخ تطوان ـ محمد داودو ـ معهد مولاي الحسن تطوان ١٩٥٩.

تاريخ العرب المطول ـ فيليب حتي ـ بيروت

الاعلام ـ خير الدين الزركلي ـ بيروت

كتاب **المغرب** ـ الاستاذ الصديق بن العربي ـ دار الغرب الاسلامي.

الوثائق: مجموعات دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية ـ المطبعة الملكية الرباط ١٩٩٢.

الوكالة الحضرية للدار البيضاء ـ نشرة صادرة عن وزارة الداخلية في المملكة المغربية.

عدد خاص ممتاز عن السياحة في المغرب رقم ١١٤ آب/ اغسطس ١٩٧٣.

وثيقة تاريخية عن تطوان ـ محمد بن تاويت ـ ١٩٥٦ .
مجلة العربي عدد ٢٢٩/ ١٩٧٧ ـ فهمي هويدة .
التقارير السرية في المعاهدة الفرنسية الايطالية حول ليبيا ١٩٢١ .
صحيفة الاستقلال المغربية عدد ٢٣ سنة ١٩٥٢ .
نشرة الأنباء المغربية ـ نيويورك ٢٨/ ١١/ ١٩٥٢ .
تاريخ المغرب في القرن العشرين ـ روم لاندو ترجمة نقولا زيادة بيروت ١٩٨٠ .

المصادر الاسبانية

- historia de España - Aguado Bleye pedro 1928
- La España de Franco (1936-1945) Madrid 1983 por Antonio Marquina Barrio.
- Franco visto por sus ministros- de varios planeta.
«-La España real» julián Mariás - Espasa calpe 1975.
- EL Escándalo del islam - J - M Gironella planeta 1982.
- España - servicio informativo espñpol Madrid 1963.
- Textos - sección de documentación mimistro de informción Madrid.

المصادر الفرنسية

- Raynard, Robert. le livre Jaune Francais.
- Ricard, Prosper (les guides bleus) - Paris 1948.
Victor Berti: les evenementd de Casablanca August - sepetemlre 1953.
- Lyautey. L. H. G, paroles d'actions Paris 1927.
- Odinot, Paul: rôle politique des Confreries Religieuses et des zaouias au Maroc orán 1930.
-Albert Musset: lanegociationFranco-Espagnole sur le Maroc - le

Monde 10 sep. 1954.
- Documents diplomatiques (affaires du Maroc 1910 - 1912 N 428.
- Dr Weissgerber: Au seuil du Maroc moderne - la Porte - Rabat.
- Marcais G - L'Alriqie du Nord françauise dus l'histoire Paris 1937.
- Atlas des civilisations africaines - Nathan.
- Maroc: office National Marocain du tourisme sejours au Maroc.
- Encyclopédie Noms propres de la langue française

المصادر الانكليزية

- Walter. B. Harris - Morocco that - Was london 1921.
- E. D. Morel - Morocco in diplomacy. london 1912
-Parliomentary Papers (cd. 5969) 1911 H. M stationery office.
- Parliamentary papres 9cd 2384) 1905 H. M stationery office.
- Eugene Aubin. Morocco of to - day london 1906.
- Harold Nicolson, sir Arther Nicolson 1930.
- Prince van Bulow deusch land und die máchte 1930.
-Archives of the American legation at Tangier 1930.
- F. S. vidal Religious brotger hoods in Morocco politics - Middl East Journal washington october 1950.
- Hassan 11 King of Morocco - the challenge Translated by Antony Rhodes 1978.

٥ ـ فهرس المحتويات


الدولية للثقافة والنشر
بيروت. لبنان ص ب ٥١٩٦/١١٣ - الحمراء



نجيب زبيب

ربما تكون هذه الموسوعة أول عمل ضخم يتناول تاريخ المغرب والأندلس منذ أن وطئت أقدام الكنعانيين أرض الشمال الافريقي وشبه جزيرة إيبيرية في الألف الثالث قبل الميلاد إلى يومنا هذا، يقدمها الاستاذ نجيب زبيب بسرده العلمي والموضوعي للأحداث وبأسلوبه الأدبي المشرق ومن هنا يكون هذا التزاوج المتين بين دقة المعنى وأناقة العبارة. وهي وإن كان موضوعها تاريخ المغرب والأندلس إلاّ انها حافلة بجلائل الأحداث التاريخية الكبرى التي كانت البلاد العربية والاسلامية في مختلف عصورها التاريخية مسرحاً لها

هذا الكتاب

تعتبر هذه الموسوعة من أجل الأعمال التي كتبها الاستاذ نجيب زبيب وأضخمها. إنها بحق كما وصفها المؤلف بنفسه وصف الواثق المطمئن «عقد فريد لم يسبقني إليه الأوائل وسيكون نبراساً للأواخر ومفتاحاً لكل أبواب تاريخ المغرب العريق بأمجاده والعريق بإيمانه بوطنيته وبعقيدته الاسلامية والعريق أيضاً بعروبته وكنعانيته» . . .

وإذا قيل عن العقد الفريد لابن عبد ربه أنه (خزانة حوت خلاصة علوم ذلك العصر) فإن عقد الاستاذ نجيب زبيب هذا هو سجل ضخم حافل للأحداث في مختلف العصور القديمة منها والحديثة وذاكرة حيّة شاهدة وعت التاريخ العربي والاسلامي بعمق في مشرق البلاد العربية ومغربها وغاصت في زواياه ومنعطفاته فسجّلت ودوّنت ونقلت تفاصيله بكثير من الصدق والأمانة والدقة والموضوعية.

في هذه الموسوعة يتكلم الاستاذ نجيب زبيب عن المغرب فيعرض لتاريخه النضالي الطويل منذ زمن الكنعانيين وحتى بدايات عهد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني مبرزاً الدور الريادي الذي لعبه على مسرح الأحداث في إفريقيا والأندلس والمغرب العربي الكبير وحضوره الفاعل في الميادين السياسية المعاصرة؛ العربية منها والاسلامية والعالمية على حد سواء.

